رَبَّانِيَّةُ الإِسْلام

كُونُوا رَبَّانِيِّينَ



١٤٣٩ هـ / ٢٠١٨ م

رقم الإيداع: ١٩٨٩١/ ٢٠١٨

الترقيم الدولي: 5-56-6648-977 -978

الناشر



٢٣ شارع محمد عبده - خلف الجامع الأزهر - القاهرة

٠٠٢٢٥١١٧٧٤٧

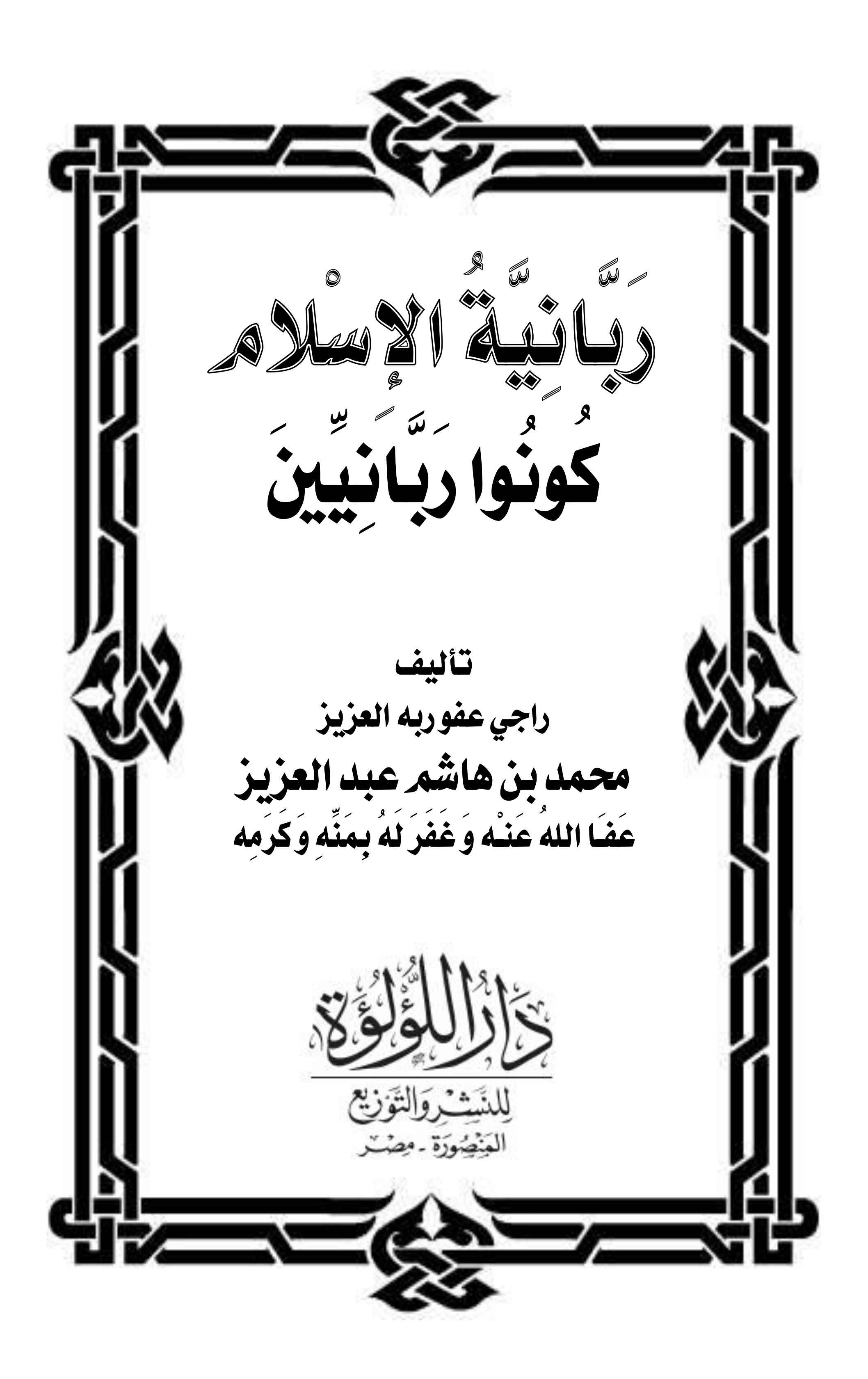
فرع المنصورة: شارع الهادي - عزبة عقل - المنصورة

ت: ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣ - ٠٠٢٠١٠٠٧٧١١٦٦٥

٠٠٢٠١٠٩١٣٧٨٥٨٣

واتس/ ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣

Dar_Elollaa@hotmail.com



رَبَّانِيَّةُ الإِسْلام

كُونُوا رَبَّانِيِّينَ

تأليف

راجي عفو ربه العزيز

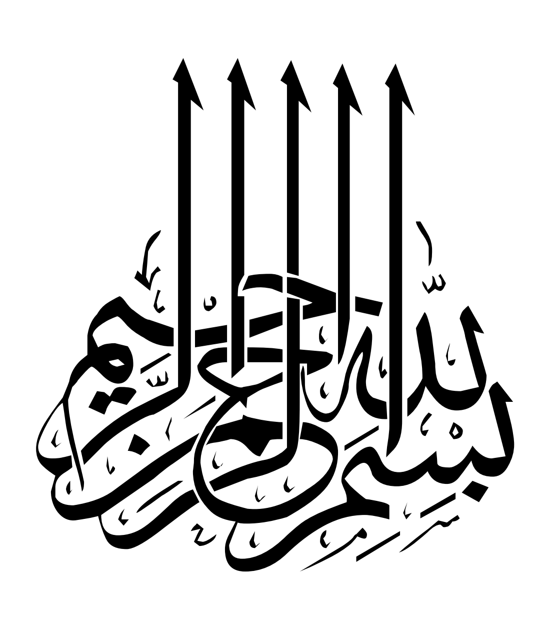
محمد بن هاشم عبد العزيز

عَفَا اللهُ عَنْه وَغَفَرَ لَهُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ

دار اللؤلؤة

للنشر والتوزيع

المنصورة - مصر


بسم الله الرحمن الرحيم




الإهداء

إلىٰ الرجل الكريم الذي عاش راضيًا ومات صابرًا محتسبًا، إلىٰ من عرفته محبًّا لله ورسوله ﷺ، إلىٰ من زوجني ابنته إكرامًا لكتاب الله سبحانه وتعالىٰ، إلىٰ صهري العزيز ووالدي الكريم/ عبد الجليل عبد الجليل السيد مصطفىٰ، الذي أسأل الله أن يرحمه رحمة واسعة، كما أسأله سبحانه وتعالىٰ أن يتقبل منّي هذا الكتاب بفضله وكرمه، وأن يُجْرِيَ عليه رحمه الله أضعافَ ثوابه، وأن يجمعنا به في جنات النعيم.






مقدمة المؤلف

الْحَمْدُ للهِ خَالِقِ الدُّجَىٰ وَالصَّبَاحِ وَمُسَبِّبِ الْهُدَىٰ وَالصَّلاحِ، وَمُقَدِّرِ الْغُمُومِ وَالأَفْرَاحِ، الْجَائِدِ بِالْفَضْلِ الزَّائِدِ وَالسَّمَاحِ، عَزَّ فَارْتَفَعَ، وَفَرَّقَ وَجَمَعَ، وَوَصَلَ وَقَطَعَ، وَحَرَّمَ وَأَبَاحَ، مَلَكَ وَقَدَرَ، وَطَوَىٰ وَنَشَرَ، وَخَلَقَ الْبَشَرَ وَفَطَرَ الأَشْبَاحَ، رَفَعَ السَّمَاءَ وَأَنْزَلَ الْمَاءَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ وَذَرَىٰ الرِّيَاحَ، أَعْطَىٰ وَمَنَحَ، وَأَنْعَمَ وَمَدَحَ وَعَفَا عَمَّنِ اجْتَرَحَ وَدَاوَىٰ الْجِرَاحَ، عَلِمَ مَا كَانَ وَيَكُونُ، وَخَلَقَ الْحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ، وَإِلَيْهِ الرُّجُوعُ والركون في الغد وَالرَّوَاحِ، أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَأَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ لِعَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَيْهِ، وَأَشْهَدُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ عَنْ أَدِلَّةٍ صِحَاحٍ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُقَدَّمُ وَرَسُولُهُ الْمُعَظَّمُ، وَحَبِيبُهُ الْمُكَرَّمُ، تَفْدِيهِ الأَرْوَاحُ،

أما بعد:

فإنَّ الخيرَ كلَّ الخيرِ أن يعيش الإنسان في صحبة كتاب الله سبحانه وتعالىٰ، كما أن الشرف كل الشرف أن يعيش المرءُ خادمًا لكتاب ربِّه، ولا يخفىٰ أن القرآن هو المنهاج الذي ارتضاه الله للناس، وبيَّن الله سبحانه وتعالىٰ أن القرآن نور قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء:١٧٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا

ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢].

ووضَّح ربُّنا أنَّ القرآن هدىٰ وشفاء قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۠عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت:٤٤].

– ولقد أمرنا ربُّنا بتدبر القرآن الكريم فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص:٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٨].

ومن هنا أقول: وأنا أتدبر القرآن الكريم كما أمرني ربي وخالقي

سبحانه وتعالىٰ، استوقفني قولُ الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران:٧٩].

– وكان السبب الذي أود أن أذكره لك أيها القارئ الكريم، لتعيش معي بوجدانك، ما عشته بوجداني، ولتقف علىٰ مشاعرَ وأحاسيسَ عشتها أيامًا وشهورًا طويلة.

– منذ عدَّة أعوام شاء الله أن أحط رحالي في أوروبا، وتحديدًا في ألمانيا في مدينة فرنكفورت، وجئتها بفضل الله سبحانه كخادم من خدام كتاب الله، ومبلغًا عن الله ورسوله ﷺ، وأسأل الله أن أكون أهلًا لذلك، كما أسأل الله أن لا يحرمني من شرف الدعوة إليه سبحانه وتعالىٰ.

– ولا يخفىٰ أنَّ كلَّ بلدٍ له ثقافته وطبعه، بل العجيب أن الناس يتأثرون بثقافة البلد الذي يعيشون فيه، وإن لم يتأثروا فإنهم يحافظون علىٰ أن لا يصطدموا بأهل البلد، ولا بثقافته حتىٰ لا يضعوا أنفسهم في حرج أو تضييق، ومن هنا وفي بَدء مشواري الدَّعوي في هذا البلد، كنت حريصًا علىٰ أن أجلس لأسمع من الناس ما يشغل تفكيرهم، وما يحبون أن نتناوله بالحديث، وكنت أقف علىٰ كلام مختلف، بل ومتضارب في كثير من الأحيان، خصوصًا وأن الناس من جنسيات مختلفة، وكذلك الثقافة متفاوتة، سواء كانت علمية، أو فكرية أو.......

– ومن هنا وجدتني في حيرة، لا سيما وأنا أسمع من ينادون بمواكبة العصر والتطور، وكأنهم يتهمون الإسلام بالرجعية والتخلف، كما أسمع من ينادي بالرجوع إلىٰ ما كان عليه الشَّرْبُ (الجيل) الأول من الصحابة، وطبعًا

ليس على هذا خلاف.

ولكنَّ المشكلةَ في طريقة العرض التي تجعل من الطبيعي طرح هذا السؤال: هل الإسلام منهج يتسم بالجمود؟!

والجواب: إن الإسلام صالح للتطبيق في كل زمان ومكان، لأنه منهج رباني خالص، والله يعلم من خلق كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٣- ١٤].

فمن اتهم المنهج الرباني بالرجعية والتخلف فهو مخطئ.

كما أنَّ من اتهم المنهج الرباني بالجمود مخطئ.

✍ **بل أستطيع أن أقول**: كلاهما لا يعرف الإسلام.

- ثم وجدتني أمام من يحمل فكرًا لجماعة، أو لحزبٍ، ويريد أن ينصر فكرة جماعته، أو حزبه، لأنه مقتنع أن الحق معه، مع أن التفرق والتحزب ليس من الإسلام في شيء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩]، بل لو حدث التفرق وقع البأس بين المسلمين كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام:٦٥]، ولنتأمل هذا الحديث الذي ورد عند نزول هذه الآية الكريمة: عَنْ جَابِرٍ ﭬ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:

٦٥]، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، قَالَ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا أَهْوَنُ - أَوْ هَذَا أَيْسَرُ». (١)

ثم حَرِيٌّ بنا أن نتدبر هذا الحديث أيضًا لأنه وصف دقيق لواقعنا الذي نحياه، ولا يخفىٰ علىٰ ذي بصر ما يحدث الآن بين الفرق والجماعات، من شقاق وبأس، بل وصل الأمر إلىٰ استحلال الدماء والعياذ بالله، ونسأل الله تعالىٰ السلامة من الفتن.

* عن عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حَتَّىٰ إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: «**سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا**». (٢)

- ومن هنا وقفت خائفًا وجلًا، لأنَّ باعي قصير، وماذا عساي أفعل؟

وجاء الفرج من الله لمَّا تدبرت قول الله تعالىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فتيقنت أن كل خطيب يبتعد عن القرآن

(١) صحيح البخاري: (٤٦٢٨).

(٢) صحيح مسلم: (٢٨٩٠).

بدعوىٰ مواكبة العصر والتطور مفلسٌ من القرآن، لأنه لو كان صاحبَ قرآن لاختلفت نظرته، ولكان واثقًا في نفسه خصوصًا لأنه يأوي إلىٰ ركن شديد إذا أوىٰ لكتاب الله.

ثم تدبرت قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، فالله قال عن صلاة الجمعة: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، فالأصل أن تكون الخطبة كذلك: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾.

ومن هنا بدأت رحلة جديدة مع كتاب الله، ووقفت مع قوله تعالىٰ: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وسألت نفسي أسئلة كثيرة، وجمعت كلَّ ما أستطيع من كتب ومراجع لأطوف حول فكرة الربانية، لأنني أريد أن أجمع الناس علىٰ المنهج الذي ارتضاه الله (١)، وعشت شهورًا طويلة أطوِّف مع هذه الآية، ويا سبحان الله!، وجدت إقبالًا بفضل الله علىٰ الخطب وعلىٰ الكلام، حتىٰ إن المكان كان يضيق بالمصلين من شدَّة الزحام، وكذلك وجدت تغيُّرًا عند كثيرين ممن كانوا يناقشون قبل سماع هذا الكلام، وجاء الكلام بهذه الصورة التي امتن الله بتمامها لتكون هذا الكتاب الذي أقدِّم له

---

(١) هذا علىٰ حسب اجتهادي وظني، وأسأل الله أن أكون وفقت لما يرضيه سبحانه، وإن كنت أخطأت في شيء فأنا أستغفر الله قيوم السموات والأرض سبحانه وتعالىٰ، وأسأله سبحانه وتعالىٰ بواسع رحمته قبول توبتي ومغفرة خطاياي وزلَّاتي.

الآن بفضل الله تعالىٰ.

– ومع كثرة العمل والمشغوليات، لم أجد وقتًا أتفرغ فيه لصياغة ما جمعته حول الربانية، ولكن إذا أراد الله تمام شيء، يسر الأمور، وامتن الله ببعض المرض مُنعت به من العمل، وهنا وجدت فضل الله تعالىٰ، واستشعرت النعمة رغم التعب، وكأنَّ الله أجلسني ليفرِّغَنِي لإتمام ما كنت شرعت فيه، ولم أجد وقتًا لإنهائه.

– وكأنَّ لله الحكيم حكمةً أن أبدأ في ألمانيا وتحديدا في مدينة فرنكفورت متحدثًا عن الربانية، وأختم إقامتي في فرنكفورت كاتبًا عن الربانية، ونسأل الله أن نكون من الربانيين.

والكتاب جاء بفضل الله تعالىٰ في عدَّة فصول:

١ – الفصل الأول: ربانية الغاية والوجهة.

وفيه عدّة مباحث:

المبحث الأول: في معرفة الرب تعالىٰ.

المبحث الثاني: لماذا كان الله هو المقصود (الغاية) دون سواه؟

المبحث الثالث: ثمرات ربانية الغاية في النفس والحياة.

المبحث الرابع: تفاوت الناس في الغايات والوجهات.

المبحث الخامس: وسائل الإسلام لغرس الربانية في النفس والحياة.

٢- الفصل الثاني: ربانية المصدر و المنهج.

وفيه عدّة مباحث:

المبحث الأول: الإسلام منهج رباني خالص.

المبحث الثاني: من خصوصيات المنهج الرباني.

المبحث الثالث: مكانة الرسول ومنزلة السنة في المنهج الرباني.

المبحث الرابع: ثمرات ربانية المصدر.

٣- الفصل الثالث: لماذا نحتاج إلىٰ الربانية؟

وفيه عدّة مباحث:

المبحث الأول: تحقيق السعادة.

المبحث الثاني: الدخول في معية الله وحمايته.

المبحث الثالث: تأمين مستقبل الأولاد.

المبحث الرابع: الانسجام مع الفطرة.

المبحث الخامس: عودة العلم المفقود (الخشوع).

المبحث السادس: التمكين لدين الله.

المبحث السابع: نصر الله للربانيين.

٤- الفصل الرابع: الدليل إلىٰ الربانية.

وفيه عدّة مباحث:

المبحث الأول: القرآن الكريم هو الدليل إلىٰ الربانية.

المبحث الثاني: لماذا أنزل الله القرآن؟

المبحث الثالث: القرآن هو سر نهضتنا.

المبحث الرابع: القرآن روح القلوب وقوتها.

المبحث الخامس: لماذا لم ننتفع بالقرآن؟!

عملي في هذا الكتاب:

انطلقت مستعينًا بالله طالبًا منه العون والمدد والتوفيق وقمت بالآتي:

١- جمعت ما تيسر من كتب ومراجع [١]، تتناول الحديث عن الربانية، وهناك من الكتب ما أخذت منه فكرة فقط، وهناك ما أخذت منه موضوعًا، وهناك ما نقلت منه نقولات باختصار، إلىٰ غير ذلك.

٢- كنتُ حريصًا علىٰ أن يكون حديثي من كلام الله ومن كلام رسول الله ﷺ، وبعد ذلك أذكر بعض الأقوال من كلام السلف الصالح.

---

(١) **ومن باب ذكر الفضل أقول**: لقد انتفعت بفضل الله كثيرًا في بحثي هذا بعدة كتب في التفسير وأخص منها بالذكر كتاب تفسير الطبري، وابن كثير، والفخر الرازي، والتفسير المنير، وبالكتب الستة: (البخاري ومسلم والسنن الأربعة) وغيرها، وبكتب الإمام ابن القيم في عمومها وخصوصًا مدارج السالكين، وإعلام الموقعين، وبكتب الشيخ محمد الغزالي في عمومها، وخصوصًا المحاور الخمسة للقرآن الكريم، كما انتفعت بكتاب: الخصائص العامة الإسلام، وكتاب الطريق إلىٰ الربانية، وكتاب مقاصد المكلفين، وكتاب: مدخل لمعرفة الإسلام. وكتاب مناظرة بين الإسلام والنصرانية، وغير ذلك من الكتب جزىٰ الله أصحابها خير الجزاء. وأقول هذا: اعترافًا بالفضل وطلبًا لبركة العلم، وكذلك حتىٰ ألقىٰ ربِّي خفيف الحمل.

٣- عزوت الآيات إلىٰ مواضعها في القرآن الكريم ذاكرًا اسم السورة ورقم الآية.

٤- قمت بتخريج الأحاديث، فأذكر من روىٰ الحديث من أئمة هذا الشأن، وإن كان في البخاري ومسلم أو في أحدهما اكتفيت، وإن كان في غيرهما أذكر من رواه وخرجه مستصحبًا ذكر درجة الحديث من صحة أو ضعف أو...... وهذا في الأعم الغالب.

٥- القصص والمواقف لها أثر في النفوس، ولهذا في بعض الموضوعات وانطلاقًا من قوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٦] انتقيت مواقف توصل الفكرة التي أريد توصيلها، مع مراعاتي أن آتيَ بالمواقف من كتب التاريخ المعتبرة، مع حرصي علىٰ انتقاء ما يتوافق مع العقل الصحيح والمنهج القويم دون شطط أو زيغ أو مغالاة.

٦- ذكرت من كلام الشعراء والأدباء ما يخدم الموضوع مع حرصي علىٰ انتقاء ما كتبت من شعر يساعد ويخدم الموضوع.

وبعد هذا لا أستطيع أن أدّعي أنني جئت بما لم يأت به أحد وإنما هذا جهد المقل، وأسأل الله تعالىٰ أن ينفع بهذا الكتاب كاتبَه وقارئَه وناشرَه، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله لي ذخرًا وزادًا في يوم لقياه إنه سميع قريب مجيب.

وأسأل الله أن يجازيَ عنِّي أساتذتي خير الجزاء، فهم أهل فضل ومنّة.

وأسأل ربي سبحانه وتعالىٰ أن يرحم أمّي الغالية الحبيبة كما ربتني

صغيرًا، وأن يمتعها بالنظر إلىٰ وجهه الكريم، وأن يجمعها مع النبي ﷺ في الجنة.

- كما أسأله سبحانه أن يبارك لي في زوجتي الكريمة (**أم نور**) وأن يلهمها الصبر علىٰ فراق ولدنا (**صالح**) رحمه الله تعالىٰ، وأن يجزيها عنيِّ خير الجزاء.

- وأسأل الله أن يحفظ لي هبته الغالية ابنتي الحبيبة (**نور**) التي أسأل الله أن ينبتها نباتًا حسنًا، وأن تكون قرة عين لي في الدنيا والآخرة، كما أسأل الله لها السِّتر في الدنيا والآخرة هي وجميع بنات المسلمين.

وأسأل الله برحمته أن يحفظ بلاد المسلمين وأهل الإسلام.

- ثم أقول إن هذا العملَ عملٌ بشري يعتريه ما يعتري الإنسان من نقص.

- وأُشهد الله عز وجل أنّ كل خطإٍ وقعت فيه في كلامي أو في كتاباتي يخالف الصواب والمنهج الصحيح فأنا راجع عنه في حياتي وبعد مماتي.

✍ ولا أجد ما أقول لمن وجد خطأً عندي إلا ما قاله الشاطبي:

أَخي أَيُّهَا الْمُجْتَازُ نَظْمِي بِبَابِهِ ... يُنَادَىٰ عَلَيْهِ كَاسِدَ السُّوْقِ أَجْمِلا
وَظُنَّ بِهِ خَيْرًا وَسَامِحْ نَسِيجَهُ ... بِالإِغْضَاءِ وَالْحُسْنَىٰ وَإِنْ كَانَ هَلْهَلا
وَسَلِّمْ لِإِحْدَىٰ الْحُسْنَيَيْنِ إِصَابَةٌ ... وَالْاُخْرَىٰ اجْتِهَادٌ رَامَ صَوْبًا فَأَمْحَلا

وَإِنْ كـانَ خَـرْقٌ فَأَدَّرِكْـهُ بِفَضْـلَةٍ ... مِنَ الحِلْمِ ولْيُصْلِحْهُ مَنْ جَادَ مِقْوَلا (١)

فـدائمًا الإنسـان يثبـت بشـريته، ويـأبىٰ الله إلا أن تكـون العصـمة لكتابـه ولرسوله ﷺ.

✍ وأختم قائلًا:

وليس يضرني وقوف أهل المعرفة علىٰ ما لي من التقصير، ومعرفتهم أن باعي في هذا الميدان قصير، فلئن أخطئ فمن الذي عُصِم؟! ولئن أُخَطَّا فمن الذي وُصِمَ؟!

وأعلمُ أن الخطأ والزلل، هما الغالبان علىٰ من خلق الله من عجل، فإن أصبتُ فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وأتمثل قول الشاعر:

لقـد مضـيت وراء الركـب ذا عَـرَجٍ ... مؤمِّلًا جبر مـا لاقيـتُ من عَـرَجِ

فـإن لحقـتُ بهـم مـن بعـد مـا سبقوا ... فكم لرب الورىٰ في الناس من فـرجِ

وإن ضـللتُ بقفـر الأرض منقطعًـا ... فما علىٰ أعرج في الناس من حَرَجِ

وأسأل أل الله تعالىٰ أن ينفعني وإخواني من طلاب العلم بهذا العمل، وأن يخلص نيتي فيه لوجهه، فإن القلوب بيده وأن لا يجعل لأحد من خلقه فيه نصيبًا وأن ينفعني به يوم ألقاه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد

(١) الشاطبية الأبيات: (٧٥-٧٨).

وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه ببنانه ورضيه بجنانه:

الفقير إلى عفو ربّه العزيز

محمد هاشم عبد العزيز

٠٠٢٠١٠٠٣٠٦٢٠٦٥





الفصل الأول

ربانية الغاية والوجهة



المبحث الأول

في معرفة الرب تعالى

الربانية

تعريف الربانية:

ورد في تعريف الربَّانِيّ تعريفان:

الأول: الربَّانِيُّ منسوب إلىٰ الرَّبِّ، والألف والنون فيه زائدتان في النسب دلالة علىٰ المبالغة كرقبَاني وشَعْراني ولِحْياني للغليظ الرقبة والكثير الشعر والطويل اللحية، ولا تُفْرد هذه الزيادة عن النسب، أَمَّا إذا نَسَبوا إلىٰ الرقبة والشعر واللحية من غير مبالغة قالوا: رَقَبي وشَعْري ولَحَوي، هذا معنىٰ قول سيبويه.

والقول الثاني: أنه منسوب إلىٰ رَبَّان، والربَّان هو المُعَلِّمُ للخير ومَنْ يسوس الناس ويُعَرِّفهم أمرَ دينِهم، فالألفُ والنونُ دالَّتان علىٰ زيادةِ الوصفِ كعَطْشان ورَيَّان وجَوْعَان ووَسْنان، وتكونُ النسبةُ علىٰ هذا في الوصف نحو أَحْمريّ، قال:

أطَرَبًا وأنت قِنَّسْرِيُّ ... والدهرُ بالإنسانِ دَوَّارِيُّ

وقال سيبويه: «زادوا ألفًا ونونًا في الرَّباني أرادوا تخصيصًا بعلم الرب دونَ غيره من العلوم، وهذا كما قالوا: شَعْراني ولِحْياني ورَقَباني» وفي التفسير: «كونوا فقهاء علماء»، ولمَّا مات ابن عباس قال محمد بن الحنفية: «مات

اليوم رَبَّانيٌّ هذه الأمة».[١]

قلت: (محمد): **وكلامي في هذا الكتاب حول التعريف الأول**: وهو أن الربَّانِيَّ منسوب إلىٰ الرَّبِّ سبحانه وتعالىٰ. ولذلك من الضروري أن نعرِّف بالرب سبحانه وتعالىٰ.

وهذا ما نوضحه في الصفحات التالية بإذن الله تعالىٰ.



(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: (٣/ ٢٧٥/ ٢٧٦). بتصرف.

مكانة المعرفة

تُعدُّ معرفة الله تعالىٰ أول فرائض هذا الدين، إذ لا يكون المسلم مسلمًا إلا بها.

وقد نبَّه علماء هذه الأمة علىٰ مكانة هذا الركن العظيم وخطره، ومن ذلك قول الحارث المحاسبي رحمه الله: فلو أن عبدًا عاش دهره مجتهدًا في العبادة ولم يعرفها، ولم يعمل عليها، ثم صار إلىٰ الله عز وجل علىٰ الجهل بها، لم ينتفع بشيء من ذلك إلا أن يتفضل الله جل ثناؤه عليه.

وهي فرض من الله عز وجل علىٰ العباد.

وهي موجودة في كتاب الله تعالىٰ المنزَّل.

ولو أن عبدًا عبدَ الله تعالىٰ ألف سنة، ثم ألف سنة، ثم لم يعرفها، ولم يعمل بها، لم يزدد بعمله من الله تعالىٰ إلا بعدًا. (١)



(١) انظر: مقدمة شرح المعرفة للمحاسبي، نقلًا عن رضيت بالإسلام دينًا: (٤٩).

معرفة الصحابة

كان العرب قبل الإسلام يعبدون الأصنام التي انتشرت حول الكعبة، وفي أماكن متعددة من أرجاء أرض العرب، ومع ذلك كانوا يعترفون بأن الخالق هو الله سبحانه، ويرون في عبادة الأصنام وسيلة تقرِّبهم إلىٰ الله زلفىٰ.

وجاء الإسلام بالتوحيد الخالص، ولم يكن علىٰ من أراد إعلان إسلامه أكثر من أن يقول: (**أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله**)، وكلمة التوحيد هذه في معناها السهل، الميسر فهمه لكل إنسان، تعني نبذ الآلهة والبراءة منها، والاعتراف بإله واحد هو الله ﷻ، والاعتراف بأنَّ محمدًا ﷺ هو المبلِّغ عن الله سبحانه.

ولقد نطق بهذه الكلمة أبو ذر الغفاري مع بَدء الدعوة إلىٰ الله في مكةَ حينما أعلن إسلامه، ونطق بها عبد الله بن سلام بعد الهجرة مباشرة، ونطق بها عمير بن وهب عقب غزوة بدر، ونطق بها ثُمَامَة بن أثال في السنة السادسة للهجرة عندما أعلن إسلامه..... ونطق بها كل من دخل في هذا الدين.

هي كلمة واحدة: (**أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله**) لم يُضف إليها شيء مع مرور الزمن.

لم يكن لها طقوس أو شكليات.....كل ما هناك يسبقها الاغتسال أو يعقبها...... وكان الصحابي الجديد يتفقه علىٰ أيدي الصحابة الذين سبقوه، كما قال الرسول ﷺ، عندما أسلم عمير بن وهب: «**فَقِّهُوا أَخَاكُمْ فِي دِينِهِ**

وَأَقْرِئُوهُ الْقُرْآنَ وَأَطْلِقُوا لَهُ أَسِيرَهُ».(١) هذا هو الإسلام: عقيدة سهلة ميسرة.

۞ ونتساءل كيف كانت تحصل معرفتهم بالله تعالى؟

ما من شك أنه لم تعقد لهم الحلقات لدراسة علم الكلام، ولم تناقش بينهم مسألة الصفات، ولا قضية التفريق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية.

وإنما كان الصحابي بعد أن يُسلم، يتربىٰ في أمر الاعتقاد علىٰ ما يفهمه من آيات القرآن الكريم، ولم يكن بحاجة إلىٰ من يشرح له، فقد نزل القرآن بلغته، وهو يعرف حقيقتها ومجازها، والخاص منها والعام، والمطلق والمقيد.

وصلته بالقرآن وثيقة، فهو يسمع آياته كل يوم في الصلاة الجهرية ثلاث مرات يسمعها من الرسول ﷺ، كما كان للصحابة جلسات يتلون فيها كتاب الله ويتعلمونها.

ولقد عاشوا مع هذه الآيات وهي تتنزل علىٰ رسول الله ﷺ آية آية.... وكان السابقون الأولون منهم يعرفون مكان وزمان نزول كل آية، والمناسبة التي نزلت بشأنها..... فلم يكن يصعب عليهم فهم القرآن.

- فكان أحدهم إذا قرأ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص: ١]، أو سمعه، فهم منه أن الخالق الذي أوجد السموات والأرض

(١) المعجم الكبير للطبراني: (١٧/ ٥٨).

وما بينهما واحد، لا ثاني له (١)، يتصرَّف في ملكه كيف يشاء.

- وإذا سمع قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٠]، فهم من ذلك أنَّ لله تعالىٰ قدرةً، يقدر بها علىٰ كل شيء.

- وإذا سمع قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]، علم أن الله تعالىٰ متصف بصفة الكلام.

---

(١) من تمام وحدانية الله سبحانه وتعالىٰ وصمديَّته أنه لم يتَّخِذ ولدًا، لأن الولد لابدَّ أن يكون من جنس والده والله تعالىٰ ليس كمثله شيء، والولد لا يكون إلا لمن له زوجة والله منزَّه عن اتِّخاذ الزوجة، والولد يكون لمن يخشىٰ الموت والزوال فتكون الذرِّية استمرارًا له وبقاءً لنوعه، أمَّا الله تعالىٰ فهو باق لا يحول ولا يزول، قال تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] وهو كذلك لم يولَد، لأن كلَّ مولود حادث والله سبحانه وتعالىٰ لا والد له ولا سابق عليه، فهو الأوَّل والآخر الَّذي لا ابتداء لوجوده ولا نهاية؛ وفي هذا دحضٌ لما يفتريه المشركون، بأن لله أولادًا أو أندادًا، قال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

فالحمد لله الَّذي لم يتَّخِذ ولدًا فَيُمْسِك نِعَمَهُ له ثمَّ يورِّثه ملكه، لأن الولد غالبًا ما يقوم مقام الوالد بعد انقضاء أجله .

والحمد لله الَّذي لا شريك له في الملك، إذ لو كان له ذلك لم يُعرف أيُّهما المستحقُّ للشكر والحمد .

والحمد لله الَّذي ليس له وليٌّ من الذُّل يتولاه لحاجة إليه أو دفعًا لمذلَّة عن نفسه .

والحمد لله دائمًا وأبدًا علىٰ كلِّ ما أولانا من نِعَمٍ مهَّدت لنا طريق عبادته الخالية من الشِّرك والشريك أو الحاجة لغيره ﷻ.

- وإذا قرأ قوله تعالىٰ: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [هود: ١٠٧]، فهم أنَّ لله تعالىٰ صفةَ الإرادة.

- وإذا قرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورىٰ: ١١]، علم أن لله تعالىٰ سمعًا وبصرًا.

وهكذا من خلال قراءة القرآن وسماعه تكونت لديهم صورة واضحة عن صفات الله تعالىٰ........... كل ذلك في ضوء قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورىٰ: ١١]

وأما ما جاء من الصفات في الآيات المتشابهة مثل قوله تعالىٰ: يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ [الفتح: ١٠]، وقوله تعالىٰ: الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ [طه: ٥]، وقوله تعالىٰ: وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [الرحمن: ٢٧]..... وما شابه ذلك من الآيات الكريمة، فلم ينقل عنهم أنهم فسروها أو سألوا رسول الله ﷺ عنها، أو تناقشوا في معناها.

علمًا بأنهم اختلفوا في فهم بعض النصوص، ومثال ذلك ما ورد عَنِ ابْنِ عُمَرَ أنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَنَا لَمَّا رَجَعَ مِنَ الأَحْزَابِ: «**لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**» فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمُ العَصْرُ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نُصَلِّي حَتَّىٰ نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي، لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ. (١)

---

(١) صحيح البخاري: (٩٤٦).

وإذا كان قد نُقل لنا مثلُ هذا الخلاف، فلو أنهم اختلفوا في آيات الصفات لنقل لنا.... ولكنَّ ذلك لم يحدث.

وإنما حصل الاختلاف فيمن أتىٰ بعدهم، ولقد كان الموقف من فهم الصفات سببًا في نشوء عدد من فرق المسلمين، فمنهم من قال بالتجسيم والتشبيه، ومنهم من نفىٰ الصفات.... ومنهم..... ومنهم..... مما لا مجال للحديث عنهم.

والذي ذهب بهم إلىٰ تلك المذاهب، هو عدم الانضباط مع القواعد التي وضعها الإسلام لهذا الموضوع، والتي التزم بها الصحابة، ومن سار علىٰ هديهم من التابعين ومن بعدهم.

لقد تجنب الصحابة ﭫ الخوض فيما لم يأمر الشرع بالتنقيب عنه، وتجنبهم هذا حسم مادة الخلاف، فلم يؤثر عنهم شيء من هذا.

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَرَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١﴾ فَلَمَّا أَتَي عَلَىٰ هَـذِهِ الْآيَـةِ: ﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١﴾ قَالَ: عَرَفْنَا مَا الْفَاكِهَـةُ، فَمَا الْأَبُّ؟ فَقَالَ: لَعَمْرُكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنَّ هَذَا لَهُوَ التَّكَلُّفُ. (١)

✍ **قال ابن كثير**: وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَىٰ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ شَكْلَهُ وَجِنْسَهُ وَعَيْنَهُ، وَإِلَّا فَهُوَ وَكُلُّ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ، لِقَوْلِهِ:

---

(١) تفسير ابن كثير: (٨/ ٣٢٥)، تفسير الطبري: (٣٠/ ٣٨)، ورواه ابن أبي شيبة: (٧/ ١٨٠).

﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ ﴾.(١)

لقد اكتفىٰ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بالمعرفة الكلية والفهم العام، ورأىٰ أن التنقيب فيما وراء ذلك من التكلف.

وإذا كان شأن الصحابة هو عدم التنقيب في مثل هذه الآية، فمن باب أولىٰ أن يكتفوا بما جاء في النص القرآني فيما هو أعظم من ذلك فيما يتعلق بالله تعالىٰ وصفاته.



إن موقف الصحابة من هذه الآيات الكريمة، التي وصف الله تعالىٰ بها نفسه، أنهم اعتقدوها وآمنوا بها، وسلَّموا بما فيها، ووكلوا معناها إلىٰ الله تعالىٰ.

ولقد علمنا موقفهم هذا، من خلال الضوابط التي التزموا بها، فكانت الحافظ لهم من الوقوع في الزلل والانحراف، ومن هذه الضوابط:

١ - أن إدراك حقيقة ذاته سبحانه وتعالى غير ممكنة:

والعقل ليس مؤهلًا لذلك، وصفاته سبحانه وتعالىٰ كذلك أيضًا، والواجب هنا التسليم، لما أخبر الله تعالىٰ به علىٰ الجملة دون التنقيب الذي لا طائل وراءه.

(١) تفسير ابن كثير: (٨/ ٣٢٥).

٢ - الوقوف عند قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]:

فهي الحكم الفصل فيما يتعلَّق بالله تعالىٰ وصفاته، وإنَّ فهمها والعمل بمقتضاها يوفر علىٰ العقل جهودًا كبيرة لو بذلها لم يكن وراءها طائل، ويبعده عن الزيغ والانحراف، ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص: ١]، فالأحد هو الذي لا مثيل له.

٣ - وقد بَيَّنَ القرآن موقف المسلم من الآيات المتشابهة:

فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]

لقد كان موقف الصحابة رضي الله عنهم أنهم قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ [آل عمران: ٧].

٤ - احترام وتقديس النص القرآني:

وعدم التدخُّل في تفسير الآيات التي تتعلق بجلال الله وعظمته، فما يبلغ قول قائل مهما بلغ ما يبلغ القرآن الكريم في بيان المقصود، ولهذا لم يؤثر عن الصحابة الكرام شرحٌ أو تفسير لهذه الآيات.

٥ - التزام الصحابة رضي الله عنهم بعدم الخوض والجدال في هذه المسألة:

تنفيذًا لأمر الرسول ﷺ.

٦ - لقد اكتفى الصحابة الكرام بفهم المراد الأعم من هذه النصوص جميعًا:

وهو أنها دالة علىٰ تعظيم الله وتقديسه وأنَّ له صفات الكمال كلها.

وإذا فهم من هذه الصفات معناها العام الذي سيقت له، وهو بيان جلال الله تعالىٰ وعظمته وكبريائه، فذلك هو المطلوب، ولا حاجة للتنقيب.

تلك هي بعض الضوابط التي التزم بها الصحابة، فكانوا القدوة التي تتبع، كيف لا، وهم تلاميذ الرسول ﷺ، الذين أخذوا عنه، وفهموا عنه، وهم خير القرون، والتزام منهجهم فيه السلامة، وهو ما فعله السلف الصالح ممن أتىٰ بعدهم.

✍ **قال الشيخ محمد السفاريني في كتابه (لوائح الأنوار البهية)**: اعلم أن الصحابة الكرام، قد تنازعوا في كثير من مسائل الأحكام – وهم سادات المؤمنين، ولكن بحمد الله تعالىٰ لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم علىٰ إثبات ما نطق به الكتاب والسنة علىٰ كل حال، فكلمتهم واحدة من أولهم إلىٰ آخرهم، لم يسوموها تأويلًا، ولم يحرِّفوها عن مواضعها تبديلًا.... بل تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم. (١)

(١) نموذج من الأعمال الخيرية: (١١٢).

معرفة السلف رحمهم الله تعالى

بعد أن تعرَّفنا على موقف الصحابة رضي الله عنهم من مسألة «معرفة الله» وبخاصة ما يتعلق بالصفات، يحسن أن نعلم كيف اقتدى بهم السلف الصالح.

✍ **جاء في كتاب «الملل والنحل» للشهرستاني، قوله:** إنَّ أحمد بن حنبل وداود بن علي الأصفهاني وجماعة من أئمة السلف جروا على منهاج السلف المتقدمين عليهم من أصحاب الحديث مثل: مالك بن أنس، ومقاتل بن سليمان، وسلكوا طريق السلامة فقالوا: نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة، ولا نتعرض للتأويل بعد أن علم قطعًا أن الله عز وجل لا يشبه شيئًا من المخلوقات، وأن كل ما تمثل في الوهم فإنه خالقه ومقدره.

وكانوا يحترزون عن التشبيه إلى غاية أن قالوا: من حرَّك يده عند قراءة قوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] أو أشار بأصبعيه عند روايته: «**إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**».(١) وجب قطع يده وقلع أصبعيه.

وقالوا: إنما توقفنا في تفسير الآيات وتأويلها لأمرين:

أحدهما: المنع الوارد في التنزيل في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ

(١) سنن الترمذي: (٤/ ٤٤٩)، وصححه في المشكاة برقم: (٢٤).

ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧] فنحن نحترز عن الزيغ.

والثاني: أن التأويل أمر مظنون بالاتفاق، والقول في صفات الباري بالظن غير جائز. فربما أوَّلنا الآية علىٰ غير مراد الباري تعالىٰ فوقعنا في الزيغ، بل نقول كما قال الراسخون في العلم ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ [آل عمران: ٧] آمنا بظاهره، وصدقنا بباطنه، ووكلنا علمه إلىٰ الله تعالىٰ ولسنا مكلفين بمعرفة ذلك، إذ ليس ذلك من شرائط الإيمان وأركانه. (١)

هذا هو الخط العام الذي جرىٰ عليه السلف رضوان الله عليهم، ويحسن بنا إيراد بعض من أقوالهم، وبعض من مواقفهم، لتكون أمثلة من الواقع عن مسلكهم.



۞ موقف الإمام الشافعي:

جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ المُزَنِيِّ يَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الكَلَامِ فَقَالَ: إِنِّي أَكْرَهُ هَـذَا بَلْ أَنْهَىٰ عَنْهُ كَمَا نَهَىٰ عَنْهُ الشَّافِعِيُّ لَقَدْ سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُوْلُ: سُئِلَ مَالِكٌ عَنِ الكَلَامِ، وَالتَّوْحِيْدِ فَقَالَ: مُحَالٌ أَنْ نَظُنَّ بِالنَّبِيِّ -ﷺ- أَنَّهُ عَلَّمَ أُمَّتَهُ الاسْتِنْجَاءَ وَلَمْ يُعَلِّمْهُمُ التَّوْحِيْدَ، وَالتَّوْحِيْدُ مَا قَالَهُ النَّبِيُّ -ﷺ-: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ**

(١) الملل والنحل: (١/ ١٠٤).

حَتَّىٰ يَقُوْلُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». [١] فَمَا عُصِمَ بِهِ الدَّمُ، وَالمَالُ حقيقة التوحيد. [٢]

هذه هي العقيدة في يسرها، كما فهمها الإمام والصحابة من قبله، وهي الصورة التي ظلَّت قائمة في نهج السلف.

وقد سئل الإمام عمر بن العزيز عن الأهواء وكيفية البعد عنها، فقال للسائل: عليك بدين الصبيان، الذين في الكتَّاب، والأعرابيِّ، والْهَ [٣] عما سواهما. [٤]

- ودين الصبيان هو ما تعلَّموه في الكتَّاب من شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، ومعرفة أركان الإسلام وأركان الإيمان علىٰ الجملة كما جاء في حديث جبريل المشهور، عن عمر بن الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَىٰ عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ،**

---

(١) صحيح البخاري: (٢٩٤٦)، صحيح مسلم: (٢٠).

(٢) سير أعلام النبلاء: (٨/ ٢٤٤).

(٣) الْهَ: من اللهو، والمراد: عدم الالتفات إلىٰ غير ذلك.

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي: (٥٤).

وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَىٰ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «**يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟**» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**».(١)

وهو ما عليه عامة المسلمين. إنها عقيدة سهلة ميسرة......بعيدة عن التعقيد. (٢)

ويلخص لنا ابن قدامة المقدسي طريقة السلف فيقول:

وكل ما جاء في القرآن أو صحَّ عن المصطفىٰ ﷺ من صفات الرحمن وجب الإيمان به، وتلقيه بالتسليم والقبول، وترك التعرض له بالرد والتأويل والتشبيه والتمثيل.

وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظًا، وترك التعرض لمعناه ونرد علمه إلىٰ قائله، ونجعل عهدته علىٰ ناقله اتباعا لطريق الراسخين في العلم الذين أثنىٰ الله عليهم في كتابه المبين بقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿**وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ**﴾ [آل عمران: ٧] وقال في ذم مبتغي التأويل

(١) صحيح مسلم: (١).
(٢) انظر: رضيت بالإسلام دينا: (٥٨). بتصرف.

لمتشابه تنزيله ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] فجعل ابتغاء التأويل علامة علىٰ الزيغ، وقرنه بابتغاء الفتنة في الذم، ثم حجبهم عما أملوه، وقطع أطماعهم عما قصدوه، بقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ [آل عمران: ٧].

۞ **كلام الإمام أحمد بن حنبل في الصفات:**

✍ **قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل** رضي الله عنه في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله ينزل إلىٰ سماء الدنيا»، أو «إن الله يرىٰ في القيامة»، وما أشبه هذه الأحاديث نؤمن بها، ونصدق بها بلا كيف، ولا معنىٰ(١)، ولا نرد شيئا منها، ونعلم أن ما جاء به الرسول حق، ولا نرد علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ونقول كما قال، ونصفه بما وصف به نفسه، لا نتعدىٰ ذلك، ولا يبلغه وصف الواصفين، نؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه، ولا نزيل عنه صفة من صفاته لشناعة شنعت، ولا نتعدىٰ القرآن والحديث، ولا نعلم كيف كنه ذلك إلا بتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم، وتثبيت القرآن.

(١) أي: لا نقول: كيف هي؟ ولا نقول: معناها كذا وكذا، بل نقول: صفة أثبتها الله تعالىٰ لنفسه، فنحن نثبتها له، ونكل كيفيتها ومعناها إليه تعالىٰ.

۞ كلام الإمام محمد بن إدريس الشافعي في الصفات:

✍ **وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي** رضي الله عنه: آمنت بالله وبما جاء عن الله، علىٰ مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله علىٰ مراد رسول الله.

۞ كلام السلف وأئمة الخلف في الصفات:

وعلىٰ هذا درج السلف وأئمة الخلف رضي الله عنهم، كلهم متفقون علىٰ الإقرار والإمرار والإثبات، لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله من غير تعرض لتأويله.

وقد أمرنا بالاقتفاء لآثارهم، والاهتداء بمنارهم(١) وحذرنا المحدثات وأخبرنا أنها من الضلالات، فقال النبي ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٢). (٣)

إن ما حدث بعد الصحابة من جعل «**الصفات**» محلًّا للجدل والنقاش، وطرق أسئلة لم تكن في زمنهم يُعَدُّ بدعة منكرة.

عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ يَحْيَىٰ؛ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ؛ فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ كَيْفَ اسْتَوَىٰ؟ فَأَطْرَقَ مَالِكٌ بِرَأْسِهِ

---

(١) المنار، جمع منارة: وهي العلامة تجعل بين الحدين.

(٢) سنن الترمذي: (٢٦٧٦).

(٣) لمعة الاعتقاد: (٥: ٧).

حَتَّىٰ عَلَاهُ الرُّحَضَاءُ ثُمَّ قَالَ: الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ. وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا؛ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُخْرَجَ. (١)

والموقف يوحي بأن الإمام مالك يتعرض لهذا السؤال لأول مرة، وقد عدَّه بدعة، فقد تعوَّدوا أن يقرؤوا القرآن وأن تمرَّ بهم هذه الآية وأمثالها، فيفهم الواحد منهم ما كتب الله له من الفهم، ولا يحوَّل ذلك إلىٰ نقاش.

✍ **وللأدرمي موقف دقيق في هذه المسألة،** أَوضَحَ فيه أن التكلم بمثل هذه المسائل بدعة:

✍ قال محمد بن عبد الرحمن الأدرمي لرجل تكلم ببدعة(٢) ودعا الناس إليها:

قال الأدرمي: هل علمها رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي، أو لم يعلموها؟

قال: لم يعلموها.

قال: فشيء لم يعلمه هؤلاء أعلمته أنت؟

قال الرجل: فإني أقول: قد علموها.

قال: أفوسعهم أن لا يتكلموا به، ولا يدعوا الناس إليه، أم لم يسعهم؟

---

(١) مجموع الفتاوىٰ: (٥/ ٤٠/ ٤١).

(٢) هي بدعة القول بخلق القرآن.

قال: بلىٰ وسعهم.

قال: فشيء وسع رسول الله ﷺ وخلفاءه لا يسعك أنت؟

فانقطع الرجل.

فقال الخليفة - وكان حاضرًا: لا وسع الله علىٰ من لم يسعه ما وسعهم.(١)

۞ قصة مناظرة شيخ لابن أبي دؤاد:

عن طاهر بن خَلَفٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْوَاثِقِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْمُهْتَدِي بِاللهِ يَقُولُ: كَانَ أَبِي إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ رَجُلًا أَحْضَرَنَا ذَلِكَ الْمَجْلِسَ، فَأُتِيَ بِشَيْخٍ مَخْضُوبٍ مُقَيَّدٍ فَقَالَ أَبِي: ائْذَنُوا لِأَبِي عَبْدِ اللهِ وَأَصْحَابِهِ (يَعْنِي ابْنَ أَبِي دُؤَادَ) قَالَ: فَأُدْخِلَ الشَّيْخُ وَالْوَاثِقُ فِي مُصَلَّاهُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ لَهُ: لَا سلم الله عليك فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، بِئْسَ مَا أَدَّبَكَ مؤدبك قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء: ٨٦] وَاللهِ مَا حَيَّيْتَنِي بِهَا وَلَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا.

فَقَالَ ابْنُ أَبِي دُؤَادٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، الرَّجُلُ مُتَكَلِّمٌ.

فَقَالَ لَهُ: كَلِّمْهُ.

فَقَالَ: يَا شَيْخُ، مَا تَقُولُ فِي الْقُرْآنِ؟

---

(١) لمعة الاعتقاد: (ص: ٩).

قَالَ الشَّيْخُ: لَمْ تَنْصِفْنِي (يَعْنِي وَلِيَ السُّؤَالُ) فَقَالَ لَهُ: سَلْ: فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: مَا تَقُولُ فِي الْقُرْآنِ؟

فَقَالَ مَخْلُوقٌ: فَقَالَ: هَذَا شَيْءٌ عَلِمه النَّبي ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَالْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ؟ أَمْ شَيْءٌ لَمْ يعلَموه؟

فَقَالَ: شَيْءٌ لَمْ يَعْلَمُوهُ.

فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ شَيْءٌ لَمْ يَعْلَمْهُ النَّبي ﷺ، وَلَا أَبُو بَكْرٍ، وَلَا عُمَرُ، وَلَا عُثْمَان، وَلَا عَليّ، وَلَا الْخُلَفَاء الراشدون، عَلمته أنت؟

قَالَ: فَخَجِلَ. فَقَالَ: أَقِلْنِي وَالْمَسْأَلَةُ بِحَالِهَا. قَالَ نَعَمْ.

قَالَ: مَا تَقُولُ فِي الْقُرْآنِ؟ فَقَالَ مَخْلُوقٌ.

فَقَالَ: هَذَا شَيْءٌ عَلِمَهُ النَّبي ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَالْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ أَوْ لَمْ يَعْلَمُوهُ؟

فَقَالَ: عَلِمُوهُ وَلَمْ يَدْعُوا النَّاسَ إِلَيْهِ قَالَ: أَفَلَا وَسِعَكَ مَا وسعهما؟

قَالَ: ثُمَّ قَامَ أَبِي فَدَخَلَ مَجْلِسَ الْخَلْوَةِ وَاسْتَلْقَىٰ عَلَىٰ قَفَاهُ، وَوَضَعَ إِحْدَىٰ رِجْلَيْهِ عَلَىٰ الْأُخْرَىٰ وَهُوَ يَقُولُ: هَذَا شَيْءٌ لَمْ يَعْلَمْهُ النَّبي ﷺ، وَلَا أَبُو بكر، وَلَا عمر، وَلَا عُثْمَان، وَلَا عَليّ، وَلَا الْخُلَفَاء الراشدون عَلمته أنت سُبْحَانَ الله شَيْءٌ عَلِمَهُ النبي ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ رضي الله عنهم، وَالْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ وَلَمْ يَدْعُوا النَّاسَ إِلَيْهِ، أَفَلَا وَسِعَكَ مَا وَسِعَهُمْ؟؟ ثُمَّ دَعَا عَمَّارًا الْحَاجِب، فَأمر أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُ الْقُيُودَ وَيُعْطِيَهُ أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ، وَيَأْذَنَ لَهُ فِي

الرُّجُوعِ، وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ ابْنُ أَبِي دُؤَادٍ، وَلَمْ يَمْتَحِنْ بَعْدَ ذَلِكَ أحدا. (١)

وهكذا رأوا أنَّ ما سكت عنه الصحابة ينبغي السكوت عنه، وأن اقتفاء أثرهم فيه السلامة.

وهكذا كان الالتزام بمسلك الصحابة هو المنهج الذي سار عليه السلف الصالح من هذه الأمة.

✍ **قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ**: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَقِيلٍ تَرَىٰ لِي أَنْ أَقْرَأَ عِلْمَ الْكَلَامِ؟ فَقَالَ: الدِّينُ النَّصِيحَةُ أَنْتَ الْآنَ عَلَىٰ مَا بِك مُسْلِمٌ سَلِيمٌ وَإِنْ لَمْ تَنْظُرْ فِي الْجُزْءِ وَتَعْرِفُ الصُّفْرَةَ وَلَا عَرَفْت الْخَلَا وَالْمَلَا وَالْجَوْهَرَ وَالْعَرَضَ وَهَلْ يَبْقَىٰ الْعَرَضُ زَمَانَيْنِ؟ وَهَلْ الْقُدْرَةُ مَعَ الْفِعْلِ أَوْ قَبْلَهُ؟ وَهَلْ الصِّفَاتُ زَائِدَةٌ عَلَىٰ الذَّاتِ؟ وَهَلْ الِاسْمُ عَيْنُ الْمُسَمَّىٰ أَوْ غَيْرُهُ؟ وَإِنِّي أَقْطَعُ أَنَّ الصَّحَابَةَ - رضي الله عنهم - مَاتُوا وَمَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَإِنْ رَأَيْت طَرِيقَةَ الْمُتَكَلِّمِينَ أَجْوَدَ مِنْ طَرِيقَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَبِئْسَ الِاعْتِقَادُ، وَقَدْ أَفْضَىٰ عِلْمُ الْكَلَامِ بِأَرْبَابِهِ إلَىٰ الشُّكُوكِ فِي كَلَامٍ طَوِيلٍ. (٢)

✍ ذَكَرَ ابْنُ عَقِيلٍ - رحمه الله - سُؤَالَ فِرْعَوْنَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ لِمُوسَىٰ - عليه السلام - عَنْ اللهِ عز وجل، وَمُحَاجَّةَ نُمْرُودَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ لِإِبْرَاهِيمَ - عليه السلام -، ثُمَّ قَالَ: فَالرُّسُلُ

(١) أخرجه الْخَطِيب فِي تَارِيخه (٤/ ١٥١)، وَمن طَرِيقه الذَّهَبِيّ فِي «سير أَعْلَام النبلاء» (١١/ ١٣٢)، وَقَالَ: هَذِه قصَّة مليحة وان كَانَ فِي طريقها من يجهل وَلها شَاهد. وَذكرهَا ابْن كثير فِي الْبِدَايَة وَالنِّهَايَة (١٠/ ٣٢١)، وَقَالَ: ذَكَرَهُ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ بِإِسْنَادٍ فِيهِ بَعْضُ من لَا يعرف.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية: (١/ ٢٠٤).

صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ مُحِيلُونَ عِنْدَ السُّؤَالِ وَالْجِدَالِ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَىٰ أَفْعَالِهِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُصْغَىٰ إِلَىٰ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: وَقَفْت عَلَىٰ نُعُوتِ ذَاتِهِ؟ وَمُحَمَّدٌ - ﷺ - يَقُولُ: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ فَضْلًا عَنْ أَنْ أُحْصِيَ نَعْتَكَ**»، وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ عَنِ الْمَلَائِكَةِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -: ﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا** ﴿١١٠﴾ ﴾ [طه: ١١٠].

فَهَلْ يَحْسُنُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلَىٰ مَنْ قَالَ: إِنِّي وَقَفْتُ عَلَىٰ نُعُوتِهِ؟ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ بِهَا تَتَلَقَّاهُ الْأُمَّةُ بِالْقَبُولِ فَيُعْمَلُ عَلَيْهِ عَلَىٰ شَرْطِ ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ** ﴾ [الشورىٰ: ١١] وَتُمْسِكُ عَمَّا لَمْ يَرِدْ بِهِ نَقْلٌ، أَوْ عَمَّا وَرَدَ بِهِ نَقْلٌ ضَعِيفٌ.

✍ **وَقَالَ أَيْضًا فِي مَكَانٍ آخَرَ مِنَ الْفُنُونِ**: قَدْ رَجَعْت إِلَىٰ مُعْتَقَدِي فِي الْمَكْتَبِ مُتَّبِعًا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَبْرَأُ إِلَىٰ اللهِ ﷻ مِنْ كُلِّ قَوْلٍ حَدَثَ بَعْدَ أَيَّامِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ.

✍ **وَقَالَ أَيْضًا**: كُلُّ يَوْمٍ تَمُوتُ مِنْك شَهْوَةٌ وَلَا تَحْيَا مِنْك مَعْرِفَةٌ، وَاعَجَبًا يَخْتَلِفُ النَّاسُ فِي مَاهِيَّةِ الْعَقْلِ وَلَا يَدْرُونَ، فَكَيْفَ يُقْدِمُونَ عَلَىٰ الْكَلَامِ فِي خَالِقِ الْعَقْلِ.

✍ **وَقَالَ أَيْضًا**: قَدْ تَكَرَّرَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ لَا سِيَّمَا أَصْحَابُنَا قَوْلُهُمْ: مَذْهَبُ الْعَجَائِزِ أَسْلَمُ فَظَنَّ قَوْمٌ أَنَّهُ كَلَامُ جَهْلٍ، وَلَوْ فَطِنُوا لِمَا قَالُوا لَاسْتَحْسَنُوا وَقْعَ الْكَلِمَةِ وَإِنَّمَا هِيَ كَلِمَةٌ صَدَرَتْ عَنْ عُلُوِّ رُتْبَةٍ فِي النَّظَرِ، حَيْثُ انْتَهَوْا إِلَىٰ غَايَةٍ هِيَ مُنْتَهَىٰ الْمُدَقِّقِينَ فِي النَّظَرِ، فَلَمَّا لَمْ يَشْهَدُوا مَا يَشْفِي

الْعَقْلَ مِنْ التَّعْلِيلَاتِ وَالتَّأْوِيلَاتِ بِالِاعْتِرَاضِ فِي أَصْلِ الْوَضْعِ، وَقَفُوا مَعَ الْجُمْلَةِ الَّتِي هِيَ مَرَاسِمُ الشَّرْعِ، وَجَنَحُوا عَنْ الْقَوْلِ بِالتَّعْلِيلِ، فَإِذَا سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ، وَقَفُوا مَعَ الِامْتِثَالِ حِينَ عَجَزَ أَهْلُ التَّعْلِيلِ فَقَدْ أَعْطَوْا الطَّاعَةَ حَقَّهَا، وَلَقَدْ عَلَّلَ قَوْمٌ فَمَنَعُوا الْعَقْلَ عَنْ الْإِصْغَاءِ إِلَىٰ ذَلِكَ الْإِذْعَانِ بِالْعَجْزِ.(١)

✍ وختامًا أذكر كلامًا لبعض الأئمة وأختص ابن الجوزي والفخر الرازي، وابن القيم ففي كلامهم السلامة لمن أراد الحق واتباع السنة.

✍ **يقول ابن الجوزي**: جاء الرسول ﷺ بكتاب عزيز من الله ﷻ، قيل في صفته: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وبيَّن ما عساه يشكل(٢) مما يحتاج إلىٰ بيانه بسنته، كما قيل له: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فقال بعد البيان: «**تركتكم علىٰ بيضاءَ نَقِيَّةٍ**»(٣). فجاء أقوام فلم يقنعوا بتبيينه، ولم يرضوا بطريقة أصحابه، فبحثوا، ثم انقسموا. (٤)

✍ **وقال أيضًا**: إنَّ الشرْبَ (٥) الأول ما تكلموا في شيء من هذا، وإن كانوا تعرضوا ببعض الأصول؟! ثم جاء فقهاء الأمصار، فنهوا عن الخوض

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ٢٠٤).

(٢) يشكل: يلتبس معناه ويستعصي فهمه.

(٣) رواه أبو داود «٤٦٠٧»، والترمذي «٢٦٧٦»، وابن ماجه «٤٣و٤٤».

(٤) صيد الخاطر (ص: ١٣٠).

(٥) الجيل.

في الكلام، لعلمهم ما يجلب وما يجتنب! ومن لم يقنع بعقيدةٍ مثل «عقيدة» الصحابة، ولا بطريق مثل طريق أحمد والشافعي في ترك الخوض، فلا كان من كان. (١)

✍ **وقال فخر الدّين الرّازي**: يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام، وبكىٰ.

وروي عنه أنه قال: لقد اختبرت الطّرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فلم أجدها تروي غليلًا، ولا تشفي عليلًا، ورأيت أصحّ الطرق طريقة القرآن.

أقرأ في التنزيل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص: ١].

وأقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ⑤﴾ [طه: ٥]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، و﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وأقرأ إن الكلّ من الله قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

✍ **ثم قال**: وأقول من صميم القلب، من داخل الرّوح: إني مقرّ بأن كلّ ما هو الأكمل الأفضل الأعظم الأجلّ، فهو لك، وكلّ ما هو عيب ونقص فأنت منزّه عنه. (٢)

✍ **وقال ابن القيم: معرفَة الله سُبْحَانَهُ نَوْعَانِ:**

---

(١) صيد الخاطر: (ص: ٢٨٥).

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: (٧/ ٤١).

الأول: معرفَة إِقْرَار، وَهِي الَّتِي اشْترك فِيهَا النَّاس الْبر والفاجر، والمطيع والعاصي.

وَالثَّانِي: معرفَة توجب الْحيَاء مِنْهُ والمحبة لَهُ وَتعلق الْقلب بِهِ والشوق إِلَىٰ لِقَائِه وخشيته والإنابة إِلَيْهِ والأنس بِهِ والفرار من الْخلق إِلَيْهِ، وَهَذِه هِيَ الْمعرفَة الْخَالِصَة الْجَارِيَة علىٰ لسان الْقَوْم وتفاوتهم فيها لا يُحْصِيه إِلَّا الَّذِي عرفهم بِنَفسِهِ وكشف لقُلُوبِهِمْ من مَعْرفَته مَا أخفاه عَن سواهُم وكل أَشَارَ إِلَىٰ هَذِه الْمعرفَة بِحَسب مقَامه وَمَا كشف لَهُ مِنْهَا، وَقد قَالَ أعرف الْخلق بِهِ لَا أحصي ثَنَاء عَلَيْك أَنْت كَمَا أثنيت علىٰ نَفسك، وَأخْبر أَنه سُبْحَانَهُ يفتح عَلَيْهِ يَوْم الْقِيَامَة من محامده بِمَا لَا يُحسنهُ الْآن.

ولهذه الْمعرفَة بَابَانِ واسعان:

البَاب الأول: التفكّر والتأمّل فِي آيَات الْقُرْآن كلهَا، والفهم الْخَاص عَن الله وَرَسُوله ﷺ.

وَالْبَاب الثَّانِي: التفكّر فِي آيَاته المشهودة، وَتَأمل حكمته فِيهَا وَقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بِالْقِسْطِ علىٰ خلقه.

وجماع ذَلِك: الْفِقْه فِي مَعَاني أَسْمَائِهِ الْحسنىٰ وجلالها وكمالها وتفرّده بذلك وتعلّقها بالخلق وَالْأَمر:

فَيكون فَقِيها فِي أوامره ونواهيه.

فَقِيها فِي قَضَائِهِ وَقدره.

فَقِيها فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاته.

فَقِيها فِي الحكم الديني الشَّرْعِيّ وَالْحكم الكوني القدري.

و﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].(١)

وقال أيضًا: وأعلم الناس معرفَة لله من عرفه من كَلَامه.

فَإِنَّهُ يعرف رَبًّا قد اجْتمعت لَهُ صِفَات الْكَمَال ونعوت الْجلَال منزّه عَن الْمِثَال برِئ من النقائص والعيوب.

لَهُ كل اسْم حسن وكل وصف كَمَال فعّال لما يُرِيد فَوق كل شَيْء وَمَعَ كل شَيْء وقادر علىٰ كل شَيْء ومقيم لكل شَيْء.

أكبر من كل شَيْء وأجمل من كل شَيْء.

أرْحم الرَّاحِمِينَ، وأقدر القادرين، وَأحكم الْحَاكِمين.

فالقرآن أنزل لتعريف عباده بِهِ وبصراطه الْموصل إِلَيْهِ.(٢)

---

(١) الفوائد لابن القيم: (ص: ١٧٠).

(٢) الفوائد لابن القيم: (ص: ١٨٠)

وقفة إيمانية مع معرفة الله

✍ بعد ما سبق عن معرفة الله تعالىٰ أختم هذا المبحث بوقفة لابد لنا منها فأقول مستعينًا بالله:

إن حقيقة العبودية هي الذل والانكسار لربنا، وارتباط حياتنا به، وافتقارنا التام إليه، مع حبه وخشيته ودوام الإنابة والاستعانة به.

ولو دققنا النظر في هذه المعاني لوجدنا أنها عبارة عن معاملات ينبغي أن يتعامل بها المرء مع الله ﷻ، بمعنىٰ أنه يجب علىٰ العبد أن يعامل ربه بحب واشتياق، وأن يعامله بصدق وإخلاص، وأن يتعامل معه وهو يرهبه ويخشاه، وأن يعامله وهو يطمع فيما عنده، وأن يتعامل معه بتذلل وانكسار، وأن يتعامل معه كذلك وهو يستشعر افتقاره، وعظيم احتياجه إليه..

هذه المعاملات لا يمكن أن تتم بصورة تلقائية إلا إذا انطلقت المشاعر، فعلىٰ سبيل المثال: لا يمكن لشخص أن يحب شخصًا آخر لمجرد أنه أُمر بذلك، فلغة القلوب لا يمكن تكلفها.

فالقلوب بصفة عامة تحب من يحسن إليها ويكرمها، ويحرص عليها، ويرأف بها.

والقلوب تخاف ممن تتأكد أنه يملك عقابها وحرمانها مما تحب.

والقلوب تفتقر وتتجه إلىٰ من يملك احتياجاتها وما تريد.

والقلوب تطمئن وتسكن لمن تشعر بالحماية والأمن في جواره.

والقلوب تستعين بمن تراه قادرًا علىٰ أن يفعل ما تريد... وهكذا.

والسؤال الآن: لماذا لا تتجه القلوب إلى الله؟

فإن كان الأمر كذلك فلماذا لا تتجه القلوب إلىٰ الله وتتعامل معه بما هو أهله مع أنه سبحانه وتعالىٰ يحسن إليها ويكرمها، ويملك احتياجاتها كلها، وهو القادر علىٰ فعل أي شيء، ويستطيع عقابها وحرمانها مما تحبه؟.

لماذا تتجه القلوب إلىٰ بعض المخلوقين بالتعظيم والتوقير ولا تتجه إلىٰ الخالق العظيم ذي الجلال والإكرام؟

السبب وراء ذلك هو الجهل به سبحانه، وبمقامه الجليل، وبقدره العظيم، والجهل كذلك بالطريقة التي يتعامل بها معنا من ود، وحب، وشفقة.

تأمل معي هذه الآية: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الحشر: ١٣]، فعدم معرفة هؤلاء بالله جعلتهم يرهبون البشر أكثر من رهبتهم لله.

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيكٍ قَدْ مَرَقَتْ رِجْلَاهُ الْأَرْضَ، وعُنُقُهُ مُنْثَنِي تَحْتَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَكَ رَبَّنَا فَرَدَّ عَلَيْهِ: مَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِي كَاذِبًا**».(١)

---

(١) المعجم الأوسط (٧/ ٢٢٠)، وانظر: صحيح الجامع: (١٧١٤).

المعاملة على قدر المعرفة:

تخيل أنك ذهبت إلىٰ السوق ودخلت حانوتًا (١) من الحوانيت وقابلت فيه رجلًا يتسوق مثلما تتسوق، ودار بينكما حديث ومن خلاله عرفت أن هذا الرجل يعمل وزيرًا في حكومة بلدك، هل ستستمر في الحديث معه بنفس الطريقة التي بدأت بها أم ستتغير ليكسوها الاحترام والحذر؟!.. ليس هناك أيُّ شك أنَّ معرفتك به ستدفعك إلىٰ تغيير معاملتك له.

فطريقة المعاملة تحددها درجة المعرفة، وكلما ازدادت المعرفة تغيرت المعاملة، وهذا ما حدث مع سيدنا موسىٰ - عليه السلام - عندما رأىٰ آثار جلال الله علىٰ الجبل الذي اندك فخر - عليه السلام - صعقًا، فلما أفاق ماذا قال لربه؟! قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فإن كان هذا قوله عند رؤية أثر جلال الله علىٰ الجبل، فكيف لو رأي الله عز وجل؟!

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَىٰ حَاجَتِكُمْ**» قَالَ: «**فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا**» قَالَ: «**فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ، مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ**» قَالَ: «**فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟**» قَالَ: «**فَيَقُولُونَ: لَا وَاللهِ مَا رَأَوْكَ؟**» قَالَ: «**فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟**» قَالَ:

---
(١) الحانوت: مكان البيع وهو ما يسمىٰ: (دكَّانًا).

«يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا». (١)

أهمية المعرفة:

إذن فالسبب الرئيس لعدم معاملة الله ﷻ بما هو أهله: عدم معرفته معرفة صحيحة: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، وهذا ما أنكره نوح – عليه السلام – علىٰ قومه عندما قال لهم: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]، ثم بدأ في تعريفهم بربهم لعل قلوبهم تتجه إليه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ١٤ – ٢٠].

معنىٰ ذلك أن نقطة البداية في طريق العبودية والسير إلىٰ الله هي معرفته سبحانه، وكلما قويت تلك المعرفة، ازدادت العبودية أكثر وأكثر، وهذا ما

---

(١) صحيح البخاري: (٦٤٠٨). وتتمته: قَالَ: «يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟» قَالَ: «يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ» قَالَ: «يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا» قَالَ: «يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ» قَالَ: «يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا» قَالَ: «يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً» قَالَ: «فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ» قَالَ: «يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لَا يَشْقَىٰ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ».

يؤكده قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

فهؤلاء الصالحون الذين ذكرتهم الآيات، عندما تفكروا في خلق الله، ازدادت معرفتهم به ومن ثَم انعكس ذلك علىٰ تعاملهم معه بمزيد من التنزيه والخشية: ﴿ سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

يقول ابن رجب: وكلما قويت معرفة العبد لله قويت محبته له، ومحبته لطاعته، وحصلت له لذة العبادات من الذكر وغيره علىٰ قدر ذلك.(١)

غاية المعرفة:

وغاية معرفة الله ﷻ في الدنيا هي الحضور القلبي الدائم معه، أو بمعنىٰ آخر:

- أن نتعامل معه - سبحانه - ونعبده كأننا نراه، فنناجيه من قريب، ونتحدث معه كأننا نشاهده...

- أن نستشعر دومًا قربه منا، فنأنس به ونكثر من مناجاته.

- أن نجده دائمًا يتجلىٰ بصفاته وراء كل حدث من أحداث حياتنا، فنربط أمورنا كلها به، مثل ما قال يوسف - عليه السلام - لأبويه وهو يخبرهم عما

(١) استنشاق نسيم الأنس: (٥٠).

حدث له: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

مع أن ظاهر الأمر أن ملك مصر هو الذي أمر بإخراجه من السجن، لكنه يرىٰ الأمور علىٰ حقيقتها، وأن الله هو الذي أخرجه، وما الملك إلا ستار للقدر، وجندي ينفذ الأمر الإلهي...

✍ **يقول ابن رجب: الوصول إلىٰ الله نوعان**: أحدهما في الدنيا، والثاني في الآخرة. **فأما الوصول الدنيوي فالمراد به**: أن القلوب تصل إلىٰ معرفته، فإذا عرفته أحبته وأنست به، فوجدته منها قريبًا، ولدعائها مجيبًا، كما في بعض الآثار: ابن آدم، اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء.

وأما الوصول الأخروي: فالدخول إلىٰ الجنة التي هي دار كرامة الله لأوليائه، ولكنهم في درجاتهم متفاوتون في القرب بحسب تفاوت قلوبهم في الدنيا في القرب والمشاهدة. (١)

أي أن الوصول الدنيوي يمثله قول رسول الله ﷺ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»، أما الأخروي- في الجنة- ففيها الرؤية الحقيقية والقرب

(١) المحجة في سير الدلجة: (٨٠).

والمشاهدة.(١)

- إن غاية المعرفة التي ينبغي أن نسعىٰ إليها، أن نجد الله يتجلىٰ بصفاته العلىٰ في كل شيء لينعكس ذلك علىٰ جميع تصرفاتنا، فتصبح إرادة وجهه الكريم هي مقصدنا في كل أعمالنا ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، فعلىٰ سبيل المثال إطعام الطعام للفقراء والمساكين وغيرهم ينبغي أن يكون المقصود منه رضاه سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٩] وتكريم أهل الصلاح ينبغي أن يكون الهدف منه إجلال الله ﷻ، كما في الحديث: «**إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ**». (٢)

٢ - التوحيد الخالص:

قال ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغٌ وَاللهُ يَهْدِي، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ يُعْطِي**....».(٣)

وقال يوما لأصحابه: «**مَا أَنَا حَمَلْتُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَمَلَكُمْ**،........». (٤)

وكان ﷺ إذا غزا قال: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ**». (٥)

---

(١) حقيقة العبودية: (ص: ٢٥).
(٢) سنن أبي داود (٤٨٤٣)، وصحيح الجامع: (٢١٩٩).
(٣) المعجم الكبير للطبراني: (٩١٥)، وصحيح الجامع: (٢٣٤٧).
(٤) صحيح مسلم: (١٦٤٩).
(٥) رواه أبو داود (٢٦٣٢)، والترمذي (٣٥٨٤)، وقال: حديث حسن.

فهـذه الأحاديـث تـدل علىٰ الحقيقـة التـي ينبغـي أن نشـاهدها مـن وراء أحـــداث الحيـــاة: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح: ٢٤].

وهذا هو العلم النافع، والتوحيد الخالص، الذي ينبغي أن نسعىٰ جميعًا إلىٰ تحصيله: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

إنه العلم بالله، وربط أحداث الحياة - مهما تنوعت - به سبحانه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨].

وفي هـذا المعنىٰ يقـول ابـن عطـاء: الغافـل إذا أصبـح ينظـر مـاذا يفعـل، والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به.

فشـهادة أن لا إلـه إلا الله «.. تتطلـب أن يصـل الإحسـاس بوجـود الله - سبحانه - ووحدانيته حد اليقين الناشئ من مثل الرؤية والمشاهدة، فهي رؤيـة ومشـاهدة لهـذه الحقيقـة - بآثارهـا - في أغـوار الـنفس المكنونـة، وفي صـفحة الكـون المنشـورة.. رؤيـة واضـحة، ومشـاهدة مستيقنة، تقـوم عليهـا «شهادة». (١)

(١) مقومات التصور الإسلامي: (١٩٢).

٣ - الاكتفاء بالله:

فإذا ما وجد المرء ربه، وربط أحداث حياته كلها به، فإن هذا من شأنه أن يجعله يوحد معاملاته، ويجعلها مع الله.

فهو يدعو ويجاهد من أجل أن يراه ربه فيحبه ويرضىٰ عنه.

يتكلم بحساب، فهو يعلم أن الكلمة التي تخرج من فمه يسمعها ربه قبل أن يسمعها الناس.

ينفق النفقة ولا يهمه كثيرًا من يأخذها - مادام حاله في الظاهر يدل علىٰ أنه محتاج - لأنه يعلم أنها تقع في يد الله أولا: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة: ١٠٤].

فالله ﷻ هو الحاضر معه في كل صفقة أو بيعة يجريها، فيستشعر أنها تتم معه - سبحانه - أولًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠].

لا يهمه كثيرًا رضا الناس عنه أو سخطهم عليه، فليس هذا مطمعه وليس هذا ما يسعىٰ إليه، بل مطمعه في رضاه سبحانه، كما قال الشاعر:

فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالحَيَاة مَرِيرَةٌ ... وَلَيْتَكَ تَرْضَىٰ وَالأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيْتَ الّذي بَيْني وَبَيْنَكَ عَامِرٌ ... وبيني وبينَ العالمينَ خرابُ
إذا صَحَّ مِنكَ الوُدّ فالكلُ هَيّنٌ ... وَكُلُّ الذي فَوْقَ التّرَابِ تُرَابُ

ينتظر الفرصة التي يخلو فيها المكان، وتهدأ الأصوات ليخلو بربه، ويبث إليه أشواقه، ويعرض عليه شكايته، ويطلب منه حاجته.

يسارع في استرضائه، إذا ما وقع منه تقصير أو تجاوز.

إنه باختصار قد اكتفىٰ بالله واستغنىٰ به عمن سواه.

✍ **قال أحمد بن عاصم الأنطاكي**: من عرف الله ﷻ اكتفىٰ به، ومن لم يعرفه اكتفىٰ بخلقه دونه، فطال غمه، وكثرت شكايته. (١)

وهذه هي الحياة الحقيقية.. الحياة مع الله..

✍ **كان ابن عطاء يقول في مناجاته**: إلهي ماذا وجد من فقدك، وما الذي فقد من وجدك.. لقد خاب من رضي بدونك بدلًا، ولقد خسر من بغىٰ عنك متحولًا.

✍ **وهذا إبراهيم بن أدهم يقول**: اتخِذِ الله صاحبا، ودع الناس جانبًا.(٢)

✍ **وكان يقول**: أعلىٰ الدرجات أن تنقطع إلىٰ ربك، وتستأنس إليه بقلبك، وعقلك، وجميع جوارحك حتىٰ لا ترجو إلا ربك، ولا تخاف إلا ذنبك، وترسخ محبته في قلبك حتىٰ لا تؤثر عليها شيئًا، فإذا كنت كذلك لم تُبال في بَرٍّ كنت أو في بحر، أو في سهل، أو في جبل، وكان شوقك إلىٰ لقاء الحبيب شوق الظمآن إلىٰ الماء البارد، وشوق الجائع إلىٰ الطعام الطيب،

---

(١) استنشاق نسيم الأنس للحافظ ابن رجب: (٨٠ - ٨١).

(٢) استنشاق نسيم الأنس للحافظ ابن رجب: (٧٧).

ويكون ذكر الله عندك أحلىٰ من العسل، وأحلىٰ من الماء العذب الصافي عند العطش في اليوم الصائف.(١)

لوجدتني عنده:

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي».(٢)

إن هذا الحديث يعلمنا أن غاية المعرفة أن نجد الله ﷻ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء: ١١٠].

– نجد صفاته العلىٰ تتجلىٰ في أحداث حياتنا.

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٨٤).

(٢) صحيح مسلم: (٢٥٦٩).

– نجده قريبًا فنأنس به ونناجيه.

– نجده حكيمًا في كل مشيئة يشاؤها لنا فنرضىٰ بقضائه.

– نجده سريع الحساب يعاقب علىٰ الذنب ويعفو عن كثير، فنسارع بالتوبة إليه كلما وقعنا في الخطأ.

– نجده لطيفًا في قدره.

– نجده سميعًا قريبًا يجيب دعاءنا في دقائق الأمور وتفصيلاتها التي دعوناه بها ولم يعرفها سواه فنشعر بالأمان في جواره.

– نجده قهارًا ينفذ مشيئته فنستسلم له.

– نجده قادرًا مقتدرًا فنستعين به دومًا علىٰ تنفيذ كل ما نريد.

– نجده حليمًا ستيرًا فنحبه ونستحي منه.

– نجده معنا في كل وقت وحين، فنكلمه ونبث إليه أشواقنا، ونُسِرُّ إليه بخصوصياتنا.

– نجده حين نأكل، وحين نشرب، وحين ننام، وحين نستيقظ، وحين نركب دوابنا، فهو الذي يطعمنا ويسقينا، وهو الذي يتوفانا حين النوم ويوقظنا، وهو الذي يحملنا ويسيرنا في البر والبحر والجو... ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: ٤١].

* **وتأمل معي أيها القارئ الكريم هذا الحديث النبوي:** عَنْ أَبِي لَاسٍ الْخُزَاعِيِّ، قَالَ: حَمَلَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ إِبِلٍ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ ضِعَافٍ

لِلْحَجِّ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا نَرَىٰ أَنْ تَحْمِلَنَا هَذِهِ؟ فَقَالَ: «**مَا مِنْ بَعِيرٍ إِلَّا وَفِي ذُرْوَتِهِ شَيْطَانٌ، فَإِذَا رَكِبْتُمُوهَا فَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ كَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ، ثُمَّ امْتَهِنُوهَا لِأَنْفُسِكُمْ فَإِنَّمَا يَحْمِلُ اللهُ**».(١)

فما الدابة التي نركبها إلا ستار وسبب لا قيمة له بدون الله ﷻ، فهو سبحانه الذي سخرها لنا، وهو الذي يحركها لحظة بلحظة، وآنًا بآن، وكذلك كل شيء يحدث في هذه الحياة معنا أو مع غيرنا.

فعندما نضحك نجده من وراء الضحك حيًا قيومًا قد علم برغبتنا في الضحك فمكننا من ذلك: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم: ٤٣].

وعندما نأكل: نستشعر ربوبيته وقيوميته علينا فنقول: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة.

وعندما يأتينا عطاء من أحد الناس نرىٰ أن الله ﷻ هو الذي أعطانا إياه من خلال هذا الشخص، وعندما نُحرم من شيء، أو يُضيّق علينا البعض نرىٰ الحقيقة واضحة أمامنا وهي أن الله هو الذي حرمنا علىٰ يد هؤلاء بسبب ذنب أذنبناه أو لحكمة يعلمها سبحانه.

نجد الله في كل خير نفعله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الدخان: ٥٨]، ولو شاء منعه لمنعه: ﴿ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ [الإسراء: ٨٦].

---

(١) المعجم الكبير للطبراني: (٢٢/ ٣٣٤)، وانظر: صحيح الجامع: (٥٦٩٩).

نجد الله الهادي في كل طاعة نقوم بها: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وبالجملة نرى الله وراء كل حدث يحدث في الحياة... عند هبوب الريح، وعند طلوع الشمس وعند غروبها.. عند نزول المطر.. عند الكسوف والخسوف قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤].

* عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، تَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ سُرَّ بِهِ، وَذَهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: «**إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَابًا سُلِّطَ عَلَى أُمَّتِي**»، وَيَقُولُ، إِذَا رَأَى الْمَطَرَ: «**رَحْمَةٌ**».(١)

- وكان أحد الصالحين إذا ذهب إلى المسجد ليلقي درسه، وجد جموعًا غفيرة من الناس تنتظره فيناجي الله ويقول: اللهم إنك تعلم أنهم يقصدونك أنت، ولكنهم وجدوني عندك.(٢)

المعرفة المؤثرة:

فإن قلت: ولكننا نعرف الله ﷻ، ونعرف قدرته وعظمته وفضله علينا

(١) صحيح مسلم: (٨٩٩).
(٢) حقيقة العبودية: (ص: ٢٦).

ومع ذلك لا نتعامل معه بما يستحقه - سبحانه - ولا نشعر بقربه ولا نأنس به...؟!

نعم، أغلبنا يشتكي من جفاء في علاقته ومعاملته مع الله، مع ما ندعي من معرفته سبحانه وأن الأمر كله بيده، والسبب في ذلك هو أن المعرفة المطلوبة والتي من شأنها أن تغير طريقة المعاملة، وتحسن العلاقة بين العبد وربه، لابد أن تكون معرفة قوية ترسخ في يقين الإنسان وتؤثر في قلبه، أو بعبارة أخرىٰ: تؤثر في مشاعره باعتبار أن القلب هو مجمع المشاعر داخل الإنسان، ومن ثَمَّ تشكل هذه المعرفة جزءًا أصيلًا من إيمانه، كما قال الله ﷻ: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٤].

أما المعرفة المحدودة العابرة فلا يمكنها أن تؤثر تأثيرًا مستمرًا في حياة العبد، والدليل علىٰ ذلك أننا عندما نسمع محاضرة عن فضل الله علينا وتوالي نعمه وإمداده، فإنَّ المشاعر تتجه بالحب إليه سبحانه، ثم بعد ذلك تخفت حرارة تلك المشاعر بانتهاء أثر الكلام الذي سمعناه، وهذا هو الفارق بين الحالة الإيمانية العارضة، وبين الحالة الإيمانية المستقرة.

فالحالة العارضة هي الحالة الشعورية العابرة التي تنتاب المرء عندما تُستثار مشاعره في اتجاه ما.

هذه الحالة سرعان ما تزول وذلك عندما تعود المشاعر إلىٰ حالتها الأولىٰ، فنجد الشخص يتأثر بالموعظة المؤثرة وقد يبكي وينتحب ثم بعد

ذلك يعود إلىٰ سابق عهده من الانشغال بالدنيا والغفلة عن الآخرة، فإذا استمر الطرق علىٰ المشاعر بدوام الوعظ والتذكير: استمرت الحالة الشعورية للشخص، وشيئا فشيئا تستقر في المشاعر، أي تُشكل هذه الحالة جزءًا ثابتًا من المشاعر، ومن ثَم يسهُل استثارتها بأدنىٰ مؤثر، وتصبح منطلقا دائما للسلوك.

وهذا هو الفارق بين الإيمان الأصيل الثابت الذي يستقر في القلب وتصدقه الأعمال، وبين الإيمان اللحظي العابر الذي يُنتج أعمالًا آنية وغير مستمرة.

✍ **يقول الحسن**: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال.. (١)

معنىٰ هذا أننا بحاجة إلىٰ أن نجعل معرفتنا بالله تتحول إلىٰ إيمان يستقر في القلب ويرسخ فيه وينمو شيئا فشيئا حتىٰ يشكل الجزء الأكبر من المشاعر، فيصير حبه سبحانه أحب الأشياء لدينا وخشيته أخوف الأشياء عندنا، وهكذا في بقية المشاعر فتظهر تبعًا لذلك الثمار الطيبة لهذه المعرفة النافعة كما قال ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**». (٢)

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١: ٨٠).

(٢) صحيح البخاري: (١٦)، واللفظ له، صحيح مسلم: (٤٣).

فإذا ما اكتفت المعرفة بمخاطبة العقل فقط، ولم تصل إلىٰ المشاعر، ولم يستقر مدلولها فيها، ستظل هذه المعرفة حبيسة العقل، ولن تظهر ثمارها في السلوك.





المبحث الثاني

لماذا الله هو المقصود دون سواه

بين يدي الموضوع

إن المراد بالربانية هو الانتساب إلىٰ الرب سبحانه وتعالىٰ بناء علىٰ ما اخترناه من تعريف، بل إننا لا نقول عن الإنسان إنه رباني إلا إذا كان وثيق الصلة بالله عالمًا بدينه وكتابه معلمًا له.(١)

وتنقسم الربانية إلى أمرين:

١- ربانية الغاية والوجهة.

٢- ربانية المصدر والمنهج.

أولاً: ربانية الغاية والوجهة:

وقبل التفصيل في ربانية الغاية والوجهة لابد من بيان عدَّة أمور وتعريفات.

أولاً: الغايةُ يراد بها: النِهايَةُ.(٢)

قلت: (محمد): ونحن غايتنا ربنا سبحانه وتعالىٰ، بل والمنتهىٰ إليه قال

---

(١) وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾ [آل عمران: ٧٩].

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (٦/ ٢٠١٨).

تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النجم: ٤٢].

ثانيًا: الوجهة:

في تاج اللغة وصحاح العربية ورد أنَّ الوجْه والجِهة بمعنًىٰ، والهاء عوضٌ من الواو.

ويقال: هذا وجه الرأي، أي هو الرأي نفسه. والاسم الوِجْهَةُ والوُجْهَةُ بكسر الواو وضمها. والواو تثبت في الاسماء، كما قالوا ولدة وإنما لا تجتمع مع الهاء في المصادر.

والمواجهة: المقابلة. ويقال: قعدت وُجاهَكَ ووِجاهَكَ، أي قبالتك. واتَّجَهَ له رأىٰ، أي سنح، وهو افتعل، صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها وأبدلت منها التاء وأدغمت. ثم بنىٰ عليه قولك: قعدت تُجاهَكَ وتِجاهَكَ، أي تلقاءك.

وتَجَهْتُ إليك أتجه، أي توجهت، لان أصل التاء فيهما واو. ووجهته في حاجةٍ، ووَجَّهْتُ وجهي لله سبحانه، وتَوَجَّهْتُ نحوك وإليك. وتوَجَّهَ الشيخ، إذا ولىٰ وكبر. وفي المثل: «أحمق ما يتوجه»، أي لا يحسن أن يأتي الغائط. وشيء مُوَجَهٌ، إذا جُعِلَ علىٰ جهةٍ واحدةٍ لا يختلف. وقد وَجُهَ [١] الرجل بالضم، أي صار وَجيهًا.[٢]

ومن هذا كله نختار أمرين:

---

(١) وجه من باب ظرف.
(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (٦/ ٢٢٥٤/ ٢٢٥٥).

١- وَجَّهْتُ وجهي لله سبحانه.

٢- شيء مُوَجَهٌ، إذا جُعِلَ علىٰ جهةٍ واحدةٍ لا يختلف.

- ومن هنا يمكن أن نجمع بين الغاية والوجهة، فغايتنا ونهاية ما نرجوه هو الله سبحانه وتعالىٰ، كما أن وجهتنا إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

- وبهذا يتضح لماذا جمعنا بين الأمرين فقلنا: **ربانية الغاية والوجهة.**

۞ ثالثًا: لماذا قدَّمنا ربانية الغاية والوجهة على ربانية المصدر والمنهج؟

والجواب: إن صاحب المنهج هو الله، وكذلك المصدر منه سبحانه وتعالىٰ، ولذلك قدّمنا الحديث عن **ربانية الغاية والوجهة.**

ومن هنا نقول: إن الإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد، هو حسن الصلة بالله تبارك وتعالىٰ، والحصول علىٰ مرضاته، فهذه هي غاية الإسلام، وبالتالي هي غاية الإسلام، ووجهة الإنسان، ومنتهىٰ أمله، وسعيه وكدحه في الحياة قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم: ٤٢].

ولقد خاطب الله تعالىٰ رسوله محمدًا ﷺ بهذه الحقيقة، وأمره أن يعلنها ويبلغها للناس، فقال: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٦١ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝١٦٤﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٤].

إن الإنسان لم يخلق لمجرد أن يأكل ويشرب، ويلهو ويلعب، ثم يموت أو ينفق كما تنفق الدابة، كالذين حكىٰ القرآن عنهم أنهم: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [محمد: ١٢] إنما خلق الإنسان لغاية أسمىٰ وهي عبادة الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

ويبين القرآن أن خلق العالم كله علويه وسفليه، لم تكن الغاية منه إلا أن يَعرِف الناس ربهم القادر علىٰ كل شيء العليم بكل شيء وهذه المعرفة هي باب كل هدىٰ، ومفتاح كل خير يقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]. (١)

---

(١) الخصائص العامة للإسلام: (٩-١١) بتصرف.

لماذا كان الله هو المقصود (الغاية) دون سواه؟

إنَّ الجواب علىٰ هذا السؤال يمكن أن تؤلف فيه كتب، ولكن لقصر باعي، وقلة بضاعتي، أكتفي بذكر هذه النقاط، وأسأل الله أن تكون كافيةً لإيصال المراد.

١ - الغاية التي ليس وراءها غاية: (١)

الناس جميعًا مؤمنون وكفار لابد لهم من مراد يقصدونه، ويتوجهون إليه، والسبب في ذلك أن الإنسان فقير إلىٰ غيره محتاج إليه، كي يسد نقصه ويكمل عجزه ويحصل حاجته، وفقره هذا دائم لا يتوقف ولا ينقطع.

---

(١) لا جدال في أن للإسلام غايات وأهدافًا أخرىٰ إنسانية واجتماعية، ولكن عند التأمل، نجد هذه الأهداف في الحقيقة خادمة للهدف الأكبر، وهو مرضاة الله تعالىٰ، وحسن مثوبته. فهذا هو هدف الأهداف، أو غاية الغايات.

- **في الإسلام تشريع ومعاملات،** ولكن المقصود منها هو تنظيم حياة الناس حتىٰ يستريحوا، ويبرؤوا من الصراع علىٰ المتاع الأدنىٰ، ويفرغوا لمعرفة الله تعالىٰ، والسعي في مراضيه.

- **وفي الإسلام جهاد وقتال للأعداء،** ولكنَّ الغاية هي: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]

- **وفي الإسلام حث علىٰ المشي في مناكب الأرض،** والأكل من طيباتها قال تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك:
=

ومن عجائب الإنسان أنه إذا أراد شيئًا من المخلوقات ثمّ حصل عليه ملّه وطلب غيره أو أكثر منه، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَىٰ ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَىٰ مَنْ تَابَ**». (١) فالنفس الإنسانية دائمة التطلاب لما لم تحصل عليه، ولم تصل إليه، وليس هناك من شيء يمكن أن يسدَّ فقرها وحاجتها إلا أن تصل إلىٰ ربها ومعبودها، فتعرفه وتقصده دون سواه، عند ذلك يجد القلب مطلوبه، وتحصل النفس علىٰ مرادها فيكون الاطمئنان والراحة والهناء، وفي ذلك يقول رب العزة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

٢ - هو المستحق لأن يقصد ويعبد:

والله وحده المستحق لأن يقصد دون سواه، لأنه المعبود الذي يتصف بصفات الجلال والكمال، فهو الكامل في ذاته وصفاته، وهو المنعم

....

=

١٥]، ولكن الغاية هي القيام بشكر نعمة الله وأداء حقه قال تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

وكل ما في الإسلام من تشريع وتوجيه وإرشاد، إنما يقصد إلىٰ إعداد الإنسان ليكون عبدًا خالصًا لله، لا لأحد سواه. ولهذا كان روح الإسلام وجوهره هو التوحيد.

ومعنىٰ التوحيد: إفراد الله بالعبادة والاستعانة، وهذا معنىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥].

(١) صحيح البخاري: (٦٤٣٦).

المتفضل الذي بيده النفع والضر، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والنصر والخذلان، والعز والإذلال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٦ – ٢٧].

فهو وحده المطلوب المقصود، لأنه الخالق الهادي المطعم المسقي، الذي يشفي الأمراض، والذي يغفر الذنوب والخطايا قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٨ – ٨٢].

فمنه المبتدأ وإليه المنتهىٰ، له الحمد في الأولىٰ والآخرة، لا ربَّ غيره، ولا معبود سواه: قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ [النجم: ٤٢ – ٥١].

فمن كانت هذه صفاته، وتلك أفعاله، فإنه الذي يستحق العبادة دون سواه، وهو الذي ينبغي أن يكون المقصد والمعاذ والملاذ.

٣ - السعادة في قصده، والشقاء في توجيه القلوب إلى سواه:

إن التوجه لغير الله مخالف للفطرة الإنسانية، والمتوجه إلىٰ غير الله حاله

كحال الذي يستعمل ساعة يده مطرقة حديد، فإنه يظلم الساعة، لأنها لم تصنع لذلك، والنفس الإنسانية خلقت للعبادة والتوجه إلىٰ الله، فإن توجهت إلىٰ غيره فقد ظلمت، ولذلك جاء في القرآن: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣] والتوجه إلىٰ غير الله إفساد للنفوس قال تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ١٠] كما أن التوجه إلىٰ الله وحده بالعبادة إصلاح وتزكية للنفس قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس: ٩].

إن فطرة الإنسان تدفعه إلىٰ التوجه إلىٰ المعبود، والفطرة قد لا تعرف المعبود الحق، ولكنها تطلبه دائمًا، وقد أرسل الله رسله كي يهدوا الناس إلىٰ معبودهم الحق، وعند ذلك يصل الإنسان إلىٰ مطلوبه ومعبوده الذي لا غنىٰ له عنه ولا سكون له إلا به، وذلك مقتضىٰ طبعه، وتلك حاجة نفسه قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ...﴾ [الروم: ٣٠].

فالإنسان يشقىٰ إذا كان وجهه وقصده وهمه لغير فاطره، ويشقىٰ مرة أخرىٰ لأن همومه تتعدد، وغاياته تتشتت، فإذا لم يكن همّ العبد همّا واحدًا تقاسمته هموم الدنيا، فعند ذلك لا يدري إلىٰ أين يسير، ولا كيف يتجه؟

أما المسلم فغايته واحدة، ومنهجه الذي يؤدي إلىٰ الغاية واحد، وهو قادر علىٰ أن يرضي الله ويسير علىٰ هداه، وبذلك تجتمع علىٰ العبد نيته، ويتوحد مطلوبه، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا**

هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ». (١)

وانقسام الغاية يُشقِي الإنسان، لأن الإنسان ذو القلب الواحد لا يمكنه أن يتخذ معبودين، كما لا يمكنه أن يتجه إلىٰ غايتين تتقاسمان أعماله قال تعالىٰ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩]، فالإنسان له قلب واحد ينبغي أن يتوجَّه إلىٰ ربٍّ واحد، فإن توجَّه إلىٰ معبودين سبَّب ذلك للإنسان شقاءً وأيَّ شقاء.

✍ **وخلاصة القول:** إن التوجه إلىٰ غير الله في جملته شقاء، شقاء القلب والنفس، وهو كذلك ضلال عن الحق، وبعد عن جادة الصواب.

والسعادة تكمن في التوجه الصادق إلىٰ الله دون سواه، هذا في الدنيا.

وهناك السعادة والشقاء في الآخرة، وهما مرتبطان بمسيرة الإنسان في هذه الحياة، فالذي توجه إلىٰ الله وحده في الدنيا دون سواه، وعمل في دنياه للغاية الباقية، فإنه في الآخرة من الفائزين السعداء، وتلك السعادة كما يقول الغزالي: بقاء بلا فناء، ولذة بلا عناء، وسرور بلا حزن، وغنىٰ بلا فقر، وكمال بلا نقصان، وعز بلا ذل. (٢) وهذه هي السعادة الحقيقية الباقية الدائمة،

(١) سنن الترمذي: (٢٤٦٥). صحيح الجامع: (٦٥١٠ - ٢٢٢٢).
(٢) ميزان العمل: (ص: ١٨٠).

وغيرها مضمحل ذاهب.

✍ **يقول ابن حزم في هذا:** إِذا تعقبت الْأُمُور كلهَا فَسدتْ عَلَيْك، وانتهيت فِي آخر فكرتك باضمحلال جَمِيع أَحْوَال الدُّنْيَا إِلَىٰ أَن الْحَقِيقَة إِنَّمَا هِيَ الْعَمَل للآخرة فَقَط، لِأَن كل أمل ظَفرت بِهِ فعقباه حزن، إِمَّا بذهابه عَنْك، وَإِمَّا بذهابك عَنهُ، وَلَا بُد من أحد هذَيْن الشَّيْئَيْنِ، إِلَّا الْعَمَل لله ﷻ، فعقباه علىٰ كل حَال سرُور فِي عَاجل وآجل، أما العاجل فقلة الْهم بِمَا يهتم بِهِ النَّاس، وَإنَّك بِهِ مُعظم من الصّديق والعدو وَأما فِي الآجل فالجنة. (١)

وفي السعادة والشقاء الدنيوي والأخروي يقول ربُّ العزة: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٧].

٤ - لا سبيل إلى تحرير النفس الإنسانية إلا بتوجهها إليه:

إن مفهوم العبودية لله في الإسلام يعنىٰ الحرية في أرقىٰ صورها وأكمل مراتبها، العبودية لله إذا كانت صادقة تعني التحرر من سلطان المخلوقات والتعبد لها، فالمسلم ينظر إلىٰ هذا الوجود نظرة صاحب السلطان، فالله خلق كل ما فيه من أجلنا، وسخره لنا قال تعالىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس: (ص: ١٣-١٤).

ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ ...﴾ [الجاثية: ١٣].

ومادام الأمر كذلك فالمسلم لن يخضع لهذه المخلوقات، ولن يصدقها لأنها أقل منه شأنًا فهي مخلوقة لنفعه وصلاحه.

والمسلم لن يستعبده إنسان مثله، فالناس جميعًا عبيد الله، فإن حاول بعض المتمردين من بني الإنسان أن يطغىٰ، وقف المسلم في وجهه يقول كلمة الحق، ويذكر هؤلاء بأصلهم الذي منه خلقوا، ومصيرهم الذي لابد لهم منه، ويذكر هؤلاء بضعفهم، علّهم يفيقون ويرجعون.

وبالعبودية لله يتحرر الإنسان من أهوائه، فالهوىٰ شرُّ وثن يُعبد قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]

فالهوىٰ قد يُجعل إلهًا معبودًا يسيطر علىٰ نفس صاحبه، فلا يصدر إلا عن هواه، ولا يسعىٰ إلا لتحقيق ما يبعثه إليه، والإسلام يعتبر الخضوع لأهواء النفس التي تدعو إلىٰ المحرمات والآثام عبودية لهذه الأمور.

أمّا التّسامي عمّا تدعو إليه النفس من المحرّمات وإن كانت محبوبة للنفوس فإنه يمثل في الإسلام الحرية الحقّة، لأنه وإن قيدت حرّيته من جهة، بأن ألزم بترك بعض ما يشتهي، إلا أنه تحرّر من سلطان الهوىٰ من جهة أخرىٰ.

والـذين يزعمـون أنهـم يسـتطيعون تحقيـق الحرّيـة بعيـدًا عـن الله ومنهجـه مخطئون، لأنَّ الإنسان، بل كل مخلـوق، سـيبقىٰ عبـدًا شـاء أم أبـىٰ، إلا أنـه إن رفـض الخضـوع لله اختيـارًا فسيخضـع لمخلـوق مثلـه، لا يملـك لـه نفعًـا ولا ضرًا.

والإسلام هو المخلص الحقيقي من العبودية لغير الله، ولقد صدق موفد المسلمين وبرَّ حين واجه قائد الفرس قـائلًا: اللهُ ابْتَعَثْنَـا لِنُخْـرِجَ مَـنْ شَـاءَ مِـنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَىٰ سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَىٰ عَدْلِ الْإِسْلَامِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَىٰ خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَبِلَ ذَلِكَ قَبِلْنَـا مِنْـهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ، وَمَـنْ أَبَـىٰ قَاتَلْنَـاهُ أَبَـدًا حَتَّـىٰ نُفْضِـيَ إِلَـىٰ مَوْعُـودِ اللهِ. قَـالُوا: وَمَـا مَوْعُودُ اللهِ؟ قَالَ: الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَىٰ قِتَالِ مَنْ أَبَىٰ، وَالظَّفَرُ لِمَنْ بَقِيَ. (١)

وكل من لـم يرض بالإسلام دينًا، وبحكمه حكمًا، فإنه غارق في قاذورات الجاهلية: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

والذين يرفضـون أن يكـونَ اللهُ معبـودَهم فـإنهم يهينـون أنفسـهم بتعبيـدها لمخلوقات أقل منها شأنًا وأحقر منزلة، والإسلام يعدّ الـذي يكـون جـلّ همـه وغاية مطلبه الدينار والـدرهم والمأكـل والملبس، عبـدًا لهـذه التـي سـيطرت علـىٰ نفسـه قـال الرسـول ﷺ: «**تَعِـسَ عَبْـدُ الـدِّينَارِ، وَعَبْـدُ الـدِّرْهَمِ، وَعَبْـدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِـيَ، وَإِنْ لَـمْ يُعْـطَ سَـخِطَ، تَعِـسَ وَانْـتَكَسَ، وَإِذَا شِـيكَ**

(١) تاريخ الطبري: (٣/ ٥٢٠)، البداية والنهاية: (٧/ ٣٩).

فَلَا انْتَقَشَ......». (١)

٥ - غنى الله عن العباد وإحسانه إليهم:

ومما يوجب على العباد التوجه إلى رب العالمين دون سواه أنه سبحانه وتعالى محسن إليهم، متفضل عليهم، وهو غني عنهم، يجلب لهم الخير ويكشف عنهم الضرّ، لا لجلب منفعة إليه من العبد ولا لدفع مضرة، بل رحمة وإحسانًا.

والعباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبّوه، ويعظّموه، ويجلبوا له منفعة، ويدفعوا عنه مضرة، وإن كانت ذلك أيضًا من تيسير الله تعالى.

فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد إذا لم يكن العمل لله، فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبّتهم، سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر، فإذا أحبّوا الأنبياء والصالحين طلبوا لقاءهم، فهم يحبون التمتع برؤيتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك.

وكذلك من أحب إنسانًا لشجاعته أو لرياسته أو جماله أو كرمه، فهو يحبّ أن ينال حظّه من تلك المحبّة، ولولا التذاذه بها لما أحبه، وإن جلبوا له منفعة كخدمة أو مال، أو دفعوا عنه مضرَّة كمرض وعدوّ ولو بالدعاء أو الثناء فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله، فأجناد الملك وعبيد المالك وأجراء الصانع، كلهم إنما يسعون في نيل أغراضهم به، لا يعرّج أكثرهم على

(١) صحيح البخاري: (٢٨٨٧).

قصد منفعة المخدوم إلا أن يكون قد عُلّم وأُدب من جهة أخرىٰ، فيدخل ذلك في الجهة الدينية، أو يكون فيها طبع علىٰ عدل وإحسان من باب المكافأة والرحمة، وإلا فالمقصود بالقصد الأول هو منفعة نفسه، وهذا من حكمة الله التي أقام بها مصالح خلقه، وقسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفع بعضهم فوق بعض درجات قال تعالىٰ: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

العباد يقصدون نفع أنفسهم، والرب يريدك لك، ولمنفعتك بك، لا ينتفع بك، وهي منفعة لك بلا مضرة.





المبحث الثالث

ثمرات ربانية الغاية في النفس والحياة

ثمرات ربانية الغاية في النفس والحياة

إنَّ لربانية الغاية والوجهة آثارًا، وفوائدَ جمة في النفس والحياة، يجني الإنسان ثمارها في هذه الدنيا، فضلًا عن ثمراتها في الآخرة، وهي ثمار في غاية الأهمية ومنها:

أولاً: معرفة غاية الوجود الإنساني:

أن يعرف الإنسان لوجوده غاية، ويعرف لمسيرته وجهة، ويعرف لحياته رسالة، وبهذا يحس أنَّ لحياته قيمةً ومعنىٰ، ولعيشه طعمًا ومذاقًا، وأنه ليس ذرةً تافهةً تائهةً في الفضاء، ولا مخلوقًا سائبًا يخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء، كالذين جحدوا الله أو شكوا فيه، فلم يعرفوا: لماذا وجدوا؟ ولماذا يعيشون؟ ولماذا يموتون؟

لماذا وجدت؟ وما مهمتي في هذا الوجود؟ وماهي رسالتي في هذه الحياة؟

سؤال واجب علىٰ الإنسان كل الإنسان أن يسأله لنفسه وأن يفكر مليًا في جوابه.

فإنَّ كلَّ جهلٍ مهما عظمت نتائجه قد يغتفر، إلا أن يجهل الإنسان سرَّ وجودِه، وغاية حياته، ورسالة نوعه وشخصه في هذه الأرض.

وأكبر العار علىٰ هذا الكائن الذي أوتي العقل والإرادة أن يعيش غافلًا،

يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام، لا يفكر في مصيره، ولا يدري شيئًا عن حقيقة نفسه، وطبيعة دوره في هذه الحياة حتىٰ يوافيه الموت بغته، فيواجه مصيره المجهول، دون استعداد له، ويجني ثمرة الغفلة والجهل والانحراف في عمره الطويل أو القصير.

وحينئذ يندم حين لا ينفع الندم ويرجو الخلاص ولات حين مناص.

لهذا كان لزامًا علىٰ كل بشر عاقل أن يبادر فيسأل نفسه بجد: لماذا خلقت؟ وما غاية خلقي؟

لماذا خلقت في هذه الحياة؟

فالجواب عنه عند المؤمنين الربانيين حاضر لأنهم لا يعيشون في عماية ولا يمشون إلىٰ غير غاية، بل يسيرون علىٰ هدىٰ من ربهم، وبينة من أمرهم، واستبانة لمصيرهم بعد أن عرفوا الله وأقروا له بالوحدانية.

إن كل صانع يعرف سر صنعته لماذا صنعها؟

ولماذا صنعها علىٰ نحو معين دون غيره؟

والله تعالىٰ هو صانع الإنسان وخالقه ومدبر أمره، فلْنسْأله: يا رب لماذا خلقت هذا الإنسان؟

والجواب من كتاب الله كتاب الخلود أنه خلقه ليكون خليفة في الأرض- وهذا واضح في آدم وما كان من تمني الملائكة لمنزلته: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة: ٣٠].

وأول شيء في هذه الخلافة أن يعرف الإنسان ربه حق معرفته ويعبده حق عبادته قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق: ١٢] وفي هذه الآية جعلت معرفة الله هي الغاية من خلق السموات والأرض.

ويقول تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

إن المتأمل في هذا الكون الذي نعيش فيه يرىٰ كل شيء فيه يحيا ويعمل لغيره، فنحن نرىٰ أن الماء للأرض، والأرض للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، والإنسان لمن؟ هذا هوا السؤال.

والجواب الذي تنادي به الفطرة، وتنطق به مراتب الكائنات في هذا الكون: أن الإنسان لله لمعرفته، ولعبادته، للقيام بحقه وحده.

✍ **بل نستطيع أن نقول:** لا يجوز أن يكون الإنسان لشيء آخر في الأرض أو في الأفلاك، لأن كل العوالم العلوية والسفلية مسخرة له، وتعمل في خدمته كما هو مشاهد، فكيف يكون هو لها أو يعمل في خدمتها؟

ومن هنا كانت عبادة الإنسان لقوىٰ الطبيعة ومظاهرها من فوقه ومن تحته، كالشمس والقمر والنجوم والأنهار والأبقار والأشجار ونحوها، قلبًا

للوضع الطبيعي، وانتكاسا بالإنسان أي انتكاس!

والإنسان إذن بحكم الفطرة ومنطق الكون، إنما هو لله سبحانه لا لغيره، لعبادته وحده، لا لعبادة بشر ولا حجر، ولا بقر ولا شجر، ولا شمس ولا قمر، وكل عبادة لغير الله إنما هي تزيين من تزيين الشيطان عدو الإنسان. فهذه هي الغاية من الوجود الإنساني التي يعرفها الربانيون.

أما غير الربانيين فيقولون ما قاله الشاعر المرتاب الحائر:

لبستُ ثوب العيش لم أستشر ··· وحرت فيه بين شتىٰ الفكر
وسوف أنضو الثوب عني ··· ولم أدرك لماذا جئت... أين المفر!

كلا.. فقد اتضحت وجهته الربانية، وعرف من أين جاء، ولم جاء، وإلىٰ من فراره، وأين قراره.

إنَّ حسبه أن يقرأ من كتاب ربه ما ردَّ به إبراهيمُ خليل الرحمن علىٰ عبدة الأوثان فقال: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٧ - ٨٣].

ثانيًا: الاهتداء إلى الفطرة:

ومن ثمرات هذه الربانية وفوائدها، أن يهتديَ الإنسان إلىٰ فطرته التي فطره الله عليها. والتي تطلب الإيمان بالله تعالىٰ، ولا يعوضها شيء غيره، يقول تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا

تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠].

واهتداء الإنسان إلىٰ فطرته ليس كسبًا رخيصًا، بل هو كسب كبير، وغنىٰ عظيم، فيه يعيش المرء في سلام ووئام مع نفسه، ومع فطرة الوجود الكبير من حوله، فالكون كله رباني الوجهة، يسبح بحمد الله قال تعالىٰ: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [النور: ٤١].

وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج: ١٨]

والحقيقة أن في فطرة الإنسان فراغًا لا يملؤه علم، ولا ثقافة ولا فلسفة إنما يملؤه الإيمان بالله جل وعلا.

وستظل الفطرة الإنسانية تُحِسُّ بالتوتر، والجوع والظمأ، حتىٰ تجد الله، وتؤمن به، وتتوجه إليه.

فإذا لم يجد الإنسان ربه وهو أقرب إليه من حبل الوريد فما أشقىٰ حياته وما أتعس حظه، وما أخيب سعيه!

إنه لن يجد السعادة، ولن يجد السكينة، ولن يجد الحقيقة، لن يجد نفسه ذاتها قال تعالىٰ: ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [الحشر: ١٩].

إن الإنسان خَلْقٌ عجيب، جمع بين قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله. فمن عرف جانب الطين، ونسيَ نفخة الروح، لم يعرف حقيقة الإنسان.

ومن أعطىٰ الجزء الطينيَ فيه غذاءَه وريه مما أنبتت الأرض، ولم يُعط الجانب الروحي غذاءه من الإيمان ومعرفة الله، فقد بخس الفطرة الإنسانية، وجهل قدرها، وحرمها ما به حياتها وقوامها.

قال ابن القيم: فَفِي الْقَلْبِ شَعَثٌ، لَا يَلُمُّهُ إِلَّا الْإِقْبَالُ عَلَىٰ اللهِ. وَفِيهِ وَحْشَةٌ، لَا يُزِيلُهَا إِلَّا الْأُنْسُ بِهِ فِي خَلْوَتِهِ.

وَفِيهِ حُزْنٌ لَا يُذْهِبُهُ إِلَّا السُّرُورُ بِمَعْرِفَتِهِ وَصِدْقِ مُعَامَلَتِهِ.

وَفِيهِ قَلَقٌ لَا يُسَكِّنُهُ إِلَّا الِاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَالْفِرَارُ مِنْهُ إِلَيْهِ.

وَفِيهِ نِيرَانُ حَسَرَاتٍ: لَا يُطْفِئُهَا إِلَّا الرِّضَا بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَقَضَائِهِ، وَمُعَانَقَةُ الصَّبْرِ عَلَىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ وَقْتِ لِقَائِهِ.

وَفِيهِ طَلَبٌ شَدِيدٌ: لَا يَقِفُ دُونَ أَنْ يَكُونَ هُوَ وَحْدَهُ مَطْلُوبَهُ.

وَفِيهِ فَاقَةٌ: لَا يَسُدُّهَا إِلَّا مَحَبَّتُهُ، وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ، وَدَوَامُ ذِكْرِهِ، وَصِدْقُ الْإِخْلَاصِ لَهُ. وَلَوْ أُعْطِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَمْ تَسُدَّ تِلْكَ الْفَاقَةَ مِنْهُ أَبَدًا. (١)

---

(١) مدارج السالكين: (٣/ ١٥٦).

وهذه هي الفطرة التي لم يستطع ولم يملك مشركو العرب في جاهليتهم أن ينكروها مكابرة وعنادًا، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦١].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان: ٢٥].

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٩].

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]

وهذه الفطرة لا تموت، بل قد يخفت هذا الصوت الفطري في النفس أو يكبته صاحبه عمدًا في ساعات الرخاء والدعة، فإذا نزلت بالإنسان أحداث مريرة، واهتزَّ عوده أمام الشدائد القاسية، وخاب أمله في الناس حوله، هنالك ينطلق هذا الصوت متجها إلىٰ ربه ضارعًا خاشعًا داعيًا راجيًا منيبًا إلىٰ الله.

وهذا ما يسميه أهل العلم دليل النوائب:

وعلىٰ هذه الحقيقة تنبه آيات كثيرة في القرآن، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ

إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٠- ٤١].

- وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٣- ٦٤].

- وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢]

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان: ٣٢].

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النحل: ٥٣- ٥٤].

فحوىٰ هذا الدليل أنه إذا نزل بالمشركين كرب وبلاء في البر أو في البحر فسرْعانَ ما يرجعون إلىٰ الله ويدعونه لكشف هذا البلاء تاركين دعاء أصنامهم لاعترافهم بأنه لا يكشفه أحد غير الله، ثم إذا نجوا وسلموا من هذا

البلاء عادوا لشركهم بالله وعبادتهم الأصنام التي نسوها عند البلاء.

وهذا الأمر من المشركين يستدعي التعجب والاستنكار، لذلك جاء الكلام في آية سورة يونس مصروفًا عن الخطاب إلىٰ الغيبة، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢].

✍ **قال الزمخشري**: «فإن قلت ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلىٰ الغيبة؟ قلت: المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح». (١)

فالفطرة حقيقة أجمع عليها الباحثون في تاريخ الأمم، والأديان، والحضارات فقد وجدوا الإنسان منذ أقدم العصور يتدين، ويتعبد، ويؤمن بإله، حتىٰ قال أحد كبار المؤرخين: لقد وُجدَت في التاريخ مدن بلا قصور، ولا مصانع، ولا حصون، ولكن لم توجد أبدًا مدن بلا معابد.

ولهذا كانت مهمة رسل الله كافة في جميع الأعصار، هي تحويل الناس من عبادة المخلوقات إلىٰ عبادة الخالق، فالمقصود الأعظم من بعثة النبيين، وإرسال المرسلين، وإنزال الكتب المقدسة، هو إزالة ما تراكم علىٰ معدن الفطرة من غبار الغفلة أو الوثنية أو التقليد.

---

(١) انظر شرح هذا الدليل في تفسير الطبري ٧/ ١٩١ وفي تفسير ابن كثير ٢/ ١٣٢ ٤١٢ ٥٧٢.

ولا عجب أن يكون النداءُ الأوَّلُ لكل رسول: قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا﴾ [الأعراف: ٦٥].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ﴾ [الأعراف: ٧٣].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

- وهكذا دعا نوح وهود وصالح وإبراهيم وشعيب وكل رسول بعث إلىٰ قوم مكذبين قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦]

- وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

- وقال تعالىٰ بعد أن ذكر قصص طائفة كبيرة من الأنبياء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥١- ٥٢].

ثالثًا - سلامة النفس من التمزق والصراع:

ومن ثمرات هذه الربانية ـ ربانية الغاية والوجهة ـ سلامة النفس البشرية من التمزق والصراع الداخلي، والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات، وشتىٰ الاتجاهات.

لقد اختصر الإسلام غايات الإنسان في غاية واحدة هي إرضاء الله تعالىٰ، وركز همومه في هم واحد هو العمل علىٰ ما يرضيه سبحانه.

ولا يريح النفس الإنسانية شيء كما يريحها وحدة غايتها، ووجهتها في الحياة، فتعرف من أين تبدأ، وإلىٰ أين تسير، ومع من تسير.

ولا يُشقِي الإنسانَ شيءٌ مثلُ تناقض غاياته، وتباين اتجاهاته، وتضارب نزعاته، فهو حينا يُشرِّق، وحينا يُغرِّب، وتارة يتجه إلىٰ اليمين، وطورًا يتجه إلىٰ اليسار، ومرة يرضي زيدًا فيغضب عمرو، وأخرىٰ يرضي عمرًا فيغضب زيد، وهو في كلا الحالين حائر بين رضىٰ هذا وغضب ذاك.

ومن في الناس يرضي كل نفس ... وبين هوىٰ النفوس مدىٰ بعيد؟!

إن عقيدة التوحيد قد منحت المسلم يقينا بأن لا رب إلا الله يخاف ويرجىٰ، ولا إله إلا الله، يجتنب سخطه، ويلتمس رضاه.

وبهذا أخرج المسلم كل الأرباب الزائفة من حياته، وحطم كل الأصنام المادية والمعنوية من قلبه، ورضي بالله وحده ربًا، عليه يتوكل، وإليه ينيب، وفي فضله يطمع، ومن قوته يستمد، وله يتودد، وإليه يحتكم، وبه يعتصم: قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران:

[١٠١].

فأين هذا من المشرك بالله، الذي تعددت أربابه، وتضاربت وجهاته، وقد مثله القرآن الكريم بعبد له أكثر من سيد، وهم شركاء متشاكسون غير متوافقين، كل يأمره بضد ما يأمره به الآخر، ويريد منه غير ما يريده.

فَهْمُّه متفرق، وقلبه مشتت، يقول تعالىٰ: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].

وقال يوسف عليه السلام لرفيقيه في السجن، وقد كانا كقومهم ممن يعبدون مع الله آلهة أخرىٰ: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف: ٣٩- ٤٠]

رابعًا: التحرر من العبودية للأنانية والشهوات:

ومن ثمرات هذه الربانية: أنها ـ حين تستقر في أعماق النفس ـ تحرر الإنسان من العبودية لأنانيته، وشهوات نفسه، ولذَّات حسه، ومن الخضوع والاستسلام لمطالبه المادية، ورغباته الشخصية.

وذلك أن الإنسان «الرباني» يقف به إيمانه بالله وباليوم الآخر موقف الموازنة بين رغبات نفسه، ومتطلبات دينه، بين ما تدفعه إليه شهواته، وما يأمره به ربه، بين ما يمليه عليه الواجب، بين متعة اليوم، وحساب الغد، أو

بين لذة عاجلة في دنياه، وحساب عسير ينتظره في أخراه.

وهذه الموازنة والمساءلة جديرة أن تخلع عنه نير العبودية للهوىٰ والشهوات، وأن ترتفع به إلىٰ أفق أعلىٰ من الأنانية والبهيمية، أفق الإنسانية المتحررة التي تتصرف بوعيها وإرادتها، لا بوحي بطنها وفرجها وغريزتها الحيوانية.

فإذا لم يرتق إلىٰ هذا الأفق الوضيء، فإنه يظل رانيًا إليه، حريصًا عليه، متشبثًا به. وإذا انحدر عنه يومًا، فسرعان ما يعود إليه تائبًا من ذنبه مستغفرًا لربه.

فليس الإنسان الرباني هو الإنسان الملاك، الذي لا يقع في خطيئة ولا خطأ. فهذا لا وجود له إلا في عالم الخيال أو المثال.

إنما الإنسان الرباني، هو الإنسان الأواب الذي يشعر بالتقصير كلما زلّ، ويرجع إلىٰ الله كلما أذنب: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٥]

ولهذا عدّد الله أوصاف المتقين الذين أعدّ لهم جنة عرضها السماوات والأرض وكان منها: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ليس عجيبًا إذن أن يتورط الإنسان في معصية الله، وتغلبه شهوته وهواه، فقديما عصىٰ آدم أبو البشرية ولكنه سرعان ما تاب وأناب، وقرع باب ربِّه

بـالاعتراف والاسـتغفار: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعـــــراف: ٢٣]. ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧] ولقد عصىٰ آدم، وعصىٰ إبليس، فغفر لآدم، ولـم يغفر لإبليس.

قلت: (محمد): إن الفارق الخطير بين معصية آدم، وبين معصية إبليس هو: (الإصرار، والإقرار).

فآدم عصىٰ بسبب الضعف والنسيان: ﴿ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه: ١١٥] ولكنه أقرَّ بذنبه وأعقبه بتوبة نصوح تمحو أثر الذنوب كما تمحو إشراقة الصبح ظلمة الليل قال تعالىٰ: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ٣٥ - ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٢- ٢٣]، فآدم اعترف وأقرَّ بذنبه، أما إبليس فإنه أصرَّ علىٰ معصيته كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة:

٣٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ ﴾ [ص: ٧١ – ٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣٢ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣ ﴾ [الحجر: ٣١–٣٣].

والله حذرنا من الإصرار[(١)] علىٰ المعصية، فقال تعالىٰ: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥** ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ـ ولنتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ **وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥** ﴾ فإننا نستفيد الآتي:

(١) الإصرار: هو العزم بالقلب علىٰ الأمر وترك الإقلاع عنه، وقال سهل بن عبد الله: الجاهل ميّت، والنّاسي نائم، والعاصي سكران، والمصرّ هالك، والإصرار: هو التّسويف، والتّسويف: أن يقول: أتوب غدا وهذا دعوىٰ النّفس، كيف يتوب غدا (وغدا) لا يملكه؟، وقال غير سهل: الإصرار هو أن ينوي ألّا يتوب، فإذا نوىٰ التّوبة النّصوح خرج عن الإصرار، وقول سهل أحسن. وروي عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**لا توبة مع إصرار**». انظر: تفسير القرطبي (٤/ ١٣٦).

١ – **أنَّ المؤمن المذنب سريع العودة والأوبة**، وهو في صراع إذا غلبته نفسه ففعل فاحشةً، أو ظلم إنسانًا سريعًا ما يستغفر.

٢ ـ **أن المؤمن المذنب لا يصر علىٰ المعصية**، ولا يقيم عليها لأنه من باب الاعتقاد يعتقد أنها معصية، ومهلكة، ثم هو من باب العمل لا يقيم عليها، لأنها مهلكة، وتسبب له غضب الله تعالىٰ، وتستدعي بطش الله ﷻ.

۞ إن الإنسان الرباني له صفات ومنها:

الرباني يدع الشهوة الحرام خوفًا من الله كما قال يوسف: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

والرباني لا يأكل المال الحرام لمعرفته أن المال الحرام ثمن لجهنم والعياذ بالله فالرباني لا يأكل الرشوة ولا الربا وإنما الرباني يكفيه قول الله: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس: ٥٨].

والرباني لا يركن إلىٰ ظالم ولا يعاونه ولا يمشي في ركابه لأنه يتذكر قول الله: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾ [هود: ١١٣] (١)

---

(١) إن هذه الآية الكريمة ذكرت في سورة هود وهذه السورة الكريمة يدور مقصدها حول **الاستمرار في الإصلاح دون تهوّر أو ركون إلىٰ ظالم**، و سميت هذه السورة باسم نبيّ الله هود عليه السلام تخليدًا لجهوده الكريمة في الدعوة إلىٰ الله فقد كان قومه من العتاة المتجبرين الذين اغتروا بقوتهم وقالوا من أشد منا قوة؟ فواجههم هود عليه السلام =

والرباني يعفو عمن ظلمه إذا تمكن منه كما فعل يوسف وقال لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]

وهكذا فعل الرسول ﷺ مع أهل مكة، قَالَ أَبُو يُوسُفَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَفَا عَنْ مَكَّةَ وَأَهْلِهَا وَقَالَ: «**مَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**» وَنَهَىٰ عَنِ الْقَتْلِ إِلَّا نَفَرًا قَدْ سَمَّاهُمْ، إِلَّا أَنْ يُقَاتِلَ أَحَدٌ فَيُقَاتَلُ، وَقَالَ لَهُمْ حِينَ اجْتَمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ: «**مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟**» قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ قَالَ: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**».(١)



....

=

وكان رجلًا فردًا بين الجمّ الغفير من عتاة عاد الغلاظ الشداد وقد حقّرهم، وانتقص آلهتهم، وهي من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجلٌ واحدٌ أمةً عطاشًا إلىٰ إراقة دمه، وذلك لثقته بربه، وقد قال لهم هود - عليه السلام - كلامًا جامعًا ما قاله نبي ولا رسول لقومه أبدًا، واشتمل كلامه هذه المعاني الثلاثة: [**الرباني يستمر في الإصلاح دون تهوّر أو ركون**] قال تعالىٰ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: ٥٤ - ٥٧]. فكأنما جمعت هذه الآيات «**استقم واصبر واستمر بالدعوة ولا تطغىٰ ولا تركن الىٰ الذين ظلموا**». نقلًا عن كتابي «**فَتْحُ الْمَنَّانِ فِي بَيَانِ تَنَاسُبِ وَ مَقَاصِدِ سور القرآن**». بتصرف.

(١) معرفة السنن والآثار: (١٣/ ٢٩٣).



المبحث الرابع

تفاوت الناس في الغايات والوجهات

تفاوت الناس في الغايات والوجهات

الناس تتفاوت غاياتهم تفاوتًا بعيدًا ويختلفون اختلافًا شاسعًا، فمن الناس من يرتفع إلىٰ أفق الملائكة، ومن الناس من ينزل إلىٰ حضيض الشياطين.

وتفصيل ذلك كالآتي:

إننا إذا نظرنا إلىٰ الناس وجدناهم ثلاثة أصناف في الغاية والوجهة:

أولاً: الصنف الأناني الحيواني:

وهذا النوع هو الذي يعيش حياته، غارقًا في لذات حسّه، دائرًا حول مطامح نفسه، فَجُلُّ غايته، ومحور تفكيره، يدور حول عبادة ذاته، يطوف بها كالوثني بصنمه، لا يخترق حجاب الحس إلىٰ ما وراء المادة، ولا يرنو ببصره إلىٰ شيء وراء دنياه العاجلة، وشهواته البهيمية، ومطالبه المادية الأنانية الآنية.

وهنا يأتي سؤال هل يمكن أن تكون النفس صنمًا يُعبد من دون الله؟ والجواب علىٰ هذا السؤال في ما ذكره الشيخ الغزالي رحمه الله.

يقول الشيخ الغزالي: تأملت في قصة الرجل المغرور صاحب الجنتين، الذي أغراه ثراؤه بالتطاول والكفر! فخذله الله، ودمَّر جنتيه، وأمسىٰ بعد الغنىٰ هالكًا، لا يجد أيَّ شيء، وأخذ يصيح ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا

﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الكهف: ٤٢-٤٣].

سألت نفسي: بمن أشرك هذا الرجل مع الله؟

لم يسبق في سرد القصة اسم صنم معبود، أو جبار يعتز الأغرار بالانتماء إليه..! وكان الجواب العاجل: لقد كانت نفسُه صنَمه، وإلهُه هواه!!

ليس من الضروري، أن يعتمد الشرك علىٰ صورة تنحت، أو رئيس يتفرعن.. يكفي أن يكون المرء فارغَ القلب من الله، فارغ الرأس من الله، مليئا بشهواته وحدها، يذكر دنياه، ويجحد آخرته، ينطلق في الدنيا انطلاق الوحش في الغاب، ما يسمع إلا نداء غرائزه وحسب. إذا لم يكن هذا كفرا فما الكفر؟. (١)

وفي سبيل هذه الغاية وهي النفس، لا يبالي أن يضحيَ بكل ما يعوقه، ويقف في سبيله من القيم والمثل والمعتقدات، وبكل من يعوقه، ويقف في طريق شهواته من البشر.

يفعل ذلك جهرة إن ملك القدرة عليه، وكان ذا جاه وسلطان، وقد يرتكبه سرًّا وخفية، فرارًا من طائلة العقاب والقانون.

هذا الأناني لا يحجزه ضمير، فقد مات ضميره وأهيل عليه التراب، ولا يحجزه إيمان، لأنه لا إيمان لمن كان إلهه هواه، وشهوته معبوده، ولا يحجزه

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم: (ص: ٤٣).

عقل لأن شهواته عطّلت عقله، وأهواؤه أغلقت منافذ تفكيره، قال تعالىٰ مبيّنا حال هؤلاء: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٥٠].

وهذا الصنف الأناني البهيمي حذّر القرآن منه فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤]

هذا الصنف البهيمي الأناني عابد هواه قد خرّب أجهزة المعرفة التي منحه الله إياها من الأسماع والأبصار والقلوب، وعاش حياة أدنىٰ مرتبة من حياة الأنعام وأضل سبيلًا.

وإنما كانت كذلك لأمرين:

أولها: أن الأنعام تؤدي مهمتها المنوطة بها في الوجود.

فما رأينا بقرة تمردت علىٰ أن تحلب، بل الأعجب أن البقرة تعرف مهمتها في الحياة، والدليل علىٰ ذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: «صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ، فَقَالَ: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ**» فَقَالَ

النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ، فَقَالَ: «**فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا، أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ،** - **وَمَا هُمَا ثَمَّ**...» (١) وما رأينا جملًا تمرد على أن يركب (٢) إنما وجدنا

(١) صحيح البخاري (٣٤٧١).

(٢) ولقد حدث هذا ذات مرة ومنع الجمل ظهره لأصحابه والقصة كما يلي: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُخْبِرُ بِهِ أَحَدًا وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ فِي حَاجَتِهِ هَدَفٌ، أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ، فَدَخَلَ يَوْمًا حَائِطًا مِنْ حِيطَانِ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ قَدِ أَتَاهُ فَجَرْجَرَ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ - قَالَ بَهْزٌ، وَعَفَّانُ: فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ - فَمَسَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرَاتَهُ وَذِفْرَاهُ، فَسَكَنَ، فَقَالَ: «**مَنْ صَاحِبُ الْجَمَلِ؟**» فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «**أَمَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَهَا اللهُ، إِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ**». مسند أحمد: (١٧٤٥).

قلت (محمد): ويا سبحان الله كان الجمل مظلومًا.

وفي حديث آخر: (عَنْ حَفْصٍ، عَنْ عَمِّهِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَ الْأَنْصَارِ لَهُمْ جَمَلٌ يَسْنُونَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْجَمَلَ اسْتُصْعِبَ عَلَيْهِمْ، فَمَنَعَهُمْ ظَهْرَهُ، وَإِنَّ الْأَنْصَارَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّهُ كَانَ لَنَا جَمَلٌ نَسْنَى عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ اسْتُصْعِبَ عَلَيْنَا، وَمَنَعَنَا ظَهْرَهُ، وَقَدْ عَطِشَ الزَّرْعُ وَالنَّخْلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**قُومُوا**» فَقَامُوا، فَدَخَلَ الْحَائِطَ وَالْجَمَلُ فِي نَاحِيَتِهِ، فَمَشَى النَّبِيُّ ﷺ نَحْوَهُ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ قَدْ صَارَ مِثْلَ الْكَلْبِ الْكَلِبِ، وَإِنَّا نَخَافُ عَلَيْكَ صَوْلَتَهُ، فَقَالَ: «**لَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ بَأْسٌ**». فَلَمَّا نَظَرَ الْجَمَلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقْبَلَ نَحْوَهُ، حَتَّى خَرَّ سَاجِدًا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِنَاصِيَتِهِ أَذَلَّ مَا كَانَتْ قَطُّ، حَتَّى أَدْخَلَهُ فِي الْعَمَلِ. فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، هَذِهِ بَهِيمَةٌ لَا تَعْقِلُ تَسْجُدُ لَكَ وَنَحْنُ نَعْقِلُ، فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ، فَقَالَ: «**لَا يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، وَلَوْ صَلَحَ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ مِنْ قَدَمِهِ إِلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ قُرْحَةٌ تَنْبَجِسُ بِالْقَيْحِ وَالصَّدِيدِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْهُ تَلْحَسُهُ مَا أَدَّتْ حَقَّهُ**». مسند أحمد: (١٢٦١٤). فالإبل =

الحيوانات تؤدي رسالتها في خدمة الإنسان.

الثاني: أن هذه الأنعام لم تؤت ما أوتي الإنسان من المواهب الفكرية والروحية، ولم يسخر لها ما في السموات وما في الأرض، ولم يبعث لها رسول، ولم ينزل عليها كتاب.

وإنما الذي أوتي هذا كله هو الإنسان، فإذا أَهمل هذه النعم، ولم يقم بشكرها، ونسي رسالته، وعاش لبطنه وفرجه وشهوته، كما تعيش الدواب كان – بلا ريب– أضلَّ منها سبيلًا.

ثانيًا: الصنف الأناني الشيطاني:

ومن الناس من لا هدف له في الحياة إلا إذلال الناس، والإضرار بهم، والكيد لهم، كأنَّ رسالته التي خلق لها هي الإفساد في أرض الله، والعدوان علىٰ خلق الله.

استحالت نعم الله في يديه إلىٰ سياط للإيذاء، وأسلحة للفتك، وآلات للتدمير.

هذا الصنف الأناني الشيطاني، يشبه الأناني الحيواني، فكل منهما يعيش لدنياه العاجلة ولأنانيته البشعة ولكن يفترقان في المزاج فقط.

فالأناني الحيواني اتجاهه شهواني، والأناني الشيطاني اتجاهه عدواني.

....

=

تعرف رسول الله وإذا قارنا حال الإبل مع كثير من الناس لوجدنا أن الإبل حالها أفضل من حال كثير من الناس.

فالأناني الشهواني فقد خصيصة الإنسان، واستحال إلىٰ حيوان، والأناني العدواني فقد خصيصة الإنسان، ولكنه استحال إلىٰ شيطان.

فالشيطان لا هم له إلا الإفساد والكيد والتضليل والإغواء. وهذا الصنف هو الذي لعنه الله وذمه في كتابه بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الرعد: ٢٥].

هذا الصنف الشيطاني مثل النمرود الذي ذكر الله لنا خبره مع الخليل إبراهيم فقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ومن هذا الصنف أيضًا فرعون الذي قتل الأطفال وشرّد الناس واستذل النساء قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

فهذا الصنف الشيطاني إذا تمكن من رقاب البشر يومًا، كان جبارًا مجرمًا، وإن لم يكن له سلطان نمرود ولا فرعون، كان طاغية صغيرًا، أو ذليلًا لطاغية كبير.

والقرآن قد حكم بالإثم والهلاك علىٰ فرعون ووزيره وجنوده جميعًا،

لأن الذي يخلق فرعون الكبير إنما هم أعوانه من الفراعنة الصغار.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٤٠ – ٤٢].

هذا الصنف الشيطاني قد يغطي باطنَهُ الذي خَبُثَ بظاهر مزخرف، ولسان يخدع الناس بمعسول القول، وحلو الكلام.

فإذا سبرت غوره، لم تجد وراء هذا الظاهر إلا باطنًا خرابًا، وضميرًا ميّتًا، ونفسًا متطاولة علىٰ الخلق، مستكبرة عن الحق، مقبلة علىٰ الشر، معرضة عن الخير.

كالذي وصفه القرآن فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤ – ٢٠٦].

ثالثًا: الصنف العابد الرباني:

وهذا الصنف لا يعبد نفسه، ولا يدور حول ذاته دوران الحمار في الرحا،

أو الثور في الساقية.

إنه يعبد الله وحده لا شريك له، ليس له غاية ولا وجهة إلا رب العـالمين، لا يريـد إلا وجهـه، ولا يبتغـي إلا مثوبتـه. لا يحـب ولا يـبغض إلا فيـه، ولا يعطي ولا يمنع إلا له.

أمـا الـدنيا، فهـي عنـده أداة لا هـدف، ووسـيلة لا غايـة، فهـو يملكهـا ولا تملكه، ويسخرها ولا تسخره، ويجعلها في يده، ولكن لا يملأ بها قلبـه، وهـذا الصنف هو الذي عاش لله وبالله.

هذا الصنف يطبق على نفسه قول الله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

إنه يفعل الخير للناس، ويسدي المعروف للضعفاء والمساكين، ولكنه لا يطلب منهم ثمنًا لمعروفه، لأنَّ غايته أن يرضى اللهُ عنه قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩)﴾ [الإنسان: ٨- ٩].

وهذا الصنف يكف يده عـن الشـر، ولسـانه عـن الأذى، ولا يقابـل السـيئة بالسـيئة، بـل يـدفع بـالتي هـي أحسـن، لا خشـية مـن أحـد بـل خشـية مـن الله سبحانه وتعالى.

ألم تر إلى ابن آدم المؤمن الخَيِّر، حين هـدَّده أخـوه بالقتـل، لـم يـرد عليـه

السوء بمثله، بل قال في أدب وكرم: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٨].

إنه يدعو إلىٰ الخير، ويأمر بالمعروف، وينهىٰ عن المنكر، ويُصلح بين الناس و..... وشعاره في ذلك ما ذكره الله تعالىٰ علىٰ ألسنة رسله، حين قال كل رسول لقومه: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

إنه يضع رأسه علىٰ كفه، ويقدم روحه فداء للحق، ويبذل النفس والمال ذيادًا عن القيم والحرمات.

ولا يريد بذلك إلا أن تكون كلمة الله هي العليا، وليوفي بالصفقة التي عقدها الله معه حين قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

والعجيب أن هذا الصنف الذي فني عن حظ نفسه من أجل حق ربه، والذي نسي ذاته وذكر الله وحده.

هذا الصنف هو الوحيد الذي يعمل في الحقيقة من أجل نفسه: من أجل نجاتها وسعادتها.

وهذا الصنف - عند التأمل – أوعىٰ الأصناف وأحرصها علىٰ سعادة نفسها ولكنه بنور بصيرته، وعمق تفكيره، لم يبع آجلًا بعاجل، ولا باقيًا بفان.

✍ **وقد قال أحد الحكماء**: لو كانت الدنيا ذهبًا يفنىٰ والآخرة خزفًا يبقىٰ، لوجب علىٰ العاقل أن يختار الخزف الباقي علىٰ الذهب الفاني. فكيف إذا كانت الدنيا هي الخزف الفاني، والآخرة هي الذهب الباقي!؟.

ولا شك أن أخسر الناس، وأظلمهم لنفسه، من حرمها سعادة الأبد، ونعيم الأبد، من أجل متعة عارضة، وشهوة زائلة.

وأربح الناس بضاعة من باع الفانية، واشترىٰ الجنة الباقية التي قال الله فيها: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣]

- وقال تعالىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]

- وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

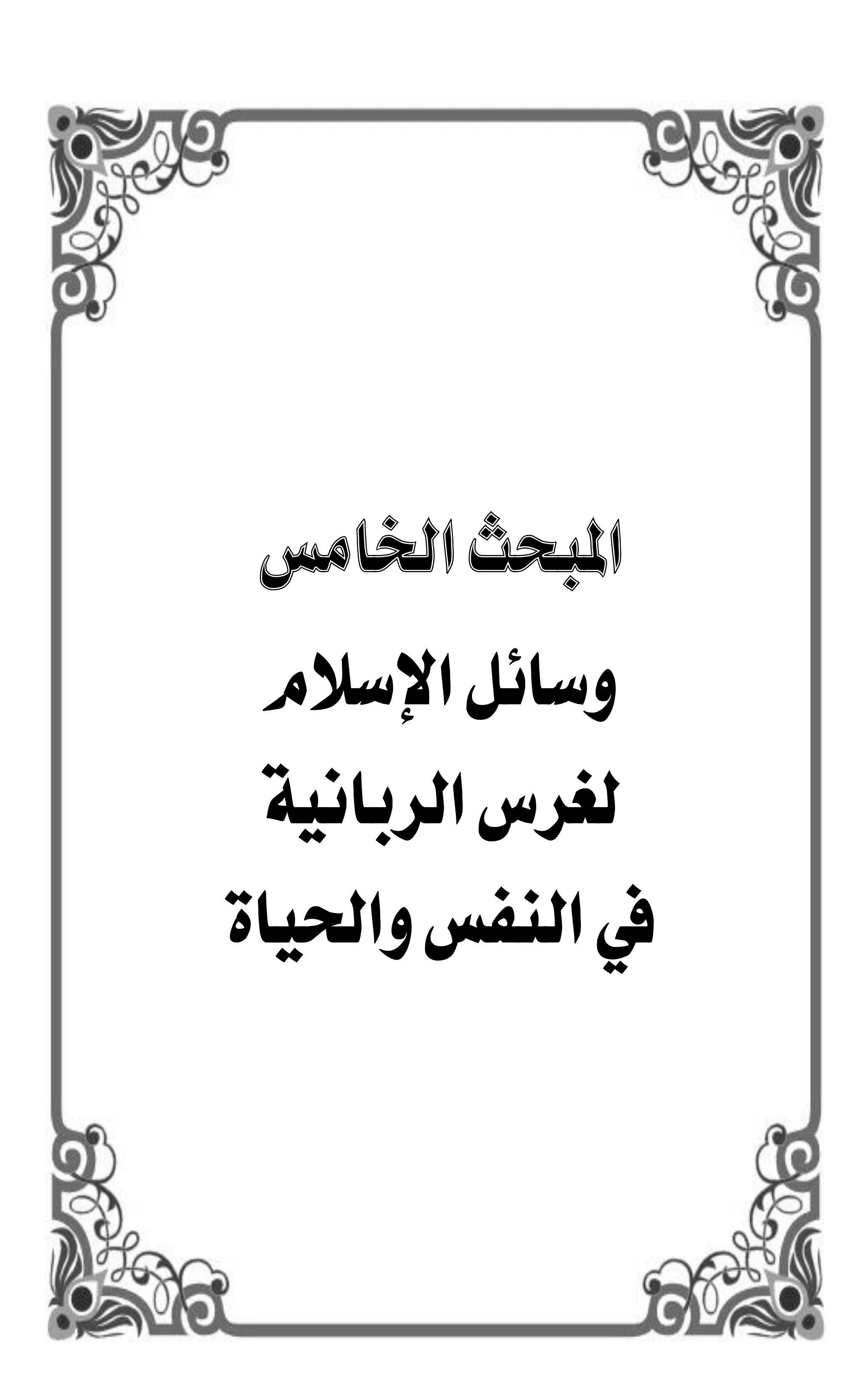
والواقع أن هذا الصنف لم يخسر دنياه حين آثر آخرته، فوجه لها إرادته، وسعىٰ لها سعيها وهو مؤمن.

لقد كسب الحياتين، وجمع الحسنتين: حسنة الدنيا، وحسنة الآخرة اللتين يحرص عليهما المؤمنون، ويسألونهما الله سبحانه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١].

إن الربانية قد تحرم الإنسان من بعض اللذائذ العاجلة، ولكنها تكون سببًا في متعته الدائمة في الجنة إن شاء الله.

إن تسمية كل من الصنفين الأولين بالإنسان تسمية مجازية، أما الصنف الثالث فهو وحده الإنسان.





المبحث الخامس

وسائل الإسلام لغرس الربانية في النفس والحياة

وسائل الإسلام لغرس الربانية في النفس والحياة

الإسلام يسعىٰ إلىٰ غرس هذه الربانية في نفس كل مسلم وفي حياته، بوسائل شتىٰ، وأساليب متنوعة.

أولاً: طريق العبادات:

عن طريق العبادات المفروضة لزومًا، والمندوبة استحبابًا وهذا له صور عديدة منها:

أ- من صلاة تتكرر كل يوم وليلة خمس مرات، هي للروح أشبه بالواجبات للجسم، تجعل المؤمن دائمًا علىٰ موعد مع الله تعالىٰ.

وعندما يقف المسلم بين يدي الله يسأل بلسان الجماعة كلها فيقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ [الفاتحة: ٦] وهو بهذا الدعاء يترقىٰ من المادية إلىٰ الروحية، ومن الأنانية إلىٰ الغيرية.

ب- ومن صيام يتكرر شهرًا في كل عام، يحرم المسلم فيه نفسه من شهوات الطعام والشراب والجنس، كل يوم من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس، تربية للإرادة، وتدريبًا علىٰ التقوىٰ، وعلىٰ كمال العبودية لله سبحانه وتعالىٰ. ويؤكد هذا المعنىٰ الحديث القدسيُّ: «**الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَأَكْلَهُ وَشُرْبَهُ مِنْ أَجْلِي، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ حِينَ**

يُفْطِرُ، وَفَرْحَةٌ حِينَ يَلْقَىٰ رَبَّهُ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ».(١)

ج- ومن زكاة يغالب بإخراجها شحَّ نفسه، ويزكِّي بها ماله وروحه، ويشكر بها نعمة ربه عليه، وفي هذا يقول القرآن: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، ولهذا سميت زكاة لما تُوحي به هذه الكلمة من معاني الطهارة والنماء والبركة، علىٰ عكس كلمة (الضريبة) التي توحي بمعنىٰ القهر والإجبار والغرامة.

د- ومن حج، يفارق فيه المسلم وطنه ومسقط رأسه، ويدع أهله مهاجرًا إلىٰ الله، باذلًا من نفسه وماله، ومحتملًا المكاره والمشقة في ذات الله، حتىٰ يصل إلىٰ الأرض المقدسة، حيث أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض، وحيث ذكريات إبراهيم وإسماعيل، وهاجر عليهم السلام من قبل، وذكريات محمد ﷺ ودعوته من بعد.

وفي الحج يتجرد المسلم من ثيابه المعتادة، بما تحمله من مظاهر التفاوت والطبقية والعنصرية والإقليمية ليلبس ثيابًا أشبه بأكفان الموتىٰ، مستعليًا علىٰ المادّية ومظاهرها، متجهًا إلىٰ الله بقلبه ولسانه، شعاره ونشيده: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ»(٢).

---

(١) صحيح البخاري: (٧٤٩٢).

(٢) صحيح البخاري: (١٥٤٩).

وفوق هذه الفرائض الأساسية الحتمية، التي هي الحد الأدنىٰ لتكييف علاقة المسلم بالله يفتح الإسلام باب التطوع بالخيرات، والتقرب إلىٰ الله بالنوافل واالمستحبات، من صلوات بعد الخمس المكتوبة، ومن صيام بعد رمضان المفروض، ومن صدقات بعد الزكاة الواجبة، ومن حج وعمرة بعد حجة الفريضة، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]

وليس المقصود بهذه العبادات فرضها ونفلها: أن تصل المسلم بخالقه لحظات أدائها فقط ثم ينفرط عقده بعد ذلك، ويخلد إلىٰ الأرض، ويتبع هواه.

كلا، فإنَّ مهمة هذه العبادات أن تغرس في ضمير مؤديها روح التقوىٰ لله جل شأنه، وأن تمنحه شحنة روحية تذكره بالله كلما نسي، وتقوي عزمه كلما ضعف، وتنير طريقه كلما انطفأت حوله المصابيح.

الإسلام لا يرضىٰ أن يكون المسلم ربانيًا في وقت صلاته فقط، أو في وقت صومه فقط، إنما يطلب الإسلام أن يكون المسلم ربانيًا في كل لحظة من لحظاته، وفي كل حركة من حركاته، وفي كل مكان من أماكنه، ولهذا يوصي الرسول ﷺ فيقول: «**اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**».(١) ويقول القرآن: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥] ويقول

(١) سنن الترمذي: (٤/ ٣٥٥)، صحيح الجامع: (٩٧).

الرسول ﷺ: «أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»(١).

ثانيًا: طريق الآداب:

الطريق الثاني لغرس الربانية في ضمير المسلم وفي حياته، هو طريق الآداب اليومية التي تتخلل حياة المسلم: من الأكل والشرب، واللبس والتزين، والنوم واليقظة، والركوب والسفر، والجلوس والمشي، إلىٰ غير ذلك من الأحوال الفردية والاجتماعية.

فالإسلام ينتهز فرصة هذه الأمور التي لا تخلو منها حياة الإنسان، ليربط المسلم عن طريقها بالله تعالىٰ.

وهذا يظهر في الأدعية المخصصة لكل عمل يقوم به الإنسان، وبهذا لا يغفل عن ربه، ولا ينسىٰ صلته به سبحانه، وبناءً علىٰ ذلك تدور معاني الربانية مع المسلم حيثما دار، وتسير معه أينما سار.

ثالثًا: التربية والتكوين:

الطريق الثالث لغرس الربانية وتثبيتها، ولعلها أعظم الوسائل خطرًا، وأبعدها أثرًا، وهي التربية.

والمكان الأول الذي تكون فيه التربية هو البيت: فالأب مسؤول عن تغذية الولد روحيًا، كما أنه مسؤول عنه بدنيًا، ومن هنا كانت المسؤولية خطيرة قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ

---

(١) صحيح البخاري: (٦٤٦٤).

وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦]

* وقال الرسول ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، قَالَ: فَسَمِعْتُ هَؤُلَاءِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَحْسِبُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**».(١)

والحديث يؤكد علىٰ أنَّ الأمَّ شريك الأب في المسؤولية، فهي راعية في بيتها، ومسؤولة عن رعيتها.

ولعل مخالطتها للصغار وبخاصة البنات، وتأثيرها فيهم يكون أقوىٰ من الأب في كثير من الأحيان.

والمكان الثاني الذي تكون فيه التربية هو المدرسة: فلا يكفي المدرسة أبدًا أن تزود التلميذ بالخبرات والمهارات، المادية والفنية، أو بالحقائق والمعلومات عن البيئة والحياة من حوله.

ثم تدعه ضالًّا جاهلًا بقضايا الوجود الكبرىٰ، التي تحيره، وتلقي عليه أسئلة لا يجد لها جوابًا من أين جاء؟ ومن جاء به؟ وإلىٰ أين يذهب بعد رحلة الحياة؟......إلخ

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٠٩).

إن الإيمان بالله هو الذي يجيب عن هذه الأسئلة بما يقنع العقول، ويريح الضمائر، ويشرح الصدور، أعني إيمان الإسلام خاصة، لأنه هو الذي خلا من أغاليط البشر، وأوهام البشر، وشطحات البشر، وتناقضات البشر.

والمدرسة التي لا تغرس الإيمان في النفس، لا تخرج إلا أجيالًا حائرة متناقضة، تركب سفينة الحياة بلا ربان ولا بوصلة، لا تهتدي إلىٰ شاطئ.

إن التربية والتعليم من مهمة النبوة، وقد كان مما امتن الله به علىٰ العرب أن بعث فيهم رسولًا من أنفسهم قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]

* وتحدث الرسول ﷺ عن نفسه فقال: «..... **إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**»(١).

* وقال ﷺ في فضل المعلمين: «**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّىٰ النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّىٰ الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَىٰ مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ**».(٢)

وأعظم خير يعلم للناس، أن يعرفوا ربهم، فيعرفوا بذلك مبدأهم ومصيرهم وسر وجودهم.

---

(١) صحيح مسلم (١٤٧٨).
(٢) سنن الترمذي: (٢٦٨٥).

ومعنىٰ ذلك: أن يعرفوا أنفسهم علىٰ حقيقتها، فمن عرف ربه فقد عرف نفسه. كما أن من عرف نفسه – كما هي – فقد عرف ربه.

رابعًا: طريق الإعلام والتوجيه والتثقيف الشعبي العام:

يجب أن ترعىٰ جميع المؤسسات في بلاد الإسلام الربانية، وتؤكدها.

المساجد، والإذاعة، والصحافة، والكتب بكل أنواعها وموضوعاتها....

فلا يجوز في نظر الإسلام أن يترك للمساجد وحدها تأكيد الربانية، في حين تعمل المؤسسات التوجيهية والإعلامية والتثقيفية الأخرىٰ علىٰ إشاعة معان أخرىٰ تناقض الربانية، أو تشكك فيها، أو تنتقصها من أطرافها.

وكيف يؤدي المسجد رسالته إذا كانت الأجهزة الأخرىٰ وهي تصابح الناس، وتماسيهم بإمكاناتها الرهيبة، تخفض ما يعليه، وتهدم ما يبنيه؟

والإسلام يأمر بهدم كل مؤسسة لا تقوم علىٰ تقوىٰ من الله ورضوان، ولو اتخذت صورة المسجد الذي تؤدىٰ فيه الصلاة ظاهرًا، كما أمر الله رسوله ﷺ بهدم مسجد الضرار الذي اتخذه المنافقون ضرارًا، وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٧ – ١٠٨].

خامسًا: طريق التشريع:

ودور التشريع يأتي في حياطة الربانية، وتقويتها، وحمايتها من كل أذىٰ أو عدوان عليها، أو انتقاص منها.

ولهذا يرفض المجتمع المسلم الإلحاد والإباحية، ويعاقب علىٰ الردة والفسوق أعني علىٰ الجهر بهما.

فأما من استخفىٰ بكفره أو بفسقه، فحسابه علىٰ الله، لأن المستخفي لا يضر إلا نفسه.

أما المجاهر فيضر المجتمع كله، عن طريق العدوىٰ، أو تطاير الشر.

وخلاصة ما يقال: إنَّ الحريةَ في الإسلام لا تعني حرية الكفر والتطاول علىٰ الله ورسله، فحرية الفرد يجب أن تكون في حدود أنه عبد لله لا يتجاوز التشريعات الربانية، كما أن حرية الفرد مقيدة بألا تمس نظام المجتمع، وأسسه العقائدية والاجتماعية.





الفصل الثاني

ربانية المصدر و المنهج

بين يدي
ربانية المصدر والمنهج

ذكرنا ما يتعلق بالمعنىٰ الأول للربانية، وهو ربانية الغاية والوجهة، وبقي المعنىٰ الآخر، وهو ربانية المصدر والمنهج.

ونعني به أن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلىٰ غاياته وأهدافه، منهج رباني خالص، لأن مصدره وحي الله تعالىٰ إلىٰ خاتم رسله محمد ﷺ.

لم يأت هذا المنهج نتيجة لإرادة فرد، أو إرادة أسرة، أو إرادة طبقة، أو إرادة حزب، أو إرادة شعب، وإنما جاء نتيجة لإرادة الله، الذي أراد به الهدىٰ والنور، والبيان والبشرىٰ، والشفاء والرحمة لعباده.

- كما قال تعالىٰ يخاطبهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس: ٥٧].

- وقال يخاطب رسوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً

وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل: ٨٩]

- وقال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم: ١].





المبحث الأول

الإسلام منهج رباني خالص

الإسلام منهج رباني خالص

الإسلام منهج رباني خالص، وهذا لما يأتي:

أولاً: عقيدة ربانية:

عقائد الإسلام ربانية لأنها مستفادة من كلام الله الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٢].

ليست هذه العقائد من وضع مجمع من المجامع ولا من إملاء (بابا) من الباباوات.

ليس لأحد من تلاميذ محمد ﷺ، ولا من أئمة الإسلام وفقهائه الكبار، أن يغير ويبدل في عقيدة الإسلام بالزيادة أو النقص أو التحوير، كما فعل سانت بولس في العقيدة النصرانية، حتىٰ إن بعض الكتاب الغربيين المُحْدَثِين ليسمُّون المسيحية الحاضرة (مسيحية بولس) وليست مسيحية عيسىٰ ابن مريم.

وليس لمؤتمر، ولا لمجمع، ولا لجماعة أيا كانت مكانتها أن تضيف شيئًا إلىٰ العقيدة الإسلامية، أو تحذف منها شيئًا.

علىٰ غرار ما فعلت المجامع المسيحية، ابتداءً من مجمع نيقية الشهير سنة ٣٢٥م فما بعده من مجامع بعضها قرر ألوهية المسيح، وبعضها قرر

موقع الروح القدس من الشركة الثلاثية المعروفة: الأب والابن والروح القدس، وبعضها أعطىٰ البابا سلطة إصدار قرارات الحرمان، وصكوك الغفران، وبعضها، وبعضها.

أما العقيدة الإسلامية فلا تتلقىٰ إلا من الوحي الإلهي.

إن العقيدة إنما هي قضايا صادقة أو هي حقائق عن الوجود ورب الوجود كأسماء الله وصفاته، وعن عالم الغيب، وعن مستقبل حياة الإنسان، وعن الجزاء والعقاب وأنواعهما.....الخ، وهذه يخبر بها من يحيط بها علمًا وهو الله تعالىٰ، فليس لأحد من الناس أن يحاول الإحداث فيها من عند نفسه، ولو دخل أحدٌ في علم الغيبيات وتكلّم كان قولًا بغير علم، وغير برهان.

وفي هذا يقول القرآن منكرًا علىٰ المشركين معتقداتهم في الملائكة وغيرها: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

ويقول سبحانه: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف: ٥١]. ويقول سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [طه: ١١٠].

ولو أن بعض الناس حاول أن يحدث فيها شيئًا من عند نفسه، لكانت محاولته مردودة عليه بأمر صاحب الرسالة نفسه ﷺ الذي قال: «**مَنْ أَحْدَثَ**

فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ».(١) أي باطل مردود عليه، ويقول تعالىٰ: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ ﴾ [الأعراف: ٣].

- **ولأن هذه العقيدة من عند اللهِ** ولم تتغيرْ ولم تتبدلْ، فإن هذا يطمئنُ النفسَ أنها خيرٌ لأنفسنا، وأنَّ السعادةَ تكمنُ في تنفيذها، وأنَّ الشقاءَ يترتبُ علىٰ تركها:

١- فالخيرُ والبركةُ والسعادةُ ووفرةُ الإنتاج كلُّها من بركاتِ تطبيقِ المنهج المبني علىٰ هذه العقيدة: قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ تِلْكَ القُرَىٰ آمَنُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ النَّبِيُّونَ، وَصَدَّقُوهُمْ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الذِي جَاؤُوهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، وَاتَّقَوْا بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَتَرْكِ المُحَرَّمَاتِ، لأَمْطَرَتِ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ بِإِذْنِ رَبِّهَا، وَلَفَاضَتِ الأَرْضُ بِالخَيْرَاتِ، وَلكِنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ، فَعَاقَبَهُمُ اللهُ عَلَىٰ ذَلِكَ، بِإِهْلَاكِهِمْ عَلَىٰ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ المَآثِمِ وَالمَحَارِمِ.

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦ ﴾ [المائدة: ٦٦].

(١) صحيح البخاري: (٢٦٩٧).

وَلَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِمَا فِي الكِتَابِ الذِي أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ، كَمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، دُونَ تَحْرِيفٍ وَلا تَبْدِيلٍ، لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلىٰ اتِّبَاعِ الحَقِّ، وَالعَمَلِ بِمُقْتَضَىٰ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ، لأنَّ كُلًّا مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ بَشَّرَ بِنَبِيٍّ يَكُونُ مِنْ أَوْلَادِ إِسْمَاعِيلَ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا الحَقَّ، وَآمَنُوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ الذِي بَشَّرَ بِهِ كِتَابُهُمْ، لَوَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِمْ رِزْقَهُم، وَلأَغْدَقتِ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مَطَرَها وَبَرَكَاتِهَا، وَلأَخْرَجَتْ لَهُمْ خَيْرَاتِهَا. وَلَكِنَّ قِلَّةً مِنْهُمْ مُؤْمِنَةٌ مُلْتَزِمَةٌ بِأَحْكَامِ مَا شَرَعَ اللهُ لَهُمْ، وَأَكْثَرُهُمْ طُغَاةٌ مُجَاوِزُونَ لأَوَامِرِ اللهِ، وَسَاءَ عَمَلُهُمْ.

إن هاتين الآيتين تقرران أصلًا كبيرًا، ومن ثم فهما تمثلان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية، ولعل الحاجة إلىٰ جلاء ذلك الأصل، وإلىٰ بيان هذه الحقيقة لم تكن ماسة كما هي اليوم والعقل البشري، والموازين البشرية، والأوضاع البشرية تتأرجح وتضطرب وتتوه بين ضباب التصورات وضلال المناهج، بإزاء هذا الأمر الخطير..

إن الله – سبحانه – يقول لأهل الكتاب – ويصدق القول وينطبق علىٰ كل أهل كتاب – إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم – وهذا جزاء الآخرة، وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل وما أنزله الله إليهم من التعاليم – كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل – لصلحت حياتهم الدنيا، ونمت وفاضت عليهم الأرزاق، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق، ووفرة النتاج وحسن التوزيع، وصلاح أمر الحياة.. ولكنهم لا يؤمنون ولا

يتقون ولا يقيمون منهج الله - إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

٢- وما دامتْ ربانيةٌ من الله ﷻ فإنها مبرأةٌ من النقصِ، سالمةٌ من العيب، بعيدةٌ عن الحيفِ والظلم، لأنَّ اللهَ له المثل الأعلىٰ في السماوات والأرض: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

٣- وما دامتْ ربَّانيَّةً فهي تشبعُ جَوعةَ الفطرةِ للعبادةِ التي لا يسدُّها إلا منهاجُ الله، ولا تملأُها النظمُ الفلسفيةُ، ولا السلطانُ السياسيُّ، ولا الثراءُ الماليُّ: قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠]

هذا التوجيه لإقامة الوجه للدين القيم يجيء في موعده، وفي موضعه، بعد تلك الجولات في ضمير الكون ومشاهده، وفي أغوار النفس وفطرتها..

يجيء في أوانه وقد تهيأت القلوب المستقيمة الفطرة لاستقباله كما أن القلوب المنحرفة قد فقدت كل حجة لها وكل دليل، ووقفت مجردة من كل عدة لها وكل سلاح.

وهذا هو السلطان القوي الذي يصدع به القرآن، السلطان الذي لا تقف له القلوب ولا تملك رده النفوس.

٤ - ومادامتْ ربانيةً فالناسُ أمامها سواءٌ، لا فضلَ لعربيٍّ علىٰ عجميٍّ إلا بالتقوىٰ، فاللهُ خالقُ الناسِ أجمعينَ فكلُّهم عبيدُه، وهو لا يفضِّلُ لونًا علىٰ لونٍ، الأبيضَ علىٰ الأسود -كما هو الحالُ في القانونِ الأمريكيِّ: قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]

يا أيها الناس، يا أيها المختلفون أجناسًا وألوانًا، المتفرقون شعوبًا وقبائل. إنكم من أصل واحد. فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بددًا.

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عَيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْفَخْرَ بِالْآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ، لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ فَخْرِهِمْ بِآبَائِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَىٰ اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ النَّتَنَ بِأَنْفِهَا**». (١)

* وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، يَقُولُ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمَّعَهَا اللهُ رَسُولَهُ ﷺ قَالَ: «**مَا هَذَا؟**» فَقَالُوا كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ،

(١) الآداب للبيهقي: (ص: ١٣٩).

وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**» قَالَ جَابِرٌ: وَكَانَتِ الأَنْصَارُ حِينَ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَ، ثُمَّ كَثُرَ المُهَاجِرُونَ بَعْدُ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ: أَوَقَدْ فَعَلُوا، وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَىٰ المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**». (١)

* وعَنْ أَبِي نَضْرَةَ، حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَىٰ عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَىٰ أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَىٰ أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ أَبَلَّغْتُ**»، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟**»، قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟**»، قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟**»، قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: «**فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ**». قَالَ: وَلَا أَدْرِي قَالَ: أَوْ أَعْرَاضَكُمْ، أَمْ لَا - كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَلَّغْتُ»، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**». (٢)

ثانيًا: عبادات ربانية:

والعبادات الإسلامية أيضا عبادات ربانية، فالوحي الإلهي هو الذي

---

(١) صحيح البخاري: (٤٩٠٧).

(٢) مسند أحمد: (٢٣٤٨٩)، والسلسلة الصحيحة: (٢٧٠٠).

رسم صورها وحدَّدَ أشكالها وأركانها وشروطها وعيَّن زمانها ومكانها ولم يقبل من أحد مهما كان مجتهدا في الدين أن يبتكر صورًا وهيئاتٍ من عنده للتقرب إلىٰ الله تعالىٰ.

فقد جاء الإسلام في مجال العبادة بأصلين كبيرين لا يتساهل فيهما أبدًا:

الأول: ألا يعبد إلا الله، فلا عبادة لأحد سواه، وهذا ما تقتضيه ربانية الغاية و الوجهة.

الثاني: ألا يعبد الله إلا بما شرع، وما شرعه إنما يعرف بواسطة رسله المبلغين.

أما محدثات العصور ومبتدعات العقول لا مكان لها في دين الله.

ومن المعلوم أن الله سبحانه وتعالىٰ جعل النجاة في كلمة مكونة من شقين: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ولا ينجو إنسان إلا إذا حقق هاتين الكلمتين.

فالأولىٰ: تشمل توحيد الله سبحانه وتعالىٰ، وهو توحيد المعبود.

والثانية: توحيد الطريق الموصلة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

لا إله إلا الله يعني: لا يستحق أن يعبد إلا الله سبحانه وتعالىٰ وحده، لا إله حق إلا الله.

فإذا قال إنسان: أنا أريد أن أعبد الله وحده، لكن كيف أعبده؟

كيف أعرف الذي يرضيه والذي يسخطه حتىٰ أتجنبه؟

فلا ينبغي أن ننظر فقط إلىٰ قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، بل وننظر إلىٰ آيات أخرىٰ كقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤]، وغير ذلك من الآيات التي تُحَتِّم علىٰ المسلم ألا يعبد إلا الله من خلال ما شرع، ولا يعبده بالبدع.

فهذان التوحيدان لا نجاة إلا بهما: توحيد المعبود، وتوحيد المتبوع ﷺ، توحيد الطريق الموصلة إلىٰ الله، فمنذ أن بعث رسول الله ﷺ سدت جميع الطرق المؤدية إلىٰ الجنة إلا طريقًا واحدًا علىٰ رأسه رسول الله محمد ﷺ.

وقد أفتىٰ العلماء بكفر من زعم أن هناك طريقًا إلىٰ الجنة مخالفًا لطريق رسول الله ﷺ بعد بعثته الشريفة، فمن ادعىٰ أن هناك طريقًا إلىٰ النجاة وإلىٰ الجنة يخالف طريق النبي عليه الصلاة والسلام فإنه قد خرج من ملة الإسلام، وكما يقدح الشرك في توحيد العبادة، كذلك يقدح الابتداع في توحيد الاتباع، وكما ينافي التوحيد أعمال الشرك - وهي عبادة غير الله أو صرف شيء من العبادة لغير الله - كذلك ينافي ويضاد شهادة أن محمدًا رسول الله الأخذ بالبدع وتقديمها علىٰ السنن.

✍ وخلاصة القول: إن العمل المقبول له ركنان:

١- أن يكون خالصًا لوجه الله.

٢- أن يكون علىٰ سنة رسول الله. (١)

وبهذا سد الإسلام بابًا من أوسع الأبواب في الغلو والتحريف والتنطع ولم يعط للمبتدعات في العبادة حق البقاء.

ثالثًا: آداب ربانية:

فالآداب والأخلاق الإسلامية آداب ربانية، فالوحي هو الذي وضع أصولها وحدد أساسياتها، فنجد القرآن ذاته يعني برسم المعالم الرئيسية لآداب المسلم من إحسان للوالدين ورعاية اليتيم وابن السبيل والفقراء والمساكين، والإخلاص في العمل، وغض البصر وحفظ الفرج......الخ.

حتىٰ إننا نجد القرآن يُعلم المسلمين آداب المشي إذا مشوا قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣].

والقرآن يُعلّم المسلمين آداب التزاور إذا تزاوروا قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ

---

(١) ومن العلماء من قال إن شروط العمل المقبول عند الله خمسة وهذه الشروط متضمنة في هذه الآية الكريمة قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٩]. وليس المجال مجال بسطها، ولعل الله أن يبسط فتبسط في موضع آخر.

ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النور: ٢٧- ٢٨].

ويُعلّم القرآن المسلمين آداب الجلوس إذا تجالسوا قال تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١]، فضلا عما زخرت به السنة من آداب تتعلق بالأكل والشرب واللباس والنوم واليقظة والدخول والخروج......الخ.

إذا فالمصدر الأساسي للإلزام الخلقي في الإسلام هو الوحي الإلهي فالخير ما أمر الله به والشر ما نهىٰ الله عنه.

فالأخلاق الإسلامية لم تأتِ مخالفة للعقل، بل جاءت ملائمة للفطرة السليمة موافقة للعقل الرشيد، ولذلك نجد الأخلاق في الإسلام لا تعتمد علىٰ الأمر الصارم بل تعتمد علىٰ مخاطبة العقول، واستثارة الضمائر، في أخلاق مفهومة معللة بالحكم، والمصالح المترتبة عليه في الدنيا والآخرة، من مثل قوله تعالىٰ في وصية لقمان لابنه: [﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان: ١٧ - ١٩].

- ومثل ذلك في سورة الإسراء قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٩].

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧]، في هذا كله نجد القرآن يخاطب العقل والمنطق.

رابعًا: تشريعات ربانية:

أي أن أساس التشريع ومبادئه من الوحي الإلهي وهي المزية الأولىٰ للتشريع علىٰ ما سواه من التشريعات قديمها وحديثها، فهو التشريع الوحيد في العالم الذي أساسه وحي الله وكلماته المعصومة من الخطأ، المنزهة عن الظلم: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وبذلك تقرَّر أن المشرِّع الوحيد في أصول الإسلام هو الله تعالىٰ فهو الذي يأمر وينهىٰ، ويحلل ويحرم، ويكلف ويلزم، بمقتضىٰ ربوبيته وألوهيته وملكه لخلقه جميعًا، فهو رب الناس، ملك الناس، إله الناس.

له الخلق والأمر، وله المِلْكُ والمُلْكُ، وله الحمد في الأولىٰ والآخرة، وله الحكم، وإليه يرجعون.

وليس لأحد غيره حق التشريع المطلق، إلا ما أذن الله فيه مما ليس فيه

نص ملزم، فهو في الحقيقة مجتهد أو مستنبط أو مقنن، وليس مشرِّعًا، حتىٰ الرسول نفسه ليس مشرعًا، وإنما وجبت طاعته، لأنه مبلغ عن الله. (١) فأمره من أمر الله: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

ولقد دمغ القرآن بالشرك الذين أعطوا سلطة التشريع المطلق لبعض البشر من رجال الدِّين الذين بدّلوا كلمات الله وغيّروا شرع الله فأحلوا ما حرّم الله، وحرّموا ما أحل الله افتراءً علىٰ الله، وفي هذا يقول القرآن في شأن أهل الكتاب: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]

اعتبر القرآن هؤلاء الأحبار، والرهبان أربابًا، أو آلهة معبودين من دون الله، وما كانت عبادتهم إلا طاعتهم في إحلال ما حرّم الله، وتحريم ما أحل الله، أي: إعطاءهم حق التشريع فيما لم يأذن به الله تعالىٰ.

* كما فسر ذلك النبي ﷺ لعدي بن حاتم الطائي، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: «**يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ**»، فَطَرَحْتُهُ فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةَ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] حَتَّىٰ فَرَغَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، فَقَالَ: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟**» قُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَ: «**فَتِلْكَ**

(١) سيأتي تفصيل ذلك بأمر الله تعالىٰ عند بيان مكانة الرسول ﷺ في المنهج.

عِبَادَتُهُمْ». (١)

ولهذا نجد القرآن يعقب علىٰ كثير من الأحكام والتشريعات ويلفت الأنظار إلىٰ ربانية مصدرها ومن هذه التعقيبات:

- قوله تعالىٰ في ختام آية قسم الصدقات من سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٦٠].

- وفي ختام آية قسمة المواريث الأولىٰ في سورة النساء: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾ [النساء: ١١].

- وفي ختام آية المواريث الثانية: ﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ ...﴾ [النساء: ١٢- ١٣].

- وفي آخر آية في سورة النساء، وهي متعلقة بالميراث أيضًا يختمها بقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [النساء: ١٧٦].

- وفي سورة الطلاق يعقب علىٰ أحكام الآية الأولىٰ بقوله: ﴿وَتِلۡكَ

---

(١) الترمذي: (٣٠٩٥)، والمعجم الكبير للطبراني: (١٧/ ٩٢)، والسلسلة الصحيحة: (٣٢٩٣).

حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ [الطلاق: ١].

- وبعد ثلاث آيات يذكر فيها بعض الأحكام ثم يقول: ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْۚ ﴾ [الطلاق: ٥].

- وبعد أحكام النساء، والمؤمنات المهاجرات في سورة الممتحنة يعقب فيقول: ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وهذه التعقيبات وغيرها من التعقيبات التي تأتي خلف كل حكم أو تشريع شرعه الله ﷻ تنبه وتؤكد علىٰ الأصل الذي استمدت منه هذه التشريعات، فهي ربانية سماوية، تصدر ممن لا رادَّ لأمره ولا معقِّب لحكمه قال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ ﴾ [الرعد: ٤١].





المبحث الثاني

من خصوصيات المنهج الرباني

- تكلمنا في ما سبق عن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلىٰ غاياته وأهدافه، وقلنا إنه منهج رباني خالص، لأن مصدره وحي الله تعالىٰ إلىٰ خاتم رسله محمد ﷺ.

- وبما أنَّ المنهج رباني خالص فإنَّ له خصوصياتٍ وسماتٍ(١) عن ما عداه من مناهج، وسأذكر جانبًا منها في ما يلىٰ من صفحات بأمر الله تعالىٰ وتوفيقه.



(١) من العلماء من جعل الخصوصيات التي سأذكرها هنا صفات للعبد الرباني، فيقولون مثلًا: من خصائص الرباني أن منهجه يتَّسم باليُسر والسَعَة، ويقولون أيضًا: من خصائص الرباني التوازن والاعتدال: (الوسطية)، ويقولون أيضًا: من خصائص الرباني أن منهجه مُمتدٌ وشامل.

قلت: (محمد): ولا مانع من ذلك لأن الرباني إذا استقام والتزم بالمنهج الرباني، كان المنهج صبغة له قال تعالىٰ: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ ﴾ [البقرة: ١٣٨]، وخير مثال هو رسولنا ﷺ عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَام، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ» مسند أحمد: (٤٢/ ١٨٣).

أولاً: الشمول

- الشمول من الخصائص التي تميز بها المنهج الرباني عن كل ما عرفه الناس من الأديان والفلسفات والمذاهب، إنه شمول يستوعب الزمن كله، ويستوعب الحياة كلها، ويستوعب كيان الإنسان كله.

رسالة الزمن كله:

إنها رسالة لكل الأزمنة والأجيال، ليست رسالة موقوته بعصر معين ينتهي أثرها بانتهائه كما كان الشأن في رسالات الأنبياء السابقين علىٰ رسول الله ﷺ، أما رسول الله ﷺ فهو خاتم النبيين، ورسالته هي رسالة الخلود التي قدر الله بقاءها إلىٰ أن تقوم الساعة، فليس بعد الإسلام شريعة، ولا بعد القرآن كتاب، ولا بعد محمد ﷺ نبي، هذا ولقد جاءت الكتب السماوية تبشر بمن يأتي بعدها فالتوراة تبشر بمن يأتي بعد موسىٰ، وبشَّر الإنجيل بمن يأتي بعد المسيح عيسىٰ وهو (الفارقليط) (١) الذي سيبين كل الحق

(١) ووردت هذه الكلمة في إنجيل يوحنا ١٤/ ١٦، ١٥/ ٢٦، ١٦/ ٧، وقد استبدلت كلمة: «الفارقليط» في النسخ الحديثة للأناجيل بكلمة: «المعزىٰ». وقد ذكر قاموس الكتاب ص ٦٢٦: بأن كلمة: «المعزىٰ» هو الروح القدس، ولم ترد إلاّ في إنجيل يوحنا، وبأن الكلمة الأصلية اليونانية: «براكليتيس» وتعني: «معز، ومعين، وشفيع، ومحام». اهـ. انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (١/ ٣٢١).
وقال يوحنا الإنجيلي: قال يسوع المسيح في الفصل الخامس عشر / =

ولا يتكلم من عند نفسه أي سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

فالأنبياء جميعًا جاؤوا بالإسلام ونادوا بالتوحيد واجتناب الطاغوت، وهذا ما يقرره القرآن في وضوح وتأكيد، فكل الأنبياء أعلنوا أنهم مسلمون ودعوا إلىٰ الإسلام **وتوضيح ذلك كما يلي:**

* **جاء به نوح** عليه السلام: قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ

=

(٢/ ١٢٥/ ب) من إنجيله: «إن الفارقليط روح الحقّ الذي يرسله أبي هو يعلمكم كلّ شيء».

وورد النّصّ في إنجيل١٤/ ٢٦،كالآتي: «وأما المعزىٰ الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كلّ شيء ويذكركم بكلّ ما قلته لكم». وقد وردت بشارات الأناجيل المصرحة بلفظ (الفارقليط) في المراجع الآتية: الدين والدولة ص١٨٥،١٧٤، أعلام النبوة ص٢١١-٢١٣، الجواب الصّحيح ٤/ ٦-٨، هداية الحيارىٰ ص ١١٧-١٣٤، تحفة الأريب ص ٢٦٧-٢٧٠، الإعلام بمناقب ص ٢٠٣، للعامري، الإعلام ص ٢٦٨-٢٧٠، للقرطبي، النصيحة الإيمانية ص ٣١٩-٣٢٠، مقامع هامات ص ٥٥٠، محمّد ﷺ ص ٢١٩، ٢٢٩، عبد الأحد داود، محمّد ﷺ ص ٧٢، إبراهيم خليل، الرسالة السبعية بإبطال الديانة اليهودية ص ٤٠، للمهتدي إلىٰ الإسلام الحبر إسرائيل ابن القطان شموئيل الأورشليمي، الفصل في الملل والنحل١/ ١٩٥،الأجوبة الفاخرة ص١٦٨،١٦٥، السيرة النبوية١/ ٢٩٥، لابن هشام. انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (٢/ ٧٠١).

﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس: ٧١- ٧٢].

* **وجاء به إبراهيم** عليه السلام: قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٣٢].

* **وجاء به يعقوب** عليه السلام: قال تعالىٰ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

* **وجاء به لوط** عليه السلام: قال تعالىٰ: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣١ - ٣٦].

* **وجاء به يوسف** عليه السلام: قال تعالىٰ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي

مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

* **وجاء به موسى** عليه السلام: قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [يونس: ٨٤].

* **وهو دين قوم موسى من بني إسرائيل**: قال تعالى: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠].

* **وهو دين السحرة الذين آمنوا بموسى**: قال تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٠ - ١٢٦].

* **وهو دين أنبياء بني إسرائيل**: قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾ [المائدة: ٤٤].

* **وهو دين سليمان** عليه السلام: قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النمل: ٣٠- ٣١]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل:

٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴾ [النمل: ٤٢]، وقال تعالىٰ حكاية عن ملكة سبأ: ﴿ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل: ٤٤].

* **وهو دين المسيح عليه السلام وحوارييه**: قال تعالىٰ: ﴿ **فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [المائدة: ١١١].

* **وهو دين المهتدين من الجن**: قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن: ١٤- ١٥].

* **وهو دين المتمسكين بالحق من أهل الكتاب قبل بعثة محمد ﷺ**: قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [القصص: ٥٢- ٥٣].

* **ثم هو دين النبي الخاتم محمد ﷺ**: وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ

ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [غافر: ٦٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾ [المائدة: ٣]

* **بل إن القرآن الكريم ليقرر في وضوح كامل أن الإسلام دين أهل السماوات والأرض** قال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٣]

* **وإلىٰ هذا الدين وحده، وجَّه النبي الخاتم رسله ورسائله إلىٰ الملوك وعظماء الملل وأشهدهم علىٰ إسلامه وإسلام من معه** قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

رسالة العالم كله:

إنها الرسالة الشاملة التي تخاطب كل الأمم وكل الأجناس وكل الطبقات.

إنها رسالة ليست لشعب خاص، يزعم أنه وحده شعب الله المختار! وأن الناس جميعًا يجب أن يخضعوا له.

وليست رسالة لطبقة معينة مهمتها أن تسخِّر الطبقات الأخرىٰ لخدمة مصالحها أو اتباع أهوائها.

إنه منهج ورسالة للناس جميعًا وهذا ما وضحه القرآن منذ العهد المكي حيث قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [ص: ٨٧].

رسالة الإنسان كله:

وهي كذلك منهج ورسالة الإنسان من حيث هو إنسان متكامل، **إنها رسالة الإنسان كله**: روحه وعقله وجسمه وضميره وإرادته ووجدانه، والمنهج الإلهي لا يهيم مع الخيال فيرفع الإنسان فوق قدره وفوق طاقته وفوق مهمته التي أنشأه الله لها يوم أنشأه.

طريقة تعامل المنهج الإلهي مع الإنسان:

- إنَّ الإنسان هو هذا الكائن بعينه، بفطرته وميوله واستعداداته:

- يأخذ المنهج الإلهي بيده ليرتفع به إلىٰ أقصىٰ درجات الكمال المقدر له بحسب تكوينه ووظيفته.

– ويحترم ذاته وفطرته ومقوماته، وهو يقوده في طريق الكمال الصاعد إلىٰ الله.

إن الإسلام لم يشطر الإنسان شطرين:

– إنَّ الإسلام لم يشطر الإنسان شطرين كما فعلت الأديان الأخرىٰ: شطر روحي يوجبه الدين وهذا الشطر من اختصاص رجال الدين (الكاهن أو القسيس) وشطر مادي لا سلطان للدين ولا لرجاله عليه ولا مكان لله فيه إنه شطر الحياة.

فهل يا ترىٰ يتفق هذا مع فطرة الإنسان وطبيعته كما خلقه الله؟

كلا، فالإنسان ليس مجزءًا ولا مشطورًا إنه (كل) متكامل لا تنفصل فيه روح عن مادة ولا مادة عن روح فلهذا يجب أن تكون غايته واحدة، ووجهته واحدة وطريقه واحدًا وهذا ما صنعه الإسلام، فقد جعل الغاية لله والوجهة الآخرة، وبهذا لا يتمزق الإنسان بين توجيهين مختلفين.

رسالة الإنسان في أطوار حياته كلها:

وإنها رسالة الإنسان في كل مراحل حياته ووجوده فهذا مظهر آخر من مظاهر الشمول.

فهي تصحبه طفلًا ويافعًا وشابًّا وكهلًا وشيخًا، وترسم له في كل هذه المراحل المتعاقبة المنهج الأمثل الذي يحبه الله و يرضاه.

فلا عجب أن تجد في الإسلام أحكامًا تتعلق بالمولود منذ ساعة ميلاده مثل التأذين في أذنه واختيار اسم حسن له وغير ذلك.

ونجد أحكامًا تتعلق بإرضاع الرضيع ومدته وفصاله وفطامه وبعد ذلك نجد أحكامًا تتعلق بالجنين من حيث حمايته واستمرار غذائه بمقدار كاف قال تعالىٰ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق: ٦].

كما نجد في الإسلام أحكامًا أخرىٰ تتعلق بالإنسان بعد موته: من وجوب تغسيله وتكفينه والصلاة عليه وغير ذلك من الأحكام.

رسالة الإنسان في كل مجالات حياته:

* **وفي معاني الشمول أيضًا**: أنه رسالة للإنسان في كل مجالات الحياة فلا يدع جانبًا من جوانب الحياة الإنسانية إلا كان له فيه موقف: وقد يتمثل في إقرار أو تصحيح أو إتمام أو تغيير، وقد يسلك مسلك الموعظة الحسنة، وقد يتخذ أسلوب العقوبة الرادعة كل في موضعه.

المهم أنه لا يدع الإنسان وحده بدون هداية الله في أي طريق يسلكه: ماديًّا كان أو روحيًّا، فرديًّا أو جماعيًّا، فكريًّا أو عمليًّا، دينيًّا أو سياسيًّا، اقتصاديًّا أو أخلاقيًّا.

نجد مثلًا بعض الديانات كالمسيحية ارتضت أن تقسم الحياة نصفين: نصف للدين تقوده الكنيسة، ونصف للدنيا تقوده الدولة، ولكن الإسلام ينكر هذه القسمة للحياة ويرفضها لأمرين:

الأول: أن الإسلام يجعل الكون كله والخلق كلهم ملكًا لله يقول الله

تعالىٰ: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [طه: ٦]، فلا يجوز في عقيدة الإسلام أن يخضع المسلم- مختارًا لأمر قيصر وهو قادر علىٰ إخضاع قيصر لأمر الله ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ ﴾ [الرعد: ٣١].

والثاني: أن الحياة بكل جوانبها كتلة واحدة لا تقبل الانقسام والتفريق ولا ينفصل فيها الدين عن الدولة ولا الفرد عن الأسرة.

شمول التعاليم الإسلامية:

إن شمول التعاليم الإسلامية يتجلىٰ في العقيدة وفي العبادة وفي الأخلاق وفي التشريع:

أولاً: شمول العقيدة الإسلامية:

فالعقيدة الإسلامية عقيدة شاملة في أي جانب نظر الناظر إليها:

١- فهي توصف بالشمول لأنها تفسر كلَّ القضايا الكبرىٰ في هذا الوجود. القضايا التي شغلت الفكر الإنساني: قضية الألوهية، قضية الكون، قضية الإنسان، قضية النبوة، قضية المصير.

٢- توصف العقيدة الإسلامية بالشمول كذلك، لأنها لا تجزئ الإنسان بين إلهين اثنين إله الخير وإله الشر والظلمة كما في المجوسية قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ [النحل: ٥١]

٣- توصف العقيدة الإسلامية بالشمول من ناحية أخرىٰ: وهي أنها لا تعتمد في ثبوتها علىٰ الوجدان أو الشعور وحده كما هو شأن المسيحية التي ترفض تدخل العقل في العقيدة رفضًا باتًّا.

كما لا تعتمد علىٰ العقل وحده كما هو شأن جل الفلسفات البشرية، وإنما تعتمد علىٰ الفكر والشعور معًا أو العقل والقلب جميعًا، فالإيمان الإسلامي هو الذي ينبعث من ضياء العقل وحرارة القلب.

٤- وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول أيضًا، لأنها عقيدة لا تقبل التجزئة، لا بد أن تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار أو حتىٰ شك في أي جزء منها.

فمن آمن بـ ٩٩ ٪ من مضمون هذه العقيدة، وكفر بـ ١ ٪ لم يعد بذلك مسلمًا، فالإسلام يقتضي أن يسلم الإنسان قياده كله لله و يؤمن بكل ما جاء من عنده.

ثانيًا: شمول العبادة في الإسلام:

العبادة في الإسلام تستوعب الكيان البشري كله، فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فحسب أو ببدنه فقط أو بقلبه أو بعقله، بل يعبد الله بهذا كله: بلسانه ذاكرًا داعيًا تاليًا، وببدنه مصليًا صائمًا مجاهدًا، وبقلبه خائفًا راجيًا مجيبًا متوكلًا، وبعقله متفكرًا متأملًا.

فمثلًا: عبادة كالصلاة تتجلىٰ فيها عبادة اللسان بالتلاوة والتكبير والتسبيح والدعاء، وعبادة الجسم بالقيام والقعود والركوع والسجود، وعبادة العقل بالتفكر والتأمل في معاني القرآن وأسرار الصلاة، وعبادة القلب بالخشوع والحب لله والشعور بمراقبة الله.

وكل عمل نافع يقوم به المسلم لخدمة المجتمع وخصوصًا الضعفاء

وذوي العجز والفاقة منهم هو أيضًا عبادة.

ويدخل في دائرة العبادة: سعي الإنسان على معاشه ومعاش أسرته ليغنيهم بالحلال ويعفهم عن السؤال، وأكثر من ذلك أنه جعل من وضع شهوته في حلال كان له بها أجر، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: «**أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**».(١)

۞ ثالثًا: شمول الأخلاق في الإسلام:

إن الأخلاق في الإسلام لم تدع جانبًا من جوانب الحياة الإنسانية: روحية أو جسمية، دينية أو دنيوية، عقلية أو عاطفية، إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع.

١ - إن من أخلاق الإسلام ما يتعلق بالفرد في كافة نواحيه:

أ- جسمًا له ضروراته وحاجاته قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]،

(١) صحيح مسلم: (١٠٠٦).

ولنتأمل هذه القصة، عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: آخَىٰ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَىٰ أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ؟ قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّىٰ تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ: سَلْمَانُ قُمِ الآنَ، فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**صَدَقَ سَلْمَانُ**».(١)

ب - **وعقلًا له مواهبه وأفاقه** يقول الله تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]

ج - **ونفسًا لها مشاعرها ودوافعها وأشواقها** قال تعالىٰ: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠ ﴾[الشمس: ٩- ١٠].

٢ - ومن أخلاق المسلم ما يتعلق بالأسرة:

أ- **كالعلاقة بين الأبوين والأولاد**: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ ﴾ [العنكبوت: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ

---

(١) صحيح البخاري: (١٩٦٨).

خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الإسراء: ٣١].

ب- كالعلاقة بين الزوجين: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

ج- وكالعلاقة بين القارب والأرحام: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٦].

٣ - ومن أخلاق المسلم ما يتعلق با لمجتمع:

أ- في آدابه ومجاملاته فمثلًا: قال الله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور: ٢٧].

ب- وفي اقتصاده ومعاملاته: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المطففين: ١ - ٣].

ج- وفي سياسته وحكمه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨].

٤ - وفي أخلاق الإسلام ما يتعلق بغير العقلاء من الحيوان والطير:

كما في الحديث عَنْ سَهْلِ ابْنِ الْحَنْظَلِيَّةِ، قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ، فَقَالَ: «**اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ، فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً**».(١)

٥ - ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالكون الكبير:

من حيث إنه مجال التفكر والاستدلال بما فيه من إبداع وإتقان علىٰ وجود مبدعه وقدرته وعلىٰ علمه وحكمته قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ومن حيث إنه مجال للانتفاع والاستمتاع بما أودع الله فيه من خيرات والتي تستوجب الشكر لواهبها والمنعم بها كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢].

٦ - وفوق ذلك كله وقبله ما يتعلق بحق الخالق العظيم الذي منه كل النعم وله كل الحمد:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٢ - ٦].

فهو وحده الحقيق بأن يحمد الحمد كله وهو وحده الذي يستحق أن

(١) سنن أبي داود: (٢٥٤٨)، صحيح الجامع: (١٠٤).

يعبد وأن يستعان وأن تطلب منه الهداية.

وبهذا نجد أن الإسلام نظر إلىٰ الأخلاق نظرة جامعة محيطة مستوعبة، أمَّا الفلسفات والنظريات البشرية فكان عيبها أنها نظرت إلىٰ الأخلاق في زاوية واحدة وأغفلت الأخرىٰ.

رابعًا: شمول التشريع في الإسلام:

والتشريع في الإسلام تشريع شامل وذلك لما يأتي:

- إن تشريع الإسلام يشمل التشريع للفرد في تعبده وصلته بربه وهذا ما يفصله قسم (العبادات) في الفقه الإسلامي.

- ويشمل التشريع للفرد في سلوكه الخاص و العام وهذا ما يسمىٰ (الحلال والحرام).

- ويشمل التشريع ما يتعلق بأحوال الأسرة من زواج وطلاق....الخ، وهذا ما يسمىٰ في عصرنا (الأحوال الشخصية).

- ويشمل التشريع للمجتمع في علاقاته المدنية و التجارية وما يتصل بتبادل المنافع والأموال.

- ويشمل التشريع ما يتصل بالجرائم و عقوباتها وهذا ما يسمىٰ (التشريع الجنائي).

- ويشمل التشريع الإسلامي ما يتعلق بواجب الحكومة نحو المحكومين وبالعكس وتنظيم الصلة بين الطرفين وهذا ما يسمىٰ (التشريع الدستوري) أو (الإداري) أو (المالي).

- ويشمل التشريع الإسلامي ما ينظم العلاقات الدولية في السلم والحرب بين المسلمين وغيرهم وهذا ما يسمىٰ في عصرنا (القانون الدولي).

ويبدو شمول التشريع الإسلامي في أمر آخر وهو النفاذ إلىٰ أعماق المشكلات المختلفة وما يؤثر فيها وما يتأثر بها والنظر إليها نظرة محيطة مستوعبة مبنية علىٰ معرفة النفس الإنسانية وحقيقة دوافعها وتطلعاتها وربط التشريع بالقيم الدينية والأخلاقية، بحيث يكون التشريع في خدمتها ولا يكون معولًا لهدمها قال تعالىٰ: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤]

خامسًا: شمول الالتزام بالإسلام كله:

هذا الشمول الذي تميز به المنهج الإلهي يجب أن يقابله شمول مماثل من جانب التزام المسلمين: أعني الالتزام بهذا الإسلام كله في شموله وسعته، فلا يجوز الأخذ بجانب من تعاليمه وأحكامه وطرح جانب آخر قصدًا أو إهمالًا لأنها (كل) لا يتجزأ.

ولا يجوز في نظر الإسلام العناية بالعبادات والشعائر وإهمال جانب الأخلاق والفضائل قال تعالىٰ: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

حقائق يقينية:

إنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا

الإنسان، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة.. إلا بالرجوع إلىٰ الله.

ما هي حقيقة الرجوع إلى الله؟

إنَّ الرجوع إلىٰ الله - كما يتجلىٰ في القرآن - له صورة واحدة وطريق واحد.. واحد لا سواه.

- إنه العودة بالحياة كلها إلىٰ منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم، وإلا فهو الفساد في الأرض، والشقاوة للناس، والارتكاس في الحمأة، وعبادة الهوىٰ من دون الله قال تعالىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠]. إن الاحتكام إلىٰ منهج الله في كتابه ليس نافلة ولا تطوعا ولا موضع اختيار، إنما هو الإيمان قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الجاثية: ١٨- ١٩] والأمر إذن جد.. إنه أمر العقيدة من أساسها.. ثم هو أمر السعادة أو الشقاء قال تعالىٰ: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ

عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود: ١٠٥ - ١٠٨].

لا يحول بين الناس وبين الالتزام بالشمولية إلا عدو للبشرية:

ولا يوحي ولا يدعو إلىٰ الإخلال بهذه **الشمولية** والتناسق، إلا عدو للبشرية يطاردها دون الهدىٰ وينبغي لها أن تطارده، وتقصيه من طريقها إلىٰ ربها الكريم، وهذا العدو معلوم ومعروف قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢]، والمشكلة أن الشياطين ليسوا من الجن فقط بل هناك شياطين الإنس قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢].



ثانيًا: الوسطية

وهذه خصيصة أخرىٰ من أبرز خصائص المنهج الرباني وهي (الوسطية) ويعبر عنها بـ (التوازن) ونعني بها التوسط بين طرفين متقابلين أو متضادين، مثلًا الروحية والمادية، الفردية والجماعية، الواقعية والمثالية.

عجز الإنسان عن إنشاء نظام متوازن:

وهذا في الحقيقة أكبر من أن يقدر عليه الإنسان بعقله المحدود وعلمه القاصر فضلًا عن تأثير ميوله ونزعاته الشخصية، ولهذا لا يخلو منهج أو نظام يصنعه بشر من الإفراط أو التفريط.

ولذلك فإن القادر علىٰ إعطاء كل شيء في الوجود حقه هو الله الذي خلق كل شيء فقدَّره تقديرًا، وَوَسِعَ كلَّ شيء رحمة وعلمًا، لذا لا عجب أن نرىٰ هذا التوازن الدقيق فيما أمر الله به وشرعه في الدين.

ظاهرة التوازن في الكون كله:

ننظر في العالم من حولنا فنجد الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والمجموعات الكونية السابحة في الفضاء، وكل منها يسبح في مداره دون أن يصدم غيره أو يخرج عن دائرته وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠].

فهل صفة التعادل هي أيضًا الحقيقة الأولىٰ في كيان الإنسان؟

فلننظر أولًا كيف يعيش الإنسان من حيث هو كائن مادي؟

إنه يعيش بالتنفس، و ما هو التنفس؟ هو حركة تعادل بين الشهيق والزفير.

فإذا اختل هذا التعادل بأن طال الشهيق أكثر مما ينبغي طاغيًا علىٰ الزفير وبالعكس فإن حياة الإنسان ستتوقف.

وإذا انتقلنا إلىٰ التركيب الروحي للإنسان نجد أن له شهيقَه وزفيرَه فيما يمكن أن نسميه (الفكر والشعور) أو (العقل والقلب).

فالإنسان إذن كائن متعادل ماديًّا وروحيًّا بل كل الكائنات التي تحملها الأرض متعادلة.

وإلىٰ هذه الخصيصة البارزة يشير قوله تعالىٰ مخاطبًا أمة الإسلام: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ووسطية الأمة الإسلامية إنما هي مستمدة من وسطية منهجها ونظامها فهو منهج وسط لأمة وسط.

مزايا الوسطية وفوائدها:

أ - الوسطية أليق بالرسالة الخالدة:

يجوز في رسالةٍ مرحليةٍ محدودةِ الزمن أن تعالج بعض التطرف في قضية

ما بتطرف مضاد، فإذا كان هناك غلوٌ في النزعة المادية ردَّ عليها بغلوٍ معاكسٍ في النزعة إلىٰ الروحية، وذلك في الديانة المسيحية وموقفها في النزعة المادية الواقعية عند اليهود والرومان.

أما في الرسالة الخالدة كان لابد من العودة إلىٰ الحد الوسط، وإلىٰ الصراط السوي وهذا ما جاءت به رسالة الإسلام بوصفها رسالة عالمية خالدة.

ب - الوسطية تعني العدل:

فمن معاني الوسطية التي وصفت بها الأمة في الآية الكريمة ورتبت عليها شهادة علىٰ البشرية كلها: العدل، الذي هو ضرورة لقبول شهادة الشاهد كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالوسط يعني: العدل والاعتدال وبعبارة أخرىٰ: يعني التعادل بلا جنوح إلىٰ الغلو ولا إلىٰ التقصير.

ج - الوسطية تعني الاستقامة:

أي استقامة المنهج والبعد عن الميل والانحراف فالمنهج المستقيم وبتعبير القرآن الكريم ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، فإذا فرضنا خطوطًا كثيرة واصلة بين نقطتين متقابلتين، فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع في وسط تلك الخطوط المنحنية، ومن ضرورة كونه وسطًا بين الطرق الأخرىٰ أن تكون الأمة المهدية إليه وسطًا بين الأمم السالكة إلىٰ تلك الطرق الزائغة.

والذي لاشك فيه أن كلًا من اليهود والنصارىٰ يمثلون الإفراط والتفريط في كثير من القضايا.

أمثلة على الإفراط والتفريط:

١ - فاليهود قتلوا الأنبياء والنصارىٰ ألهوهم.

٢- اليهود أسرفوا في التحريم والنصارىٰ أسرفوا في الإباحة.

٣- اليهود غلوا في الجانب المادي والنصارىٰ قصروا فيه.

٤- النصارىٰ غلوا في الجانب الروحي واليهود قصروا فيه.

أما الإسلام فإنه يُعَلِّمُ المسلم أن يحذر من تطرف كلا الفريقين وأن يلتزم المنهج الوسط أو المستقيم.

د - الوسطية دليل الخيرية:

والوسطية دليل الخيرية، ومظهر الفضل والتميز في الماديات والمعنويات فمثلًا رئيس القوم في الوسط والأتباع من حوله، وفي الأمور المعنوية نجد التوسط دائمًا خير من التطرف، ومن هنا قال الإمام ابن كثير في قوله تعالىٰ: ﴿أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وَالْوَسَطُ هَاهُنَا: الْخِيَارُ وَالْأَجْوَدُ.(١)

هـ - الوسطية تمثل الأمان:

والوسطية تمثل منطقة الأمان، والبعد عن الخطر، فالأطراف عادة

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٤٥٤).

تتعرض للخطر والفساد بخلاف الوسط فهو محمي ومحروس بما حوله.

ز - الوسطية دليل القوة:

فالوسط هو مركز القوة، ألا ترىٰ الشباب الذي يمثل مرحلة القوة وسطًا بين ضعفين هما الطفولة وضعف الشيخوخة.

ح - الوسطية مركز الوحدة:

والوسطية تمثل مركز الوحدة ونقطة التلاقي، فحين تتعدد الأطراف تعددًا قد لا يتناهىٰ يبقىٰ الوسط واحدًا يمكن لكل الأطراف أن تلتقي عنده وهذا واضح في الجانب المادي والجانب الفكري والمعنوي.

فمركز الدائرة في وسطها يمكن لكل الخطوط الآتية من المحيط أن تلتقي عنده والفكرة الوسطىٰ يمكن أن تلتقي بها الأفكار المتطرفة في نقطة ما، هي نقطة التوازن والاعتدال.

مظاهر الوسطية في الإسلام:

وإذا كان للوسطية كلُّ هذه المزايا فلا عجب أن تتجلىٰ واضحة في كل جوانب الإسلام، فالإسلام وسط في الاعتقاد، ووسط في التعبد، ووسط في الأخلاق، ووسط في التشريع:

أولاً: وسطية الإسلام في الاعتقاد:

أ - فهو وسط في الاعتقاد بين الخرافيين الذين يسرفون في الاعتقاد وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس، فالإسلام يدعوا إلىٰ الاعتقاد والإيمان ولكن بما قام عليه الدليل القطعي والبرهان اليقيني وماعدا ذلك

يرفضه ويعده من الأوهام.

ب – وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط، وبين الذين يعبدون الآلهة حتىٰ عبدوا الأبقار وألَّهو الأحجار.

فالإسلام يدعوا إلىٰ الإيمان بإله واحد لا شريك له، وكل ما عداه مخلوقات لا تملك ضرًّا ولا نفعًا، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ٥].

ج – وهو وسط بين الذين يعتبرون الكون هو الوجود الحق وحده، وبين الذين يعتبرون الكون وهمًا لا حقيقة له، فالإسلام يعتبر وجود الكون حقيقة لا ريب فيها ولكنه يعبر من هذه الحقيقة إلىٰ حقيقية أكبر منها وهي: مَنْ كوَّنَه ونظمه ودبَّر أمره وهو الله تعالىٰ.

د – وهو وسط بين الذين يؤلهون الإنسان ويعتبرونه إله نفسه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية.

فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مكلف مسؤول، سيد في الكون، عبد لله.

هـ – وهو وسط بين الذين يقدسون الأنبياء حتىٰ رفعوهم إلىٰ مرتبة الألوهية، وبين الذين كذبوهم واتهموهم، فالأنبياء بشر مثلنا، يأكلون ويمشون ويتزوجون والفرق بيننا وبينهم أن الله منَّ عليهم بالوحي وأيدهم

بالمعجزات قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [فصلت: ٦]

و- وهو وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده مصدرًا لمعرفة حقائق الوجود وبين الذين لا يؤمنون إلا بالإلهام ولا يعترفون للعقل بدور.

فالإسلام يؤمن بالعقل (١) **ويدعوه للتفكير وينكر عليه الجمود والتقليد**

---

(١) لا يوجد دين غير الإسلام كرم العقل والفكر وأشاد بأولي الألباب والنهىٰ، ودعا إلىٰ النظر والتفكر، وحرض علىٰ التعقل والتدبر، وقرأ الناس في كتابه: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]، و ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ [الغاشية: ١٧]، و ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٣]، و ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، و ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ ﴾ [ق: ٦] و ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، و ﴿ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، و ﴿ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣]. ومن أروع ما جاء في القرآن قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ﴾ [سبأ: ٤٦]. ومعناه: أنه لا يطلب منهم إلا خصلة واحدة، وهي أن يتوجهوا بعقولهم وقلوبهم إلىٰ الله الذي يؤمنون به، وبخالقيته للكون وتدبيره لأمره، مخلصين في طلب الهداية إلىٰ الحقيقة، بعيدًا عن تأثير «العقل الجمعي»، وعن الخوف من الناس أو المجاملة لهم، كل فرد مع صديقه ممن يثق به، ويطمئن إليه، أو يفكر وحده، وهو معنىٰ قوله: ﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾، ثم يتفكروا في أمر النبوة، وسيهديهم فكرهم الحر إلىٰ الحق.

قال الشاعر:

وَأَفْضَلُ قَسم الله للمَرْءِ عَقْلُهُ ... فليسَ مِنَ الخَيْراتِ شيءٌ يُقارِبُهُ

إِذا أَكْمَلَ الرحْمَنُ للمرءِ عَقْلَهُ ... فقدْ كَمُلَتْ أَخْلَاقُهُ ومآربُهُ

=

ويعتمد عليه في إثبات أعظم حقيقتين في الوجود وهما:

١- وجود الله تعالىٰ، ٢- وصدق دعوة النبوة، ولكنه يؤمن بالوحي مكملًا للعقل وهاديًا له فيما تضل فيه العقول وتختلف فيه الغيبيات وطرائق التعبد لله تعالىٰ.

ثانيًا: وسطية الإسلام في العبادات والشعائر:

والإسلام وسط في عباداته بين الأديان التي ألغت الجانب الرباني من فلسفتها وواجباتها كالبوذية، وبين الأديان التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة كالرهبانية المسيحية.

فالإسلام يكلف المسلم أداء شعائر محدودة في اليوم كالصلاة، أو في السنة كالصوم، أو في العمر مرة كالحج، ليظل دائمًا موصولًا بالله غير مقطوع

....

=

وقال ابن حزم: وحد العقل: ينطوي فيه فعل الطاعات والفضائل واجتناب المعاصي والرذائل، وقد نصَّ الله تعالىٰ في كتابه أن من عصاه لا يعقل، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١٠-١١].

وحد الحمق: استعمال المعاصي والرذائل، وهو ضد العقل، ولا واسطة بين الحمق والعقل إلا السخف. انظر: **الأخلاق والسير في مداواة النفوس ص: ٦٥ - ٦٦ بتصرف.**

وقيل لابن المبارك: ما خير ما أُعطي الرجل؟ قال: غريزة عقل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدب حسن؛ قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخ صالح يستشيره، قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل. (**روضة العقلاء/ ص**: ١٧).

عن رضاه ثم يطلقه بعد ذلك ساعيًا منتجًا.

ولعل أوضح دليل نذكره هنا: الآيات الآمرة بصلاة الجمعة قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠﴾ [الجمعة: ٩-١٠].

ثالثًا: وسطية الإسلام في الأخلاق:

أ- والإسلام وسط في الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكًا فوضعوا له من القيم مالا يمكن له، وبين غلاة الواقعيين الذين حسبوه كالحيوان فأرادوا له من السلوك مالا يليق به.

أمَّا الإسلام فنظرته وسط بين أولئك وهؤلاء، فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مركب فيه العقل وفيه الشهوة وفيه استعداد للفجور واستعداده لتقويم نفسه و لكن مهمته هي تزكية نفسه كما قال الله تعالىٰ: ﴿**وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠**﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

ب- وهو وسط كذلك في نظرته إلىٰ حقيقة الإنسان بين المذاهب التي تقوم علىٰ اعتباره روحًا علويًا سجن في جسد أرضي ولا يسموا إلا بتعذيب هذا الجسد كالبرهمية، وبين المذاهب المادية التي تعتبر الإنسان جسدًا محضًا لا يسكنه روح علوي، أما الإنسان في الإسلام فهو كيان روحي

ومادي.

ج- وهو وسط في النظرة إلىٰ الحياة بين الذين أنكروا الآخرة (١) واعتبروا هذه الحياة الدنيا هي كل شيء لهذا لم يعرفوا لهم هدفًا يركضون

---

(١) **يقول الدكتور النابلسي عند تفسير قوله تعالىٰ:** ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾:
والله كل مشكلاتنا التي نعانيها لضعف إيماننا باليوم الآخر، لو أنَّك آمنت أنك سوف تُحَاسب حسابًا دقيقًا: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: ٩٢- ٩٣]، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧- ٨].
لا يمكن أن تأخذ ما ليس لك، ولا يمكن أن تعتدي علىٰ حق أحد، ولا يمكن لك أن تستطيل علىٰ إنسان، ولا أن تَبْتَزَّ مال إنسان، ولا أن تحتال علىٰ إنسان؛ كل ما ترىٰ عينك من معاصٍ يفعلها الناس فهذا لضعف إيمانهم باليوم الآخر؛ وأحد ثاني أكبر ركن في الدين هو: اليوم الآخر.
ثم يقول: الأحداث كلُّها تشير إلىٰ أنه لن تقوم حياةٌ إلا أن تؤمن باليوم الآخر، وكل ما يقال من كلام لا معنىٰ له؛ ضمير يقِظ، وازع داخلي، هذا كلُّه إن لم يُدَعَّم بالإيمان باليوم الآخر لا جدوىٰ منه، ولم ينجح مجتمع علىٰ وجه الأرض إلا مجتمعًا آمن بالله واليوم الآخر..........
- إن الإيمان باليوم الآخر يأتي بعد الإيمان بالله تمامًا، ولو تتبعنا الآيات التي تذكر الإيمان لوجدنا أن أكثر ركنين متلازمين من أركان الإيمان هما الإيمان بالله واليوم الآخر؛ والحياة الدنيا من دون إيمان باليوم الآخر غابة؛ يأكل القوي الضعيف، يستغل الغني الفقير، شعوبٌ تُقْهَر، شعوبٌ تموت من الجوع، وشعوبٌ تُطعِم كلابها من اللحم ما لا تأكله شعوب بأكملها؛ حياةٌ القوي فيها هو المسيطر، والضعيف مسحوق، هذه حياةٌ دُنيا من دون يوم آخر، انظر إلىٰ مجتمع إيماني صغير، أفراده مؤمنون باليوم الآخر، تجد الإنسان يأخذ ما له ويدع ما ليس له.

وراءه غير المنافع الفردية الدنيوية العاجلة، وبين الذين رفضوا هذه الحياة فحرَّموا علىٰ أنفسهم طيباتها، أما الإسلام يعتبر الحياتين ويجعل الدنيا مزرعة الآخرة ويرىٰ العمل في عمارتها عبادة لله، وينكر علىٰ غلاة المتدينين تحريم الطيبات، قال تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]

كما ينكر علىٰ الآخرين انهماكهم في الشهوات يقول الله في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢].

رابعًا: وسطية الإسلام في التشريع:

والإسلام وسط كذلك في تشريعه ونظامه القانون والاجتماعي، فهو وسط في التحليل والتحريم بين اليهودية التي أسرفت في التحريم، وكثرت فيها المحرمات، وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة وكثرت فيها المباحات.

فالإسلام قد أحل وحرم ولكنه لم يجعل التحليل ولا التحريم من حق بشر بل من حق الله وحده، ولم يحرم إلا الخبيث كما لم يحل إلا الطيب، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ

مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

- والتشريع الإسلامي وسط في شؤون الأسرة، فهو وسط بين الذين شرعوا تعدد الزوجات بغير قيد، وبين الذين رفضوه ولو اقتضته المصلحة، فقد شرع الإسلام هذا الزواج بشرط القدرة علىٰ الإنفاق والثقة بالعدل بين الزوجتين كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

والإسلام وسط في تشريعه الاجتماعي بين الرأسماليين الذين يفضلون الفرد علىٰ حساب المجتمع، وبين الماركسيين الذين يضخمون دور المجتمع ويضغطون علىٰ الفرد بمصادرة نوازعه الذاتية.

التوازن بين الروحية والمادية:

لا عجب أن نجد من أبرز مظاهر الوسطية في رسالة الإسلام: التوازن بين الروح والمادة أو بين الدين والدنيا.

- لقد وُجِدت في التاريخ أمم وأفراد كل همهم إشباع الجانب المادي في الإنسان دون الالتفات إلىٰ الجوانب الأخرىٰ: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٩] وهذه النزعة المادية المغالية جديرة بأن تولد التكالب علىٰ متاع الدنيا والغرور والاستكبار، ونرىٰ ذلك واضحًا فيما قصَّه الله علينا في القرآن، فها هو صاحب الجنتين يفخر علىٰ صاحبه قائلًا: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٤- ٣٦]، ونتيجة لهذا الغرور والتكبر أرسل الله علىٰ جنته حسبانًا من السماء فأصبحت صحراء

قاحلة وأصبح ماؤها غورًا.

وكذلك الأمم التي أترفت في الحياة الدنيا قتلها الترف ودمرها التحلل وحقت عليها كلمة العذاب، ومن هذا نجد أمثلة كثيرة في القرآن الكريم كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٣].

- وفي الطرف المقابل نجد أفرادًا وأممًا نظروا إلىٰ الدنيا نظرة احتقار وعداوة فحرموا علىٰ أنفسهم طيبات الحياة وزينتها، وبدا ذلك بوضوح وجلاء في نظام الرهبانية الذي ابتدعه النصارىٰ.

- أما الإسلام فقد قام بين هاتين النزعتين يدعوا إلىٰ التوازن والاعتدال، فصحح مفهوم الناس عن حقيقة الإنسان وعن حقيقة الحياة.

فالإنسان مخلوق مزدوج الطبيعة يقوم كيانه علىٰ المادة والروح وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ هذه الطبيعة المزدوجة في خلق الإنسان فقال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١- ٧٢].

والحياة ليست سجنًا عوقب الإنسان به إنما هي نعمة يجب أن تشكر ومزرعة لحياة أخرىٰ هي خير وأبقىٰ.

والقرآن الكريم يدعوا إلىٰ العمل للحياة والاستمتاع بطيباتها مع الحث علىٰ الاستعداد للآخرة، وذلك بالإيمان والعبادة وحسن الصلة بالله حيث

يقول الله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة: ١٠]

والرسول ﷺ كان يأكل من طيبات هذه الحياة ولا يحرمها علىٰ نفسه ولكنه لم يجعلها شغل نفسه الشاغل فكان يدعوا، كما ورد عَنْ خَالِدِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ، قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّىٰ يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لأَصْحَابِهِ: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَىٰ مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَىٰ مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا**». (١)

وهكذا تعلم الصحابة أن يوازنوا بين مطالب دنياهم وآخرتهم وأن يعملوا للدنيا كأحسن ما يعمل أهل الدنيا ويعملوا للآخرة كأحسن ما يعمل أهل الآخرة، ولم يشعروا بتعارض بين عملهم لدنياهم بل شعروا بالوحدة والانسجام حيث كانت شعائرهم وواجباتهم الدينية تعطيهم زادًا وشخصية قوية يواصلون بها الكفاح لدنياهم.

التوازن بين الفردية والجماعية:

وفي النظام الإسلامي تتوازن حرية الفرد ومصلحة الجماعة وتتكافأ فيها

(١) سنن الترمذي: (٣٥٠٢)، صحيح الجامع: (١٢٦٨).

الحقوق والواجبات.

ولقد تخبطت المذاهب في قضية الفرد والمجتمع والعلاقة بينهما:

هل الفرد هو الأصل والمجتمع طارئ لأنه متكون من الأفراد؟

أم المجتمع هو الأساس والفرد نافلة لأن الفرد بدون المجتمع مادة خام والمجتمع هو الذي يشكلها ويعطيها صورتها؟.

ولذلك جاءت الأديان السماوية لتقيم التوازن بين الفردية والجماعية، ولكن أتباعها سرعان ما حرَّفوها ففقدت بذلك وظيفتها في الحياة.

لهذا كان اليهود الذين تفرقوا في الأرض يؤيدون الفردية بتفكيرهم وسلوكهم القائم علىٰ الأنانية، وجاءت المسيحية أيضًا تهتم بنجاة الفرد قبل كل شيء تاركة شأن المجتمع يعتصر.

حتىٰ إن عالَمنا اليوم يقوم فيه صراع ضخم بين المذهب الفردي، والمذهب الجماعي فالرأسمالية تقوم علىٰ تقديس الفردية، واعتبارها المحور الأساسي، ولهذا فهي تعطي الفرد حرية التملك وحرية التمتع، ولو أدَّت هذه الحريات إلىٰ إضرار نفسه وغيره.

والمذاهب الاشتراكية تقوم علىٰ الحط من قيمة الفرد، والتقليل من حقوقه، والإكثار من واجباته، واعتبار المجتمع هو الأصل، فالفرد ليس له حق التملك إلا في بعض الأمتعة، وليس له حق التوجيه لسياسة بلده، وإذا انتقدها بشكل علني فإنه يعاقب علىٰ ذلك.

ذلك هو شأن فلسفات البشر وموقفها من الفردية والجماعية فماذا كان

موقف الإسلام؟

– إن شارع هذا الإسلام هو خالق هذا الإنسان وقد خلقه سبحانه علىٰ طبيعة مزدوجة: فردية واجتماعية في آن واحد.

والنظام الصالح هو الذي يراعي هذين الجانبين: الفردية والجماعية، ولا يطغىٰ أحدهما علىٰ الأخر.

وقد جاء الإسلام نظامًا وسطًا عدلًا لا يجور علىٰ الفرد لحساب المجتمع، ولا يظلم المجتمع من أجل الفرد ولذلك نلحظ ونجد:

١- قرر الإسلام حرمة الدم، فحفظ للفرد (**حق الحياة**)، وأعلن القرآن ذلك فقال تعالىٰ: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٣٢]، وأوجبت الشريعة القصاص في القتل العمد.

٢- وقرر حرمة العرض، فصان للفرد (**حق الكرامة**) فلا يجوز أن يهان في حضرته أو يؤذىٰ في غيبته قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

٣- وقرر حرمة المال، فصان للفرد (**حق التملك**) فلا يحل لأحد أن ينهب ماله ويأخذه منه بغير حق، قال النبي ﷺ في حجة الوداع: «**يا أَيُّها**

النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَـذَا؟»، قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، قَالَ: «**فَأَيُّ بَلَدٍ هَـذَا؟**»، قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: «**فَأَيُّ شَهْرٍ هَـذَا؟**»، قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ»، قَالَ: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَـذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا**»، فَأَعَادَهَا مِرَارًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**» - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَىٰ أُمَّتِهِ، «**فَلْيُبْلِغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**». (١)

٤- وقرر حرمة البيت، فصان بذلك للفرد (**حق الاستقلال الشخصي**) قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور: ٢٧].

٥- وقرر للفرد (**حرية الاعتقاد**) فلا يجوز أن يكره علىٰ ترك دينه واعتناق دين آخر قال تعالىٰ: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

٦- وقرر للفرد (**حرية النقد**) فمن حق كل فرد أن يعارض ما يراه من عوج وهو ما سماه الإسلام (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) صحيح البخاري: (١٧٣٩).

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

٧- وقرر للفرد (**حرية الرأي والتفكير**) فقد أمر الإسلام الناس أن يتفكروا وأجاز لهم أن يخطئوا فهم بشر ولا لوم عليهم في ذلك، والإسلام لا يحرم المجتهدين الأجر و لو أخطئوا في إصابة الحقيقة ففي الحديث: «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**».(١)

٨- وقرر الإسلام (**المسؤولية الفردية**) وأكدها تأكيدًا بالغًا في كتابه فقال تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ [فاطر: ١٨] وهذه الحقوق والحريات التي منحها الإسلام للفرد قيدها وحددها لتكون في حدود ومصلحة الجماعة، وأن لا يكون فيها مضرة للغير، فإذا تعارض حق الفرد مع حقوق الجماعة فإن حق الجماعة أولىٰ بالتقديم.

ومن الواجبات والحقوق التي فرضها الإسلام على المجتمع:

أ- الحياة التي صانها الإسلام للفرد، إذا اقتضىٰ الأمر بذلها لحمايته وجب عليه أن يقدمها راضي النفس، وكذلك إذا اعتدىٰ علىٰ حق نفس أخرىٰ كقاتل العمد أو فعل ما يستوجب القتل – فقدت حياته مالها من

(١) صحيح البخاري: (٧٣٥٢).

عصمة.

ب- حق التملك مقيد بأن يأخذ المال في حله وينفقه في محله ولا يبخل به إذا طلبته الجماعة، فملكية الفرد للمال ليست مطلقة بل هي مقيدة بحدود الله وحقوق المجتمع، بل إن للجماعة حقًّا في ماله بعضها دوري ثابت كالزكاة، وبعضها غير دوري.

ج- والحريات والحقوق كلها مقيدة برعاية أخلاق المجتمع وعقائده، فليس معنىٰ حرية الاعتقاد إذاعة الكفر بالله ورسوله وكتابه ونشر الخلاعة والفجور.

د- نرىٰ الإسلام كذلك يؤكد علىٰ مسؤولية الفرد عن الجماعة فكل فرد في المجتمع المسلم مسؤول في مجال من المجالات، وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقتضي مسؤولية المسلم عن المجتمع، وتوجب عليه مراقبة أحواله وتقويم العوج بكل ما استطاع بسلطانه أولًا، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان.

هـ- وفي معاني الجماعة في الإسلام ما عرف باسم **(فروض الكفاية)** ومعناه أن كل علم أو صناعة أو حرفة تحتاج إليها الجماعة المسلمة في دينها ودنياها قام بها عدد كاف فقد سقط الإثم عن باقي الجماعة وإلا أثمت الجماعة كلها واستحقت عقوبة الله.

و- المسلمون مسئولون مسئولية تضامنية عن تنفيذ شريعة الإسلام وإقامة حدوده ومن هنا كان خطاب التكليف في القرآن إلىٰ الجماعة وتكرر

قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بهذه الصيغة الجماعية ليؤكد وجوب التكافل بين الجماعة في تنفيذ أمر الله به.

ز- حق العبادة التي هي صلة بين العبد وربه أبىٰ الإسلام إلا أن يضفي عليها روحًا جماعية فدعا إلىٰ صلاة الجماعة ورغب فيها، وكلما كان عدد الجماعة أكبر كان ثواب الله أعظم، وإذا صلىٰ المسلم منفردًا في خلوة لم تزل الجماعة في وجدانه وضميره، وإذا دعا الله دعاه باسم الجميع: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٥- ٦].

ح- في مجال الآداب والتقاليد حث الإسلام علىٰ جملة من الآداب الاجتماعية أراد بها أن يخرج المسلم من الفردية إلىٰ الانفتاح علىٰ المجتمع فتحية الإسلام والمصافحة عند اللقاء، والتزاور، وعيادة المريض، وصلة الأرحام، والبر باليتامىٰ والمساكين وابن السبيل، وغير ذلك من الآداب التي جعلت الشعور الجماعي جزءًا لا يتجزأ من حياة المسلم.

ط- وفي مجال الأخلاق حث الإسلام علىٰ المحبة والإخاء والإيثار وأمر بالتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، كما دعا إلىٰ التراحم والتسامح واحترام النظام، وبجوار ذلك حذَّر من الحسد والبغضاء والفرقة والتنازع والأنانية....

وبهذا كله نعلم كيف أقام الإسلام الموازين العادلة بين الفرد والمجتمع، فالإسلام اعترف بالفرد والمجتمع، وقرر لكل منهما حقوقه بالعدل وألزمه واجبات تقابلها بالمعروف، وهذا هو التوازن الذي اختص به الإسلام.

ثالثًا: الوضوح

الوضوح إحدىٰ الخصائص للمنهج الرباني سواء فيما يتعلق بالأصول، والمصادر والأهداف، والمناهج.

أولاً: وضوح الأصول والقواعد الإسلامية:

أول مظاهر الوضوح في الإسلام أن أصوله الكبرىٰ واضحة لا لخاصة من أتباعه وأنصاره فحسب، بل لجمهرة المؤمنين به، يستوي في ذلك الأصول الاعتقادية والشعائر التعبدية، والفضائل الخلقية، والأحكام الشريفة.

وضوح الأصول الاعتقادية: وأول ما يبدو هذا الوضوح في الأصول الاعتقادية في الإسلام من الإيمان بالله ورسالاته وبالدار الآخرة.

أ - عقيدة التوحيد:

فتوحيد الله تعالىٰ وهو أصل الأصول واضح جلي، ولقد عرف كل مسلم من كلمة التوحيد وأولىٰ الشهادتين (لا إله إلا الله) أي أن لا مكان في الإسلام لتأليه بشر أو شيء سوىٰ الله ﷻ.

وإن قضية التثنية في الألوهية وقضية التثليث في المسيحية لا تتمتع واحدة منها بالوضوح منها لدىٰ المؤمنين بها، ولهذا نجدها تعتمد علىٰ الإيمان بغير برهان (اعتقد وأنت أعمىٰ) بخلاف قضية التوحيد التي تستند إلىٰ العقل

وتعتمد على البرهان ويقيم الأدلة العقلية على وحدانية الله بمثل قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ب - عقيدة الجزاء الأخروي:

والإيمان بالجزاء في اليوم الآخر، وأن الدنيا مزرعة الآخرة وأن الآخرة هي دار الجزاء قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨]، والإيمان بأن هناك دارًا لمثوبة الأبرار، ودارًا أخرى لعقوبة الفجار ومعنى هذا: أن مصير كل إنسان ليس بيد كاهن أو قديس إنما مصير الناس بأيديهم أنفسهم قال تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٨- ٩]، فهذا الإيمان أصل أصيل لا يخفى على مسلم في شرق أو غرب.

ج - الإيمان برسالات السماء:

والإيمان برسالات السماء كلها وما أنزل الله من كتب وما بعث من رسل يدعون إلى الله ويهدون إلى الحق ويدلوهم على طريق مرضاته قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، هذا

الإيمان برسل الله كافة، ركن من أركان العقيدة الإسلامية لا يجهله مسلم شأنه الإيمان بالله تعالىٰ وملائكته وكتبه واليوم الآخر.

وضوح الشعائر التعبدية:

ومن مظاهر الوضوح في الإسلام أن أركانه العملية وشعائره التعبدية واضحة للخاص والعام.

– فالصلاة هي الفريضة اليومية، وهي معروفة بعددها ومواقيتها وأعداد ركعاتها وأركانها و...

– والزكاة هي العبادة المالية الاجتماعية، وهي معروفة إجماليًا لكافة المسلمين فهي تؤخذ من أغنيائهم لترد علىٰ فقرائهم.

– وصوم رمضان وهو الفريضة السنوية الدورية، وهو معلوم لكل الأمة.

– وحج البيت وهي فريضة العمر واضحة معلومة إجمالًا لجماهير المسلمين.

فهذه الفرائض الدينية واضحة تمام الوضوح في ذهن المسلم بتركيز بعض الدروس أو يقرأ شيئًا من الكتب أو يسأل أهل الذكر، وقبل ذلك كله لا يجهل مسلم أن العبادة هي المهمة الأولىٰ للإنسان في الحياة (١) قال تعالىٰ:

---

(١) العبادة لله وحده هي العهد القديم الذي أخذه الله علىٰ بني الإنسان، وسجله بقلم القدرة في فطرهم البشرية وغرسه في طبائعهم الأصيلة، منذ وضع في رءوسهم عقولًا تعي، وفي صدورهم قلوبًا تخفق، وفي الكون حولهم آيات تهدي قال تعالىٰ: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس: ٦٠- ٦١]

=

....

=

هذا العهد بين الله وعباده هو الذي صوَّره القرآن في روعة وبلاغة حين قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

فلا عجب أن يكون المقصود الأعظم من بعثة النبيين، وإرسال المرسلين، وإنزال الكتب المقدسة، هو تذكير الناس بهذا العهد القديم، وإزالة ما تراكم علىٰ معدن الفطرة من غبار الغفلة أو الوثنية أو التقليد. ولا عجب أن يكون النداء الأول لكل رسول: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالىٰ بعد أن ذكر قصص طائفة كبيرة من الأنبياء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥١- ٥٢].

الجميع مأمورون بالعبادة:

وقد أمر الله نبيه محمدًا بقوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩] أي الموت، كما قال تعالىٰ علىٰ لسان قوم: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٤٦- ٤٧] وهو الموت. فالتكليف بالعبادة لازم له حتىٰ يلحق بربه. لم تسقط عنه بسمو الروح ولا بالاتصال القوىٰ بالله. وهكذا ظل حتىٰ في مرض موته عابدًا لله.

وقال تعالىٰ في شأن المسيح عيسىٰ بن مريم الذي رفعه قومه إلىٰ مرتبة الألوهية: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

=

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

الأصول الأخلاقية:

ومن الأصول الإسلامية الواضحة ما يتعلق بالجانب الأخلاقي فأمهات الفضائل التي أمر الشرع بها وحث عليها معروفة غير منكورة وأمهات الرذائل التي حذر الشرع منها معلومة غير مجهولة.

....

= ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾ [النساء: ١٧٢ - ١٧٣].

ويعرض لنا القرآن مشهدًا من مشاهد يوم الحشر، يسأل فيه المسيح عن ما نسبوه إليه وافتروه عليه، فيجيب في أدب العبودية متبرئًا مما صنعوا: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٧].

ويروي إنجيل متَّىٰ عن المسيح أن إبليس اللعين أراد أن يختبره أصعده إبليس إلىٰ جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان وقال له إبليس: لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن... فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع.

فأجابه يسوع وقال: اذهب يا شيطان، إنه مكتوب: للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد. النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام (ص: ٧٢).

فالأديان كلها دعوة إلىٰ عبادة الله وحده. والأنبياء جميعًا أول العابدين لله. وعبادة الله وحده هي إذن مهمة الإنسان الأولىٰ في الوجود. كما بينت ذلك الرسالات.

فمثلًا: لا يجهل مسلم أن الله يأمر بالعدل والإحسان بالوالدين وبذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل.

ولا يجهل أن الإسلام يبارك فضائل الصدق والأمانة والوفاء والصبر والعفة والحياء والسخاء والحلم والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ.

ولذلك في الطرف الأَخر لا يجهل مسلم أن الله ينهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي، ولا يحب الفساد ولا يحب الخائنين.

وقبل ذلك لا يجهل مسلم قيمة العنصر الأخلاقي في الحياة ومنزلته في الإسلام، حتىٰ أن العبادات الإسلامية تهدف إلىٰ ثمرات أخلاقية، فالصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، والزكاة تطهر نفوس الأغنياء، والصوم تربية للإرادة وتعليم للصبر، والحج تدريب علىٰ التحمل والبذل.

۞ وضوح الآداب:

ويتبع الأخلاق الآداب في وضوحها من أدب الأكل والشرب، وأدب النوم والتيقظ، وأدب الجلوس والمشي...، فأساس هذه الآداب وأصولها الهامة واضحة معلومة.

فمثلًا: كل مسلم يعلم أنه يسن له عند الأكل أن يأكل بيمينه، ويبدأ باسم الله ويختم بحمد الله.

۞ وضوح الشرائع الإسلامية:

ومن مظاهر الوضوح في الإسلام وضوح شرائعه وقوانينه أي الأساسية القطعية منها سواء في المجال الفردي أو الأسري أو الاجتماعي.

فكل مسلم يعلم بوضوح أنه يحرم عليه أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير كما يحرم عليه شرب الخمر ولعب الميسر.

وكل مسلم يعلم أنه لا يحل له الزواج من أمه أو ابنته أو إحدىٰ محارمه من النسب أو الرضاعة أو المصاهرة...الخ.

ثانيًا: وضوح مصادره:

ومن مظاهر الوضوح في المنهج الإلهي أن له مصادرَ محددةً بيِّنة يستقي منها فلسفته النظرية وتشريعاته العملية.

- **فالمصدر الأول**: هو كتاب الله: القرآن الذي كما قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: ١].

ومن خصائص هذا القرآن أنه كتاب مبين حتىٰ إن منزله سبحانه وتعالىٰ سماه (نورًا) و (هدىٰ للناس) و (برهانًا) و (بينة) وما ذلك إلا لشدة بيانه ووضوحه قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورًا مُّبِينًا ١٧٤﴾ [النساء: ١٧٤]، وإذا كان في القرآن آيات متشابهات تحتمل أكثر من معنىٰ، فبحكم طبيعة اللغة وتنوع دلالات الألفاظ فيها بين الحقيقة والمجاز وبموجب طبيعة البشر وما جبلوا عليه من تفاوت في الفهم والاستنباط، وبموجب طبيعة الإسلام الذي يحث علىٰ الاجتهاد.

- **والمصدر الثاني**: هو سنة محمد ﷺ: ونعني بها ما ثبت عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير وهي التطبيق العملي للقرآن الكريم فأعظم تفسير لكتاب الله يتجلىٰ في سيرة رسول الله، حيث قال تعالىٰ: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومما يلحق أيضًا بهذه السنة المحمدية: سنة الخلفاء الراشدين الذين نشئوا في حجر النبوة فما أثر عنهم مما اتفقوا عليه جميعهم أو عن طائفة منهم ولم ينكره عليه أصحابهم فهو سنة وكما جاء في حديث الْعِرْبَاض بْن سَارِيَة، يَقُولُ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ: وَعَظْتَنَا مَوْعِظَةَ مُوَدِّعٍ، فَاعْهَدْ إِلَيْنَا بِعَهْدٍ، فَقَالَ: «**عَلَيْكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، وَسَتَرَوْنَ مِنْ بَعْدِي اخْتِلَافًا شَدِيدًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**».(١)

ثالثًا: وضوح الأهداف والغايات:

ومن مظاهر الوضوح في نظام الإسلام: وضوح الأهداف والغايات فغاية الإسلام كله واضحة أمام عيني كل مسلم، ويكفي أن تقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾(٢) [إبراهيم: ١]، وفسر الظلمات بما شئت

---

(١) سنن ابن ماجه: (٤٢)، سنن الترمذي: (٢٦٧٦)، صحيح الجامع: (٤٣٦٩).

(٢) **يقول الدكتور محمد سعد قاسم:** إن هذه الآية الأولىٰ من سورة إبراهيم تبين =

من الجهل أو الشرك أو الشك أو الظلم أو...، وفسر النور بما شئت من العلم أو التوحيد أو اليقين أو العدل أو...، ويكفي أن يكون المسلم علىٰ شيء من الفقه في دينه ليعلم أنه يهدف إلىٰ تكوين الفرد الصالح والأسرة الصالحة والأمة الصالحة.

- **تكوين الفرد الصالح**: فالفرد هو اللبنة التي يتكون منها البناء الاجتماعي كله لذلك اشتدت عناية الإسلام به في كل مراحل حياته فإذا صلحت الأفراد صلحت الأسر وصلحت الجماعات والأمم.

وصلاح الإنسان في نظر الإسلام لا يتم إلا بأمور أربعة اعتبرها القرآن شروط نجاته من الخسران في الدنيا والآخرة.

والسورة التي تتضمن هذه الشروط هي سورة العصر حيث يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ - ٣].

فالشرط الأول: لصلاح الفرد هو الإيمان، الذي يصح به تصور الإنسان

....
=

بوضوح الوظيفة الأهم والمتوارثة عبر الزمن في سلسلة الأنبياء من لدن أولهم آدم عليه السلام أبي البشر، إلىٰ خليل الرحمن إبراهيم أبي الأنبياء، إلىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ.

والوظيفة هي: بيان الطريق للسالكين، وإخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور.

لذلك يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: إن كل معرفة تلقي بين أيدي الناس شعاعًا يُضيء الطريق، ويكشف الغاية، ينبغي أن نحتضنها وننميها، لأنها جزء من الفطرة التي بعثنا بها، والهداية التي ننشدها للعالمين. (انظر: روافد في بناء الوعي).

لنفسه وللحياة وللكون ولرب الكون والحياة والإنسان وإذا فسد هذا التصور فسدت الحياة كلها من ورائه.

والشرط الثاني: هو عمل الصالحات فهذا هو ثمرة الإيمان ومظهره العملي فالإيمان ليس مجرد إدراك ذهني وإنما هو حقيقة تدفع إلىٰ عمل الخير وترك الشر.

والشرط الثالث: هو التواصي بالحق ومعنىٰ هذا أن يوصي المؤمن غيره بالحق ويقبل هذا الغير الوصية بالحق، وبهذا لا يكتفي القرآن من المسلم أن يكون صالحًا في نفسه بل يجب عليه أن يعيش جنديًا للحق يؤمن به ويحبه وينصره ويدعو إليه.

والشرط الرابع: لازم للشرط الثالث، وهو التواصي بالصبر فإن الذي يحمل رسالة الحق يحتاج إلىٰ الصبر يوصي به نفسه ويوصي به غيره.

وهذه الأمور الأربعة واضحة بحمد الله، فليس الفرد الصالح في الإسلام الذي يعتزل الحياة في صومعة يعمر للآخرة بخراب الدنيا، ولكنه الذي يعمل للحياتين ويجمع بين الحسنين.

- والذي لا ريب فيه أن غايات الناس تختلف اختلافًا كبيرًا بحسب ما تهبط بهم شهوات الدنيا أو ترتقي بهم خصائصهم العليا، ولو ترك الناس لغرائزهم وحدها لنزلت بهم إلىٰ حضيض الأنعام، ولكن مهمة الدين أن يرقىٰ بهم إلىٰ أفق الملائكة يقول الله تعالىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ

وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤- ١٥].

تكوين الأسرة الصالحة:

ويهدف الإسلام إلىٰ تكوين الأسرة الصالحة السعيدة، والأسرة الصالحة هي التي تظللها المعاني التي جعلها القرآن الكريم أهداف الحياة الزوجية وثمراتها وهي السكون النفسي والمودة والرحمة يقول تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

والأسرة الصالحة هي التي تقوم على الدعائم الآتية:

١- أن يتم الزواج علىٰ التراخي دون الضغط أو إكراه ولا غش من طرف لآخر.

٢- تبادل الحقوق والواجبات بين الزوجين بالمعروف قال تعالىٰ: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

٣- إيجاب المعاشرة بالمعروف دائما، وخاصة عند الإحساس بعاطفة الكراهية أو النفرة قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ

فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ١٩].

٤- تكليف الزوج بالإشراف والمسؤولية عن الأسرة قال تعالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء: ٣٤].

٥- تكليف الزوجة بالإشراف والمسؤولية عن البيت من الداخل يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**».(١)

٦- وجوب الرعاية من الأبوين لأولادهم والعدل بينهم عَنْ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رضي الله عنهما، وَهُوَ عَلَىٰ المِنْبَرِ يَقُولُ: أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا أَرْضَىٰ حَتَّىٰ تُشْهِدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَتَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟**»، قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَاتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ**»، قَالَ: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ.(٢)

٧- وجوب بر الوالدين والإحسان بهما قال تعالىٰ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا

---

(١) صحيح البخاري: (٨٩٣).

(٢) صحيح البخاري: (٢٥٨٧).

تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣].

تكوين المجتمع الصالح:

يهدف الإسلام إلىٰ تكوين المجتمع الصالح كما هدف إلىٰ الفرد الصالح والأسرة الصالحة، والمجتمع الصالح هو الذي ترتبط أفراده وأسره بقيم الإسلام العليا ويجعلها رسالة حياته ومحور وجوده.

ومن أهم القيم الإسلامية في هذا المقام هي:

أ- **التجمع علىٰ العقيدة**: المجتمع الإسلامي ليس مجتمعًا قوميًا أو إقليميًا وإنما هو مجتمع عقائدي وعقيدته هي الإسلام.

قد يكون أبناء هذا المجتمع من أجناس مختلفة أو ألوان مختلفة أو طبقات مختلفة ولكن هذا الاختلاف كله ينصهر أمام (**لا إله إلا الله محمد رسول الله**)، والإيمان الإسلامي ليس شعارًا وليس تعصبًا، وإنما هو حقيقة تستقر في النفس.

ب- **تقديس العمل الصالح**: سواء كانت صبغته دينية أم دنيوية وهو أصل مقرر معروف اعتبره القرآن ركنًا في كل دين مقرونًا بالإيمان بالله واليوم الآخر قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [البقرة: ٦٢]

ج- **الدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: أصل من

أصول الدين فلا يكفي أن يكون المرء صالحًا في نفسه غافلًا عن فساد غيره كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

د- **الجهاد في سبيل الله حماية للحق وتثبيتًا للخير وتأمينًا للدعوة ومنعًا للفتنة** فالجهاد أصل إسلامي لا ينكره مسلم ولا يجهل منزلته وفضله حيث قال تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾ [النساء: ٧١]، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

هـ - **وتثبيت الفضائل الخلقية في شتىٰ جوانب الحياة ونشرها وحمايتها،** من عدل وإحسان وبر وصلة وتعاون علىٰ البر والتقوىٰ وطهارة القلب من الغل والحسد والرياء والنفاق وحب الدنيا، كلها من الركائز المعنوية التي لا يقوم مجتمع مسلم إلا عليها.

رابعًا: وضوح المناهج والطرق:

يتميز الإسلام كذلك بوضوح منهجه وطرقه التي وضعها للوصول إلىٰ غايته المثلىٰ وأهدافه العليا، ومن هذه الطرق:

أ- **عبادات وشعائر** تغذي الروح وتزكي النفس وتربي الإرادة وتدرب الإنسان علىٰ كمال العبودية لربه تعالىٰ.

وعلىٰ رأس هذه العبادات والشعائر الكبرىٰ من الصلاة والزكاة والحج والصيام حيث نوع الإسلام بها فمنها بدني كالصلاة والصيام، ومنها مالي كالزكاة، ومنها ما يجمع بينهما كالحج والعمرة.

إن هذه العبادات وسائل فذة للتربية الروحية والأخلاقية والاجتماعية ومناهج ربانية لتدريب المسلم علىٰ السلوك الأمثل والحياة المثلىٰ.

ب- ومن أخلاق وفضائل تقاوم الأنانية وتربي روح الغير وهي أخلاقية فطرية واقعية شاملة متوازنة.

ج- ومن آداب وتقاليد، تربي الأذواق وتحمي الأخلاق وتجمل الحياة وتصنع وحدة المظهر مع الخير وتصون المجتمع من عبث المتحللين وتزمت المتزمتين، وهي آداب تصحب المسلم في حياته كلها: في مأكله ومشربه......الخ.

وهي آداب تحرص علىٰ ربط المسلم بالله تعالىٰ في كل أحواله فهو ينام علىٰ ذكر الله ويستيقظ علىٰ ذكر الله...الخ.

د- ومن نظم وتشريعات للفرد والأسرة والمجتمع:

فهي ترسم للفرد طريقه وتحدد له سلوكه وتبين له الحلال والحرام، وهي للأسرة دعائم وركائز تحفظها أن تنهار فتوضح لكل طرف من أطراف الأسرة ما عليه من واجبات ومَا لَهُ من حقوق، وهي للمجتمع ضوابط وموازين مهمتها أن تقيم العدل وتحمي الإخاء وتمنع التنازع وتحفظ علىٰ الناس دماءهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم و نسلهم.

اعتراض مردود:

سيقول بعض الناس: إن كان الإسلام بهذا الوضوح فما بال هذه الفرق التي ظهرت باسمه عبر التاريخ؟

وما بال هذا الانقسام القائم بين السنة والشيعة؟

وبين السلفية والصوفية؟

وبين المذهبين وبين اللامذهبيين؟..!

نستطيع أن نؤكد بكل قوة: إنه لا يوجد في العالم كله (أيديولوجية) دينية ولا وصفية تملك من الوضوح والوحدة ما يملكه هذا الإسلام.

وإن الإسلام الذي نصفه بالوضوح ليس إسلام فرقة من الفرق بل إنه إسلام القرآن والسنة، إسلام الصحابة ومن تبعهم بإحسان أي الإسلام الأول قبل أن تظهر هذه الفرق التي فرقت الدين شيعًا.

فمن نعم الله تعالىٰ علىٰ الأمة الإسلامية أنه تعالىٰ تولىٰ بنفسه حفظ كتابها وهو القرآن الكريم قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]

كما أن سنة محمد ﷺ قد حفظت منتقاة مغربلة لتكون التبيان النظري والعملي لهذا القرآن.

ولقد حدد الإسلام المرجع الذي يحتكم إليه المسلمون إذا اختلفوا وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ

وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]، وقد أجمع المسلمون منذ الصدر الأول للإسلام علىٰ أن الرد إلىٰ الله يعني الرد إلىٰ كتابه والرد إلىٰ رسوله ﷺ يعني الرد إلىٰ سنته.

الإيديولوجيات الحديثة وغموضها:

إن هذه الإيديولوجيات الحديثة البراقة التي تظهر في العالم كله مازالت تفتقر إلىٰ مجرد تعريف دقيق يحدد مدلولها ويوضح طبيعتها ومفاهيمها ولهذا يختلفون حولها في كل شيء حتىٰ في معناها: ما هو؟

خذ مثلاً: الديمقراطية:

فنحن لا نكاد نجد أيديولوجية اجتماعية ولا تنظيمية سياسية من الليبرالية إلىٰ الاشتراكية إلىٰ الشيوعية وحتىٰ النازية إلا وتدعي كل منها أنها هي (الديمقراطية) الحقة وأن ما عداها ديمقراطية زائفة، فبات الناس حائرون أي من هذه الديمقراطية هو الأصيل وأيها المدعي؟

وكل من هذه الفئات تعتمد علىٰ معايير اجتماعية أو وصفية لتبرير منهجها وأسلوبها، فمفكرو الديمقراطية الغربية يعتمدون المعيار السياسي ويميزون ديمقراطيتهم بالحرية السياسية علىٰ حين يعتمد الماركسيون المعيار الاقتصادي فيميزون ديمقراطيتهم بالحرية الاقتصادية.



رابعًا: الواقعية

وهذه خصيصة أخرىٰ من خصائص المنهج الرباني وهي (الواقعية).

ماذا نعني بالواقعية:

لا نقصد بالواقعية إنكار كل ما وراء الحس، واعتبار الواقع هو الأشياء المحسة فقط وإنكار ما يسمىٰ بالوحي والفطرة، كلا بل نعني بالواقعية: مراعاة واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعية ولكنه يدل علىٰ حقيقة أكبر منه، وهو وجود الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا، ومن هنا لم يهمل الإسلام في توجيهاته الفكرية واقع الكون وواقع الحياة وواقع هذا الإنسان، لأن الذي يشرع للإنسان هو خالق الكون والحياة والإنسان، يقول الله تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

موقف المذاهب والفلسفات الأرضية:

لقد أتت الأنظمة والمذاهب والفلسفات الأرضية قاصرة في نظرتها لواقع الإنسان والحياة وفي رعايتها له، ولهذا نجد فيها كثيرًا من الأوهام والتخيلات التي لا يقوم عليها الواقع.

خذ مثلًا الشيوعية: لقد بنت فلسفتها علىٰ أساس إقامة المساواة الاقتصادية بين الناس جميعًا بحيث لا يأخذ أحد من المجتمع الشيوعي أكثرَ

من حاجته، ومع ذلك لم يتحقق هذا الحلم بل حدث العكس، والواقع يثبت أن الشيوعيين يزدادون بعدًا عن هذا الحلم.

ففكرة (المساواة الاقتصادية) التي ضحىٰ الشيوعيون من أجلها بالحريات الفردية فكرة وهمية لا تستند إلىٰ الواقع ولهذا خسر الناس الحرية ولم يكسبوا المساواة، وكذلك دعاة (المذاهب الفردية) لم يسلموا مما سقط فيه خصومهم من الجماعيين.

موقف الأديان الوصفية والمرحلية:

ومثل المذاهب الأرضية: الديانات الوصفية كالبوذية و الكونغشوسية وكذلك الأديان السماوية التي شرعها الله لمرحلة محدودة ولم يُرِدْهَا رسالةً عامةً خالدةً لكل البشر في كل الأزمان فجاءت تحمل طابعَ زمنِها ومرحلتِها كما أنَّ الله لم يتكفَّل بحفظها فامتدت إليها يد التحريف اللفظي والمعنوي.

والديانة المسيحية مثالٌ بارزٌ لما نقول، فقد جاءت علاجًا وقتيًا لحالة خاصة تتمثل في تكالب اليهود علىٰ المادة وبعدِهم عن روح التدين الحق، فعالجت الإغراق في الماديات بإغراق مقابل في الروحانيات، وكثيرًا ما يكون علاج التطرف بتطرف عكسي، ولكن هذا في العلاج الوقتي المحدود، لا العلاج الدائم والشامل.

ميزة الإسلام:

أمَّا الإسلام فهو كلمات الله الباقية لكافة الخلق، ورحمة الله الشاملة للعالمين، وهو الحق الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾

[فصلت: ٤٢]، ولهذا ضمنه الله من التعاليم ما يليق بحال البشر أين كانوا، ومتىٰ كانوا، وكيف كانوا، ولا عجب أن راعىٰ الإسلامُ الواقعَ في كل ما دعا إليه الناس، **من عقائد وعبادات وأخلاق وتشريعات:**

۞ أولاً: واقعية العقيدة الإسلامية:

- جاء الإسلام بعقيدة واقعية، لأنها تصف حقائق قائمة في الوجود لا أوهام متخيلة في العقول.

- فالعقيدة الإسلامية تدعوا إلىٰ الإيمان بإله واحد، دلَّ علىٰ نفسه بآياته التكوينية وآياته التنزيلية مما أوحىٰ به إلىٰ رسله، فهو ليس كإله الأساطير التي تتحدث عنه أقاصيص اليونان وحكايات الرومان وغيرهم.

- وقد وصف القرآن هذا الإله الواحد بأوصاف، ونعته بأسماء تجمع بين الجلال والجمال والقوة والرحمة وهي أسماء ملائمة مع عمله سبحانه في الكون.

- وهي تدعو إلىٰ الإيمان برسول بعثه الله ليختم به النبوات ويتمم به مكارم الأخلاق.

- هذا الكتاب الإلهي هو القرآن والذي يخاطب في الناس عقولهم وقلوبهم معًا ويستثير فيهم عوامل الرغبة والرهبة جميعًا فهو يقرن الوعد بالوعيد ويشوق إلىٰ الجنة ويخوف من النار.

- و تدعوا إلىٰ الإيمان بحياة أخرىٰ بعد هذه الحياة، يُجزَىٰ فيها كلُّ مكلف بما عمل خيرًا كان أو شرًا، ثوابًا وعقابًا.

- وفي الإيمان بالجزاء الإلهي العادل علىٰ الخير والشر في الدنيا، ثوابًا وعقابًا في الآخرة، ما يغذي الإحساس الفطري الأصيل بضرورة القصاص من الظالم الذي أفْلَتَ من يد العدالة الدنيوية، والمثوبة لمن فعل الخير ودعا إليه ولم يجزىٰ إلا بالتنكير والعذاب قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: ٢١- ٢٢].

- وفي الإيمان بالجنة والنار وما فيهما من نعيم وعذاب حسي ومعنوي مطابقة لواقع الإنسان من حيث هو جسم وروح لكل منهما مطالبه وحاجاته.

ثانيًا: واقعية العبادات الإسلامية:

وجاء الإسلام بعبادات واقعية، فأخذ بعين الاعتبار الطاقة المحدودة للإنسان فلم يكلفه ما يحرجه ويشق عليه قال تعالىٰ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٨].

- لقد راعىٰ واقع الحياة وظروفها الأسرية والاجتماعية والاقتصادية، فلم يطلب من المسلم الانقطاع للعبادة، كالرهبان في الأديرة، بل لم يسمح له بالانقطاع لو أراد وإنما كلف المسلم عبادات محدودة تصله بربه ولا تقطعه عن مجتمعه.

- وعرف الإسلام طبيعة الملل في الإنسان، فنوَّعها ولوَّنها بين عبادات

بدنية كالصلاة والصيام، وأخرىٰ مالية كالزكاة والصدقات، وثالثة جامعة بينهما كالحج والعمرة، كما جعل بعضها يوميًا كالصلاة، وبعضها سنويًا كالصيام والزكاة، وبعضها مرة في العمر كالحج، ثم ترك الباب مفتوحًا لمن أراد مزيدًا من الخير فشرع التطوع بنوافل العبادات قال تعالىٰ: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٨٤].

- وراعىٰ الإسلام الظروف الطارئة للإنسان كالسفر والمرض ونحوهما، فشرع الرخص والتخفيضات مثل: صلاة المريض قاعدًا أو مضطجعًا علىٰ جنب، وفطر المريض في رمضان، وفطر الشيخ الكبير والمرأة العجوز مع الفدية قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ثالثًا: واقعية الأخلاق الإسلامية:

وجاء الإسلام بأخلاق واقعية، فاعترف بالضعف البشري وبالدوافع البشرية.

- فلم يوجب الإسلام علىٰ من يريد الدخول في الإسلام أن يتخلىٰ عن ثروته كما يحكي الإنجيل عن المسيح أنه قال لمن أراد اتّباعه: بع مالك واتبعني! بل راعىٰ الإسلام حاجة الفرد والمجتمع إلىٰ المال وأمره بتنميته والمحافظة عليه.

- ولم يجئ في القرآن ولا السنة ما جاء في الإنجيل: (أحبوا أعداكم...باركوا لاعنيكم... من ضربك علىٰ خدك الأيمن فأدر له الأيسر

ومن سرق قميصك فأعطه إزارك) فقد يجوز هذا الكلام في مرحلة محدودة، ولكنه لا يصلح توجيهًا عامًا خالدًا، فمطالبة الإنسان بمحبة عدوه قد يكون فوق ما يحتمله، ولهذا اكتفىٰ الإسلام بمطالبته بالعدل مع عدوه قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[المائدة: ٨]

كما تجلت واقعية الإسلام حين شرع مقابلة السيئة بمثلها بلا عدوان، ولكن رغب بالعفو والمغفرة للمسيء وهذا واضح في مثل قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورىٰ: ٤٠].

- **ومن واقعية الأخلاق الإسلامية**: أنها أقرت التفاوت الفطري والعملي بين الناس فليس كل الناس في درجة واحدة في الالتزام بما أمر الله به من أوامر والانتهاء عما نهىٰ عنه من نواه، فهناك الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات.

فالظالم لنفسه: هو المقصر، التارك لبعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

والمقتصد: هو المقتصر علىٰ فعل الواجبات، وإن ترك المندوبات وعلىٰ ترك المحرمات وإن فعل المكروهات.

أما السابق: هو الذي يزيد علىٰ فعل الواجبات، أداء السنن

والمستحبات، و يزيد علىٰ ترك المحرمات، ترك الشبهات والمكروهات، كما قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

- **ومما يكمل هذا المعنىٰ**: أن الأخلاق الإسلامية لم تفترض في أهل التقوىٰ أن يكونوا معصومين من كل ذنب، بل يعصون، ولكن مزية المتقين إنما هي في التوبة والرجوع إلىٰ الله كما وصفهم الله بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وإذا تأملنا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ **فإننا نستفيد الآتي**:

١ - أنَّ المؤمن المذنب سريع العودة والأوبة، وهو في صراع إذا غلبته نفسه ففعل فاحشةً، أو ظلم إنسانًا سريعًا ما يستغفر.

٢ ـ أن المؤمن المذنب لا يصر علىٰ المعصية، ولا يقيم عليها لأنه من باب الاعتقاد يعتقد أنها معصية، ومهلكة، ثم هو من باب العمل لا يقيم عليها، لأنها مهلكة، وتسبب له غضب الله تعالىٰ، وتستدعي بطش الله ﷻ.

- ومن واقعية الأخلاق الإسلامية أنها راعت الظروف الاستثنائية كالحرب فأباحت من أجلها مالا يباح في ظروف السلم مثل الكذب لتضليل

العدو قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْحَرْبُ خدْعَةٌ**».(١)

رابعًا: واقعية التربية الإسلامية:

والتربية الإسلامية كذلك تربية واقعية تتعامل مع الإنسان كما هو: لحمًا ودمًا وفكرًا وانفعالًا وروحًا.

لذلك نجد الإسلام يربي المسلم على الحياة الواقعية المتوازنة، فلا يدعه يغرق في اللهو فلا يُبقي له شيئًا لربه، كما لا يدعه يغلوا في التعبد فلا يُبقي له شيئًا لقلبه.

كما حمل الإسلام الآباء تبعة توجيه أولادهم وحسن تربيتهم كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: ٦].

ويهتم الإسلام بسن الطفولة لأنها أكثر قابلية للتعلم والتأثر وهنا يأمر الآباء بتدريب الأطفال على الطاعات وأداء الفرائض وأمرهم بالابتعاد عن المنهيات والنواهي.

خامسًا: واقعية الشريعة الإسلامية:

وجاء الإسلام كذلك بشريعة واقعية حيث لم تغفل الواقع في كل ما أحلت وحرمت، ولم تهمل الفرد والأسرة والمجتمع في كل ما وصفته من أنظمة وقوانين:

---

(١) صحيح مسلم: (١٧٣٩).

- **في التحليل والتحريم:**

١- إن شريعة الإسلام لم تحرم شيئًا يحتاج إليه الإنسان في واقع حياته كما لم تبح له شيئًا يضره في الواقع كالخمر والزنا...الخ.

٢- وراعت الشريعة فطرة البشر في الميل إلىٰ الترويح عن النفس فرخصت في أنواع من اللهو كالسباق وألعاب الفروسية وغيرها، إذا لم تقترن بقمار ولا تصد عن ذكر الله وعن الصلاة فمثلًا: أذن النبي ﷺ للحبشة أن يلعبوا في مسجده بالحراب وسمح لزوجه عائشة رضي الله عنها أن تنظر إليهم حتىٰ اكتفت.

وكذلك راعت الشريعة فطرة المرأة وواقعها في حب الزينة فأباحت لها بعض ما حرمت علىٰ الرجال كالتحلي بالذهب ولبس الحرير.

٣- **ومن واقعية الشريعة**: أنها أباحت بعض المحرمات في حالات الضرورة القصوىٰ فمثلًا: أباحت أكل لحمِ الخنزير في حال كان الإنسان في صحراء ولا يجد ما يأكله، فخوفًا من أن يموت أحلَّ له الشرع أن يأكل لحم الخنزير أو الميتة.

٤- ومن واقعية الشريعة أنها عرفت ضعف الإنسان أمام كثير من المحرمات فسدت الباب إليها بالكلية، ولهذا حرمت قليلها وكثيرها كما في الخمر. كما عدت ما يوصل إلىٰ الحرام حرامًا كما في تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية.

- **في تشريعات الزواج والأسرة:**

٥- ومن واقعية الشريعة الإسلامية أنها راعت قوة الدوافع الجنسية لدى الإنسان فلم تهملها، كما فعلت بعض الفلسفات، فشرعت إشباع الدوافع الجنسية بطريقة نظيفة، تضمن بقاء الإنسان وارتفاعه عن الحيوانية، وذلك بشرعية (**نظام الزواج**) يقول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء: ٢٦- ٢٨]، فالمفهوم من وصف الإنسان بالضعيف هو ضعفه أمام الغريزة الجنسية.(١)

- **في تعدد الزوجات:**

٦- ومن نظرة واقعية للحياة والإنسان كانت إباحة تعدد الزوجات، ولهذا التشريع أسبابه فما دام كل الرجال لا يستطيعون التحكم في غرائزهم فلماذا لا نتيح لهم طريق الزواج الحلال في العلانية بدل البحث عن الحرام في الخفاء.

فقد تكون الزوجة الأولى مصابة بمرض يطول أمده أو مبتلاة بالعقم...الخ.

فإذا كان عدد الصالحات للزواج من النساء أكثر من عدد القادرين عليه من الرجال فهناك ثلاثة احتمالات:

---

(١) راجع ما كتبته بفضل الله تعالى عن ضعف الإنسان في كتابي: (بصائر قرآنية).

أ- أن تقضي الفتاة عمرها في بيت أهلها عانسًا.

ب- أو البحث عن متنفس غير مشروع.

ج- أو الزواج من رجل متزوج، قادر علىٰ إحصانها، واقف من العدل بينها وبين ضرتها.

أما الاحتمال الأول: ففيه ظلم كبير لعدد من الناس.

أما الاحتمال الثاني: جرم في حق المرأة وفي حق الأخلاق وهو ما سار عليه الغرب، فقد حرم تعدد الزوجات وأباح تعدد العشيقات، أي الواقع فرض عليه التعدد ولكنه تعدد لا أخلاقي.

أما الاحتمال الثالث: فهو وحده الحل العادل والنظيف والإنساني والأخلاقي وهو الذي جاء به الإسلام.

- الطلاق:

٧- ومن واقعية الشريعة الإسلامية إباحتها للطلاق عند تعذر الوفاق بين الزوجين هذا مع تعظيم الإسلام لشأن العلاقة الزوجية عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَىٰ اللهِ الطَّلَاقُ**»(١)، ومع هذا أمر الإسلام الأزواج بالصبر والتريث، وعدم الاستجابة لعاطفة الكراهية إن أحسوا بها كما قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ

(١) سنن ابن ماجه: (٢٠١٨)، سنن أبي داود (٢١٧٨)، ضعيف الجامع: (٤٤).

وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

كما أن الإسلام لم يطرح الطلاق علىٰ أنه الحل الوحيد بل أعطىٰ حلولًا أخرىٰ قد تكون مفيدة لإعادة المحبة والألفة بين الزوجين، فالطلاق هو الحل الأخير بعد أن نأخذ كل الحلول السابقة.

ولقد أرغم الواقعُ المسيحية المعاصرة علىٰ الاعتراف بحق الطلاق برغم تحريمها الغليظ في الإنجيل وبهذا انتصرت شريعة الخالق علىٰ أوهام الخلق.

- في التشريعات الاجتماعية إباحة التملك الفردي:

٨- ومن واقعية الشريعة في المجال الاجتماعي والاقتصادي أنها اعترفت بالدافع الفطري الواقعي الأصيل في نفس الإنسان: واقع حق التملك، ولكنها لم تنسىٰ واقعًا آخر هو مصلحة المجتمع وحقوقه وحاجات الفئات الضعيفة من أبنائه فلهذا وضعت علىٰ هذه الملكية حدودًا وقيودًا شتىٰ: في اكتساب المال وفي التصرف فيه، وأوجبت فيه حقوقًا للناس كالزكاة والصدقات...

- شرعية الحد والقصاص والتعزير:

٩- ومن واقعية الشريعة أنها عملت بكل قوة علىٰ تطهير المجتمع من أسباب الجريمة وتربية الأفراد علىٰ الاستقامة، ولكنها لم تكتف بالوازع الأخلاقي وبالتربية وحدهما رغم أهميتهما، فمن الناس من لا يرتدع إلا بعقوبة زاجرة ولا تكفيه الموعظة الحسنة، ومن هنا أوجبت الشريعة العقوبات من الحدود والقصاص والتعزير، ولم تذهب إلىٰ ما يذهب إليه

الخياليون من الناس الذين ينادون بإلغاء عقوبة الإعدام إشفاقًا علىٰ القاتل المسكين دون أن ينظروا إلىٰ مصيبة المقتول وأهله وإلىٰ أمن المجتمع كله يقول الله تعالىٰ: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

- من دلائل الواقعية في التشريع:

ومن دلائل الواقعية في التشريع جملة من القواعد والمبادئ وهي:

١ - التيسير ورفع الحرج.

٢ - مراعاة سنة التدرج.

٣ - النزول عن المثل الأعلىٰ إلىٰ الواقع الأدنىٰ للضرورة.

- التيسير ورفع الحرج:

أما التيسير فهو روح يسري في جسم الشريعة كلها، وهذا التيسير مبني علىٰ رعاية ضعف الإنسان وضغط الحياة ومتطلباتها عليه، وشارع هذا الدين رؤوف رحيم لا يريد بعباده الإرهاق، إنما يريد لهم الخير والسعادة في الدنيا والآخرة فالقرآن سيرة للتنفيذ والتطبيق ليس فيها تكليف واحد يتجاوز طاقة المكلفين يقول الله تعالىٰ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقد نفىٰ القرآن كل تعنت وكل عسر وأثبت التخفيف واليسر يقول تعالىٰ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وجاءت الأحاديث الشريفة تؤكد هذا المعنىٰ: «**بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ**

السَّـمْحَةِ».(١)، وقَـالَ النَّبِـيُّ ﷺ: «**إِنَّمَـا بُعِثْـتُمْ مُيَسِّـرِينَ، وَلَـمْ تُبْعَثُـوا مُعَسِّرِينَ**».(٢)

كما كانت سمة الرسول ﷺ في كتب أهل الكتاب هي سمة الميسر يقول تعالىٰ: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ولا عجب أن شَرَعَ الإسلامُ الرخصَ عند وجود أسبابها مثل الترخيص في التيمم لمن خاف التضرر باستعمال الماء لجرح أو برد، وكذلك الترخيص في الصلاة قاعدًا لمن تضرر بالصلاة قائمًا، والصلاة بالإيماء مضطجعًا لمن تؤذيه الصلاة قاعدًا، وأنكر النبي ﷺ علىٰ من شد علىٰ نفسه وصام في السفر مع شعوره بشدة المشقة، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَرَأَىٰ زِحَامًا وَرَجُلًا قَدْ ظُلِّلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا؟**»، فَقَالُوا: صَائِمٌ، فَقَالَ: «**لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ**».(٣)

---

(١) مسند أحمد: (٢٢٢٩١).

(٢) صحيح البخاري: (٢٢٠).

(٣) صحيح البخاري: (١٩٤٦).

- مراعاة سنة التدرج:

ومن تيسير الإسلام علىٰ البشر أنه راعىٰ معهم سنة التدرج فيما يشرعه لهم تحليلًا أو تحريمًا.

فالصلاة فرضت أول ما فرضت ركعتين ركعتين ثم أقرت في السفر علىٰ هذا العدد وزيدت في الحضر إلىٰ أربع (الظهر والأربع والعشاء).

وكذلك الصيام فرض علىٰ التخيير ثم أصبح فرضًا لازمًا لكل صحيح مقيم لا عذر له يقول الله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وكذلك باقي الفرائض والأوامر جاءت بشكل متدرج.

والمحرمات أيضًا لم يأت تحريمها دفعة واحدة، وأوضح مثال معروف هو تحريم الخمر علىٰ مراحلَ معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي حتىٰ إذا نزلت الآيات في النهي عنها من سورة المائدة وفي ختامها ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: ٩١]، قال المؤمنون في قوة وتصميم: قد انتهينا يا رب.

وهذه السنة الإلهية في رعاية التدرج ينبغي أن تتبع في سياسة الناس، فإذا أردنا أن نقيم مجتمعًا إسلاميًا حقيقيًا فلا نتوهم أن ذلك يتحقق بقرار يصدر إنما يتحقق ذلك بطريق التدرج أي بالإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية.

- النزول عن المثل الأعلى إلى الواقع الأدنى:

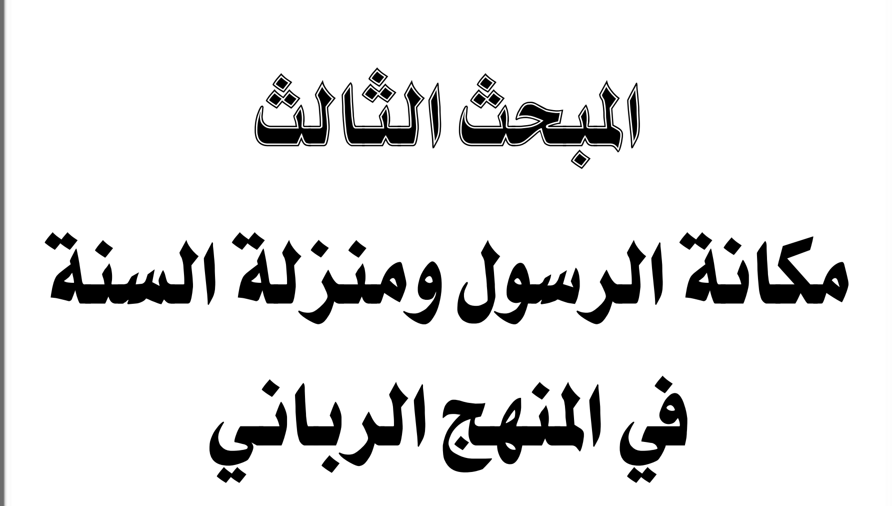
ومن دلائل الواقعية في الشريعة الإسلامية أنها لا تغمض عينها عن الواقع

العملي الذي يعيشه الناس محلقة في مثالية لاوجود لها بل نجدها تنزل إلىٰ أرض الواقع لتكيف أحكامها الفرعية تبعًا له حتىٰ لا تهدر مصالح العباد ولذلك أمثلة كثيرة **منها**: عدم تغيير المنكر بالقوة إذا أدىٰ إلىٰ منكر أكبر منه.

وهنا نشير إلىٰ أمر غاية في الأهمية وهو أن النزول عن المثالية المنشودة إلىٰ حكم الواقع الموجود ليس معناه الاستسلام للواقع إن كان الواقع هابطًا بل ينبغي أن تظل العزائم مشدودة لتحويل الواقع إلىٰ ما هو أفضل ولو بطريق التدرج.

- هذا هو الإسلام وهذه هي واقعيته في كل مجال من المجالات: لا يكلف الناس شططًا ولا يجعل عليهم حرجًا، إنه منهج الفطرة، منهج الله الذي يتعانق فيه الواقع والمثال.





المبحث الثالث

مكانة الرسول ومنزلة السنة في المنهج الرباني

موضع الرسول في هذا المنهج الرباني

الله تعالىٰ هو صاحب هذا المنهج، ولهذا يضاف إليه فيقال: منهج الله، أو «صراط الله» علىٰ حد تعبير القرآن العزيز، وإضافته إلىٰ الله تعني أن الله ـ جل شأنه ـ هو واضعه ومحدده، كما أنه غايته ومنتهاه.

أما الرسول ﷺ فهو الداعي إلىٰ هذا المنهج أو هذا الصراط، المبين للناس ما اشتبه عليهم من أمره، يقول تعالىٰ مخاطبا رسوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورىٰ: ٥٢ - ٥٣].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٥ - ١٦].

- ويقـــول الله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ١ - ٤].

ومن تدبر القرآن وجد الرسول ﷺ، فيه مجرد عبد مأمور تخاطبه سلطة أعلىٰ منه، محيطة به، قادرة عليه، تملك عتابه ولومه إذا اجتهد فأخطأ في بعض الأمور، كما في قصة ابن أم مكتوم، وأسرىٰ بدر، والمنافقين المتخلفين في غزوة تبوك، وزينب بنت جحش، وغيرها.

فالحقيقة أن القرآن هو كلام الله وحده قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

- فليس لمحمد ﷺ من هذا القرآن إلا التلقي والحفظ قال تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

- وقال تعالىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

- وقال تعالىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الأعلىٰ: ٦- ٧].

- وبعد التلقي والحفظ علىٰ الرسول ﷺ التبليغ والدعوة قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، ثم التفسير والبيان قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

والسنة التي قد بينت القرآن، هي نفسها وحي إلهي، ولكنه وحي غير متلو ولا معجز كالقرآن الكريم.

وما جاء في هذه السنة عن طريق الاجتهاد، فإن الله تعالىٰ لا يقرُّه علىٰ الخطإ فيه، بل ينزل الوحي مصححًا ومصوبا، أو مثبتًا ومؤكدًا.

الاستغناء عن السنة بالقرآن مخالف القرآن:

ثم إن الذين يزعمون الاستغناء عن السنة بالقرآن يخالفون ـ أول ما يخالفون ـ القرآن ذاته مخالفة صريحة.

فالقرآن يأمر بطاعة الرسول، بجوار طاعة الله تعالىٰ، وذلك في عدد من الآيات الكريمة.

بل اعتبر القرآن الكريم طاعة الرسول طاعة لله تعالىٰ، كما اعتبر بيعته بيعة لله قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

وهذه بعض الآيات الآمرة بطاعة الرسول مع طاعة الله:

- قال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]. وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: ٢٠].

- وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ

وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

ولو كانت طاعة الرسول تعني اتباع القرآن وحده، لما كان هناك معنىٰ لعطف الأمر بطاعته علىٰ طاعة الله تعالىٰ، إذ العطف يقتضي المغايرة، وقد طلب الطاعة - في غير موضع - لكل منهما. فأفاد أن لكل منهما طاعة مستقلة، وللعلامة ابن القيم كلام جيد في معنىٰ الآية التي ذكرناها من سورة النساء.(١)

جل أحكام الفقه مرجعها السنة:

والحق الذي لا مراء فيه: أن جل الأحكام ـ التي يدور عليها الفقه في شتىٰ المذاهب المعتبرة ـ قد ثبتت بالسنة.

ومن طالع كتب الفقه تبين له ذلك بكل جلاء! ولو حذفنا السنن، وما

---

(١) يقول ابن القيم في إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٣٨). وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] فَأَمَرَ تَعَالَىٰ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَأَعَادَ الْفِعْلَ إعْلَامًا بِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ تَجِبُ اسْتِقْلَالًا مِنْ غَيْرِ عَرْضِ مَا أَمَرَ بِهِ عَلَىٰ الْكِتَابِ، بَلْ إذَا أَمَرَ وَجَبَتْ طَاعَتُهُ مُطْلَقًا، سَوَاءٌ كَانَ مَا أَمَرَ بِهِ فِي الْكِتَابِ أَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ، فَإِنَّهُ أُوتِيَ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، وَلَمْ يَأْمُرْ بِطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ اسْتِقْلَالًا، بَلْ حَذَفَ الْفِعْلَ وَجَعَلَ طَاعَتَهُمْ فِي ضِمْنِ طَاعَةِ الرَّسُولِ؛ إيذَانًا بِأَنَّهُمْ إنَّمَا يُطَاعُونَ تَبَعًا لِطَاعَةِ الرَّسُولِ، فَمَنْ أَمَرَ مِنْهُمْ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ وَجَبَتْ طَاعَتُهُ، وَمَنْ أَمَرَ بِخِلَافِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ فَلَا سَمْعَ لَهُ وَلَا طَاعَةَ كَمَا صَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**» وَقَالَ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**» وَقَالَ فِي وُلَاةِ الْأُمُورِ: «**مَنْ أَمَرَكُمْ مِنْهُمْ بِمَعْصِيَةِ اللهِ فَلَا سَمْعَ لَهُ وَلَا طَاعَةَ**».

تفرع عليها واستنبط منها من تراثنا الفقهي، ما بقي عندنا فقه يذكر!!

ولهذا كان مبحث «السنة» - باعتبارها الدليل التالي للقرآن[1] - في

---

(١) بين السنة والقرآن:

وإذا كان كل من القرآن والسنة مصدرًا ربانيًا للهداية والتشريع، فما لا ريب فيه أنهما ليسا بمنزلة واحدة، وأن بينهما فروقًا أساسية:

(أ) فالقرآن كله قطعي الثبوت، لأنه منقول بالتواتر اليقيني، جيلًا عن جيل، أما السنة فأقلها ما ثبت بالتواتر، وأكثرها إنما ثبت بطريق الآحاد.

(ب) القرآن كله ثبت بطريق الوحي الجلي بواسطة نزول أمين الوحي - جبريل عليه السلام - على قلب النبي ﷺ: كما نطق بذلك القرآن نفسه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

أما السنة فمنها ما ثبت بطريق الإلهام والنفث في الرُّوع، وما ثبت بالرؤيا الصادقة، وكلا الطريقين ليس من الوحي الجلي. ومنها ما يثبت بطريق الاجتهاد، الذي يقره الله تعالىٰ عليه، وهي ما يسمىٰ «الوحي الباطن»، فإن الله تعالىٰ لا يقره علىٰ خطأ، حتىٰ لا يتبع فيه.

(ج) القرآن لفظه ومعناه من الله تعالىٰ، أما السنة - أعني القولية منها - فلفظها من النبي ﷺ. ولهذا لا يجوز رواية القرآن بالمعنىٰ، بخلاف الحديث، أو السنة.

(د) القرآن محفوظ بجملته وتفصيله، بألفاظه ومعانيه، بصريح وعد الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

أما السنة فهي محفوظة ضمنا، بحفظ الله القرآن، باعتبارها بيانًا له، وحفظ المبين يستلزم حفظ ما يبينه، كما أن حفظ السنة إنما هو حفظ لها في الجملة لا في التفصيل.

(هـ) القرآن متميز بالإعجاز، فهو الآية العظمىٰ لمحمد ﷺ، بخلاف الحديث، وإن كان في قمة البلاغة البشرية.

=

....
=

السنة الصحيحة لا تعارض القرآن:

السنة ـ إذن ـ مبينة للقرآن، أو مؤكدة له، أو شارعة لأحكام مستقلة في إطار مقاصده وكلياته، وليست معارضة له، ولا توجد سنة صحيحة صريحة تعارض القرآن.

وما وجد من ذلك فلا بد أنه صحيح غير صريح، أو صريح غير صحيح. وغير الصحيح لا اعتبار له، وغير الصريح يجب تأويله بما يتفق مع القرآن، لأن القرآن هو الأصل، والفرع لا يخالف أصله.

ويحسن بي أن أنقل هنا ما ذكره المحقق ابن القيم عن علاقة السنة بالقرآن، قال رحمه الله:

وَالسُّنَّةُ مَعَ الْقُرْآنِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ تَكُونَ مُوَافِقَةً لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ؛ فَيَكُونُ تَوَارُدُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عَلَىٰ الْحُكْمِ الْوَاحِدِ مِنْ بَابِ تَوَارُدِ الْأَدِلَّةِ وَتَظَافُرِهَا.

الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ بَيَانًا لِمَا أُرِيدَ بِالْقُرْآنِ وَتَفْسِيرًا لَهُ.

الثَّالِثُ: أَنْ تَكُونَ مُوجِبَةً لِحُكْمٍ سَكَتَ الْقُرْآنُ عَنْ إيجَابِهِ أَوْ مُحَرِّمَةً لِمَا سَكَتَ عَنْ تَحْرِيمِهِ، وَلَا تَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْأَقْسَام، فَلَا تُعَارِضُ الْقُرْآنَ بِوَجْهٍ مَا، فَمَا كَانَ مِنْهَا زَائِدًا عَلَىٰ الْقُرْآنِ فَهُوَ تَشْرِيعٌ مُبْتَدَأٌ مِنْ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم -: تَجِبُ طَاعَتُهُ فِيهِ، وَلَا تَحِلُّ مَعْصِيَتُهُ، وَلَيْسَ هَذَا تَقْدِيمًا لَهَا عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ، بَلْ امْتِثَالٌ لِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنْ طَاعَةِ رَسُولِهِ، وَلَوْ كَانَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - لَا يُطَاعُ فِي هَذَا الْقِسْمِ لَمْ يَكُنْ لِطَاعَتِهِ مَعْنًىٰ، وَسَقَطَتْ طَاعَتُهُ الْمُخْتَصَّةُ بِهِ، وَإِنَّهُ إذَا لَمْ تَجِبْ طَاعَتُهُ إلَّا فِيمَا وَافَقَ الْقُرْآنَ لَا فِيمَا زَادَ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ طَاعَةٌ خَاصَّةٌ تَخْتَصُّ بِهِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ} [النساء: ٨٠] وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ لَا يَقْبَلَ حَدِيثًا زَائِدًا عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ؛ فَلَا يُقْبَلُ حَدِيثُ تَحْرِيمِ الْمَرْأَةِ عَلَىٰ عَمَّتِهَا وَلَا عَلَىٰ خَالَتِهَا، وَلَا حَدِيثُ التَّحْرِيمِ بِالرَّضَاعَةِ لِكُلِّ مَا يَحْرُمُ مِنْ النَّسَبِ، وَلَا حَدِيثُ خِيَارِ الشَّرْطِ، وَلَا أَحَادِيثُ الشُّفْعَةِ، وَلَا حَدِيثُ الرَّهْنِ فِي الْحَضَرِ مَعَ أَنَّهُ زَائِدٌ عَلَىٰ مَا فِي الْقُرْآنِ، وَلَا حَدِيثُ مِيرَاثِ الْجَدَّةِ، وَلَا حَدِيثُ تَخْيِيرِ الْأَمَةِ إذَا أُعْتِقَتْ تَحْتَ زَوْجِهَا، وَلَا حَدِيثُ مَنْعِ الْحَائِضِ مِنْ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ، وَلَا حَدِيثُ وُجُوبِ الْكَفَّارَةِ عَلَىٰ مَنْ

=

....

=

جَامَعَ فِي نَهَارِ رَمَضَانَ، وَلَا أَحَادِيثُ إِحْدَادِ الْمُتَوَفَّىٰ عَنْهَا زَوْجُهَا مَعَ زِيَادَتِهَا عَلَىٰ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ الْعِدَّةِ، فَهَلَّا قُلْتُمْ: إِنَّهَا نَسْخٌ لِلْقُرْآنِ وَهُوَ لَا يُنْسَخُ بِالسُّنَّةِ، وَكَيْفَ أَوْجَبْتُمْ الْوِتْرَ مَعَ أَنَّهُ زِيَادَةٌ مَحْضَةٌ عَلَىٰ الْقُرْآنِ بِخَبَرٍ مُخْتَلَفٍ فِيهِ؟ أ.هـ. انظر: إعلام الموقعين: (٢/ ٢٢٠).

مرجع السنة إلىٰ القرآن:

هذه هي منزلة السنة من الكتاب: منزلة البيان من المبين، فالقرآن هو الأصل والسنة شارحته وموضحته، وكل ما في السنة يرجع إلىٰ الكتاب، بوجه من الوجوه، وقد أوضح ذلك الإمام الشاطبي في الموافقات، وأقام عليه الأدلة، وضرب له الأمثلة.

فتحريم الجمع بين المرأة وعمتها، أو المرأة وخالتها، مثلا ـ إنما هو ضرب من القياس علىٰ حكم القرآن في تحريم الجمع بين الأختين، للاشتراك في العلة التي نبه عليها الحديث بقوله: «**إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم**».

وتوريث الجدة نصيب الأم عند فقد الأم قياس لها علىٰ الأم، فهي أم من وجه.

وتحريم كل ذي ناب من السباع تطبيق لقوله تعالىٰ: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، كما أشار إلىٰ ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه.

وتحريم الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة، وما في معناها تطبيق لما حفل به القرآن من الحملة علىٰ الترف والمترفين، واعتبار الترف من أسباب الفساد والانحلال للأمة حتىٰ يدمرها تدميرا.

وتحريم الخلوة بالأجنبية تطبيق لقول القرآن: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، لأن النهي بقوله: (ولا تقربوا) يعني النهي عن مقدمات الزنىٰ، والخلوة منه.

ومثل ذلك: أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن مع شارب الخمر تسعة آخرين، وذلك يدخل في قوله تعالىٰ عن الخمر: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠]، والاجتناب أبلغ من مجرد الترك، فيتضمن العصر والسقي والحمل والبيع وما في معناها.

=

جميع كتب أصول الفقه، ولدىٰ جميع المذاهب المعتبرة مبحثا إضافيا طويل الذيول، يتناول حجيتها وثبوتها وشروط قبولها، ودلالتها، وأقسامها، إلىٰ غير ذلك مما لا يخفىٰ علىٰ الدارسين.

وهذا ينطبق علىٰ جميع المذاهب، من مذهب داود وابن حزم الظاهري المنكرين للقياس والتعليل، إلىٰ أبي حنيفة وأصحابه الذين يعرفون باسم «مدرسة الرأي» في تاريخ الفقه الإسلامي. (١)

ميزة الإسلام بين المناهج القائمة في العالم:

إن الإسلام هو المنهج أو المذهب أو النظام الوحيد في العالم، الذي مصدره كلمات الله وحدها، غير محرفة ولا مبدلة ولا مخلوطة بأوهام البشر، وأغلاط البشر، وانحرافات البشر.

والمناهج أو الأنظمة التي نراها في العالم إلىٰ اليوم ثلاثة، فيما عدا الإسلام طبعا:

١ - منهج، أو مذهب، أو نظام مدني بشري محض، مصدره التفكير

=

وقال ابن برجان: ما قال النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن، وفيه أصله، قرب أو بعد، فهمه من فهمه، وعمه عنه من عمه، قال تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فليس من السنة في شيء خارج عن القرآن، فضلا عن شيء يخالفه ويعارضه. وإنما فيها ما يبين إجماله، أو يخصص عمومه، أو يقيد إطلاقه.

(١) مدخل لمعرفة الإسلام (ص: ١١٨ - ٢١٩).

العقلي، أو الفلسفي لبشر فرد، أو مجموعة من الأفراد، كالشيوعية، والرأسمالية والوجودية، وغيرها.

٢- منهج أو نظام ديني بشري كذلك. مثل الديانة البوذية القائمة في الصين، واليابان، والهند، والتي لا يعرف لها أصل إلهي، أو كتاب سماوي، فمصدرها إذن فكر بشري.

٣- منهج أو مذهب ديني محرف، فهو ـ وإن كان إلهيا في أصله ـ عملت فيه يد التحريف والتبديل فأدخلت فيه ما ليس منه، وحذفت منه ما هو فيه، واختلط فيه كلام الله بكلام البشر، فلم يبق ثمة ثقة بربانية مصدره، وذلك كاليهودية والنصرانية، بعد ثبوت التحريف في التوراة والإنجيل نفسيهما، فضلا عما أضيف إليهما من شروح وتأويلات ومعلومات بشرية، بدلت المراد من كلام الله.

أما الإسلام فهو المنهج الفذ الذي سلم مصدره من تدخل البشر، وتحريف البشر، ذلك أن الله تعالىٰ تولىٰ حفظ كتابه بنفسه، وأعلن ذلك لنبيه ولأمته فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩].

إن المسلم له منهج معروف مستند لأصل ثابت، ولهذا حق للمسلم أن يتفاخر وأن يفخر بمصدره ومنهجه، فله أصل يستند إليه.

وكان وعد ربي حقًا، فقد صدّقت القرونُ المتوالية، علىٰ رغم ما حلَّ بالمسلمين فيها من كوارث مروعة، ونوازل هائلة، هذه النبوءةَ القرآنية، وبقي القرآن، كما أنزله الله، وكما تلاه الرسول ﷺ وكما نقله عنه الصحابة الكرام.



المبحث الرابع

ثمرات ربانية المصدر

ثمرات ربانية المصدر

إن هذه المزايا والثمرات نتيجة لسبب واحد هو كمال الله تعالىٰ صاحب هذا المنهج، ومصدره، أما المناهج والمذاهب الأخرىٰ، فيلازمها نقص البشر، وعجز البشر، وقصور البشر.

أولاً: العصمة من التناقض والتطرف:

العصمة من التناقض والتطرف الذي تعانيه المناهج والأنظمة البشرية والمحرفة، فالبشر بطبيعتهم يتناقضون ويختلفون من عصر إلىٰ عصر ومن مكان إلىٰ آخر، حتىٰ إن الإنسان يتناقض مع نفسه فنجد أن تفكيره وهو شاب مختلف ومتناقض مع تفكيره وهو كهل، فإذا كانت هذه هي طبيعة العقل البشري، وضرورة تأثره بالزمان والمكان، والأوضاع، والأحوال، فكيف نتصور براءته من التناقض والاختلاف، في ما يضعه من مناهج للحياة، سواء كانت مناهج للتصور والاعتقاد، أم للعمل والسلوك؟

إن الاختلاف والتناقض لازمة من لوازمه لاريب، وصدق الله العظيم إذ يشير إلىٰ ذلك فيقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

ومن مظاهر التناقض ما نراه ونلمسه في كل الأنظمة البشرية والدينية، الوضعية والمحرفة، من إفراط أو تفريط، كما هو واضح من موقفها من

الروحية والمادية، أو من الفردية والجماعية، أو من الواقعية والمثالية، أو من العقل والقلب أو من الثبات والتطور، وغيرها من المتقابلات، التي وقف كل مذهب أو نظام عند طرف منها مغفلاً الطرف الآخر، أو جائرًا عليه.

والسر في هذا بعد القصور البشري العام أن تفكير الإنسان في وضع فلسفة أو منهاج، أو مذهب، غالبًا ما يكون نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لرد فعل، وانعكاسًا لأوضاع آنية وأحوال بيئية، تؤثر في تصوره للأشياء، وحكمه علىٰ الأمور، شعر أم لم يشعر، شاء أم لم يشأ.

ولا يستطيع منصف أن ينزه أكابر الفلاسفة، وإن توافر فيهم الإخلاص في طلب الحقيقة من التأثر بأزمانهم وبيئاتهم، فضلًا عن التأثر بوراثاتهم وأمزجتهم الشخصية.

فبعد كل هذا كيف يمكن لنا أن نتصور أن الأنظمة البشرية بريئة من التناقض و الاختلاف، أما الإسلام فهو خالٍ من التناقضات والتطرف لأنه من عند الله تعالىٰ.

ثانيًا: البراءة من التحيز والهوى:

ومن ثمرات هذه الربانية في الإسلام اشتماله علىٰ العدل المطلق وبراءته من التحيز والهوىٰ ومما لا يسلم منه بشر كائنًا من كان.

أجل، لا يخلو بشر غير معصوم مهما يعل كعبه في العلم والتقىٰ من التأثر بالأهواء، والميول، والنزعات الشخصية، والأسرية، والإقليمية، والحزبية، ....

وإذا كان لبشر هوىٰ معين، يوجهه ويلون تفكيره، ويميل بحكمه إلىٰ حيث يهوىٰ ويحب، فهذه هي الطامة، والطامة هنا هو اجتماع الهوىٰ المتبع إلىٰ القصور البشري الذاتي، فزاد الطين بلة قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠] وقد قال الله لنبيه داود: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [ص: ٢٦] وسبيل الله هو سبيل الحق والعدل، المنزه عن التحيز والجور والانحراف.

وبذلك لا يسلم منهج وضعه البشر أو تدخلوا فيه من التأثير بالأهواء المضلة عن سبيل الله والمتحيزة إلىٰ جانب دون جانب.

أما (نظام الله) فقد وضعه رب الناس للناس.

وضعه من لا يتأثر بالزمان والمكان لأنه خالق الزمان والمكان.

وضعه من لا يتحيز لجنس أو نوع أو لون لأنه رب الجميع.

من هنا اعتبر القرآن ما عدا شريعة الله وحكمه **(أهواء)** ويجب الحذر منها ومن أصحابها قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية: ١٨]

ثالثًا: الاحترام وسهولة الانقياد:

ومن ثمرات الربانية أنها تضفي على النظام الرباني قدسية واحترامًا لا يظفر بهما أي نظام من صنع الإنسان، ومنشأ هذا الاحترام والتقديس اعتقاد المؤمن بكمال الله تعالىٰ وتنزهه عن كل نقص في خلقه وأمره، حيث أتقن كل شيء صنعه كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨]، وأحكم كل شيء شرعه، كما قال تعالىٰ: ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود: ١]، ويتبع هذا الاحترام والتقديس، الرضا بكل تعاليم هذا النظام وتقبله بقبول حسن، ويلزم هذا الاحترام والتقديس وحسن القبول المسارعة إلىٰ التنفيذ والطاعة.

فهو الحكيم فيما خلق وقدر، والحكيم فيما أمر ونهىٰ قال تعالىٰ: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ ﴾ [الملك: ٣]، ولا تجد في شرع الرحمن من تهافت قال تعالىٰ: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٤] وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [التين: ٨].

ويتبع هذا الاحترام والتقديس: الرضا بكل تعاليم هذا النظام وأحكامه، وتقبله بقبول حسن، مع انشراح الصدر، وإقناع العقل، وطمأنينة القلب.

ونكتفي هنا بذكر مثالين يتضح بهما موقف المسلمين والمسلمات في العهد النبوي من شرع الله تعالىٰ وأمره ونهيه.

أولهما: ما وقع من المؤمنين بالمدينة عقب تحريم الخمر:

فقد كان للعرب ولع بشرب الخمر ولذلك، ومن حكمة الله تعالىٰ جاء التحريم تدريجيا، عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، أَنَّهُ قَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الخَمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ، فَنَزَلَتِ الَّتِي فِي البَقَرَةِ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الخَمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ، فَنَزَلَتِ الَّتِي فِي النِّسَاءِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنَ لَنَا فِي الخَمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ، فَنَزَلَتِ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا.(١)

وبهذه الآية الفاصلة والتي حرمت الخمر تحريما باتًّا وبهذا حرم النبي ﷺ شربها وبيعها وإهداءها لغير المسلمين، فما كان من المسلمين حينذاك إلَّا أن جاؤوا إلىٰ مخزون الخمر وأوعيتها فأراقوها في طريق المدينة إعلانا عن براءتهم منها.

ثانيهما: موقف النساء المسلمات مما حرم الله عليهن من تبرج الجاهلية وما أوجب عليهن من الاحتشام والتستر، وذلك بأن يضربن بخمرهن علىٰ جيوبهن أي يشددن أغطية رؤوسهن بحيث تواري النحر والعنق والأذن،

---

(١) سنن أبي داود (٣/ ٣٢٥)، سنن الترمذي: (٥/ ١٠٣).

وهنا تروي لنا السيدة عائشة رضي الله عنها حال المؤمنات، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: «يَـرْحَمُ اللهُ نِسَـاءَ المُهَـاجِرَاتِ الأُوَلَ، لَمَّـا أَنْـزَلَ اللهُ: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا»(١).

* وعَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ قَالَتْ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ عَائِشَةَ، قَالَتْ: فَذَكَرْنَا نِسَاءَ قُرَيْشٍ وَفَضْلَهُنَّ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ، رضي الله عنها: إِنَّ لِنِسَاءِ قُرَيْشٍ لَفَضْلًا وَإِنِّي -وَاللهِ- وَمَا رَأَيْتُ أفضلَ مِنْ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ أَشَدَّ تَصْدِيقًا بِكِتَابِ اللهِ، وَلَا إِيمَانًا بِالتَّنْزِيلِ. لَقَدْ أُنْزِلَتْ سُورَةُ النُّورِ: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]، انْقَلَبَ إِلَيْهِنَّ رِجَالُهُنَّ يَتْلُونَ عَلَيْهِنَّ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ فِيهَا، وَيَتْلُو الرَّجُلُ عَلَىٰ امْرَأَتِهِ وَابْنَتِهِ وَأُخْتِهِ، وَعَلَىٰ كُلِّ ذِي قَرَابَةٍ، فَمَا مِنْهُنَّ امْرَأَةٌ إِلَّا قَامَتْ إِلَىٰ مِرْطها المُرَحَّل فَاعْتَجَرَتْ بِهِ، تَصْدِيقًا وَإِيمَانًا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابِهِ، فأصبحْنَ وَرَاءَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم الصُّبْحَ مُعْتَجِرَاتٍ، كأن علىٰ رؤوسهن الغربان. (٢)

هذا هو موقف النساء المؤمنات مما شرع الله لهن؛ موقف المسارعة إلىٰ تنفيذ ما أمر، واجتناب ما نهىٰ، بلا تردد، ولا توقف ولا انتظار، أجل لم ينتظرن يوما أو يومين أو أكثر حتىٰ يشترين أو يخطن أكسية جديدة تلائم غطاء الرؤوس، وتتسع لتضرب علىٰ الجيوب، بل أي كساء وجد، وأي لون تيسر، فهو الملائم والموافق، فإن لم يوجد شققن من ثيابهن ومروطهن،

(١) صحيح البخاري: (٤٧٥٨).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٦/ ٤٦). والحديث في سنن أبي داود: (٤١٠١).

وشددنها على رؤوسهن، غير مباليات بمظهرهن الذي يبدون به كأن على رؤوسهن الغربان، كما وصفت أم المؤمنين.(١)

رابعًا: التحرر من عبودية الإنسان للإنسان:

ومن ثمرات الربانية تحرر الإنسان من عبودية الإنسان، فليس لأي إنسان الأمر في تحريم شيء أو تحليله والذي يملك ذلك الحق هو الله وحده رب الناس فمن حقه وحده أن يأمرهم وأن ينهاهم وأن يحل لهم و يحرم عليهم.

ولا غرو أن أنكر القرآن الكريم على أهل الكتاب تنازلهم عن حريتهم التي ولدوا عليها، ورضاهم بالعبودية لأحبارهم ورهبانهم، الذين أصبحوا يملكون سلطة التشريع لهم، أمرًا ونهيًا، وتحليلًا وتحريمًا، دون أن يكون لأحد حق في اعتراض أو نقد أو مراجعة، وقد دمغ القرآن أهل الكتاب لذلك بالشرك وعبادة غير الله، وفي هذا يقول الله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، ولقد وضَّح لنا رسولنا ﷺ هذا الأمر، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: «**يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ**»، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ

(١) الحلال والحرام في الإسلام (ص: ٤٤٥).

أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ».(١)

ولما كانت دعوة الإسلام دعوةَ تحريرٍ شاملٍ للإنسان من العبودية لغير الله، وجدنا القرآن الكريم يوجه نداءه إلىٰ أهل الكتاب كافة ليتحرروا من العبودية لغير الله وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤]، وبهذه الآية كان يختم النبي ﷺ رسائله إلىٰ ملوك النصارىٰ وأمرائهم.



(١) سنن الترمذي: (٣٠٩٥)، وانظر السلسلة الصحيحة: (٣٢٩٣).



الفصل الثالث

لماذا نحتاج إلى الربانية

للربانية ثمار عاجلة يُحصّلها صاحبها في الدنيا قبل الآخرة، ولا يبالغ من يقول إن حاجتنا إليها ينبغي أن تكونَ أشدَّ من حاجتنا إلىٰ الطعام والشراب، وهذه بعض الأسباب التي توضح هذا المعنىٰ وتؤكّده.




المبحث الأول

تحقيق السعادة

إن للربانية ثمارًا عاجلةً كما أسلفنا، يُحصّلها العبد الرباني في الدنيا قبل الآخرة، وأول ثمرة من ثمرات الربانية هي تحقيق السعادة.

السعادة هي الكنز المفقود:

إنَّ كلَّ إنسانٍ علىٰ وجه البسيطة يسعىٰ إلىٰ السعادة ويبحث عنها ليلًا ونهارًا وسرًا وجهارًا، وربما تنفق كثيرٌ من الأموال طلبًا للسعادة.

قد يختلف الناس في مذاهبهم، وفي أعراقهم، وفي مشاربهم، بل قد يختلفون في مبادئهم، وغاياتهم، ومقاصدهم، إلا غاية واحدة ربما اتفقوا عليها، من أولهم إلىٰ آخرهم. هذه الغاية هي طلب السعادة.

إن المؤمن والكافر، والبر والفاجر، كل واحد منهم يريد السعادة، ولو سئل: لم تعمل هذا؟ ولأي شيء تفعل ذاك؟

لقال: أريد السعادة!! سواء أقالها بحروفها أم بمعناها، بمدلولها أم بحقيقتها.

والعجيب أن كثيرًا من الناس يخطئ طريقَ السعادة، كل الناس يريدون السعادة نعم، ولكنَّ كثيرًا منهم يخطئ هذا الطريق الموصل إليها، بل أستطيع أن أقول: إنَّ القلة القليلة هي التي تسلك سبيل السعادة الحقيقية.

كما أستطيع أن أقول جازمًا: تعس من ظنَّ أنَّ السعادة هي المأكل والمشرب والملبس.

إن السعادة هي الكنز الذي فقده كثير من الناس، وبحثوا عنه في غير مظانه، فليعلم هؤلاء أن السعادة كل السعادة في طاعة الله في القرآن والسنة في قراءة سير السلف الصالح، عندما يعمر الإيمان القلوب، وتسعد النفوس وإن جاعت البطن يومًا وشبعت يومًا.

كم من رجل كان يعيش السعادة الحقيقية، ثم انتقل منها إلىٰ السعادة الوهمية!!! فلم يحقق السعادة في الدنيا، ولن يحققها في الآخرة.

ومن هنا سنقف وقفات متأنية لنعلم حقيقة السعادة، وهل هي وهم أم حقيقة؟

۞ تعريف السعادة:

السعادة في اللغة: ضد الشقاوة، فلان سعيد، أي ضد الشقي.

والسعادة عند أهل التربية وعلماء النفس: هي ذلك الشعور المستمر بالغبطة، والطمأنينة، والأريحية، والبهجة، وهذا الشعور السعيد يأتي نتيجة للإحساس الدائم بخيرية الذات، وخيرية الحياة، وخيرية المصير.

وهنا نشير إلىٰ أنَّ هناك ثلاثةَ أركانٍ رئيسة تحقق معنىٰ السعادة الحقيقية وهي:

١ – خيرية الذات. ٢ – خيرية الحياة وهذا المهم. ٣– خيرية المصير.

۞ أوهام السعادة:

السعادة في المال:

كثير من الناس يتوهم أن السعادة في تكديس المال، وفي جمع الثروات،

وبناء العقارات والقصور.

والحقيقة أن السعادة ليست في جمع المال، وصدق الشاعر:

ولست أرىٰ السعادة جمع مال ... ولكن التقي هو السعيد

فليس كل صاحب مالٍ سعيدًا بل هناك الكثير من أرباب المال وأصحاب الثروات يعيشون في شقاء وتعاسة دائمة في حياتهم الدنيا قبل الآخرة لماذا؟

لأن أرباب المال يتعبون في:

١- جمع المال.

٢- حفظه واستثماره.

٣- القلق والخوف من فوات هذا المال وزواله.

كم من إنسان يملك المليارات ولكنه خائف! قلق!

لماذا كل هذا الخوف!؟

ولم كل هذا القلق!؟

إنه يخاف علىٰ هذا المال، يخاف أن تأتي هزة سياسية، أو يأتي لصوص فيسرقون هذا المال.

والعجيب أنَّ بعض الناس إذا أغدق الله عليهم المال يقول من جهله بالله: إن الله أكرمني بكرامتي عنده، ولنتأمل قوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفجر: ١٥]، فالله

يبين أن هذا الظن من العبد أن الله أكرمه بالمال ليس بصحيح!، قال تعالىٰ: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦]، فالإنسان قد يكون من أفجر الناس، ومن أخبث الناس؛ ولكن يعطيه الله المال فتنة. ومثال ذلك:

قصة قارون:

قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ [القصص: ٧٩] في قمة سعادته، حتىٰ إن قائلهم يقول: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص: ٧٩].

خرج في زينته فهو ذو حظ عظيم، كل هذا من أوهام السعادة، والنتيجة لكفره بأنعم الله كما يقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص: ٨١]. أي سعادة هذه وأي نهاية!؟

وعلىٰ هذا فقول أمية بن خلف، وأمثاله يوم القيامة: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴾ [الحاقة: ٢٨] لم يأت من فراغ، فبئس المال الذي لا يغني عن صاحبه شيئًا.

هل السعادة في كثرة الأولاد؟

لقد ظن آخرون أن السعادة في كثرة الأولاد، ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة قال سُبحَانَهُ وَتَعَالىٰ: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ ﴾ [المدثر: ١١ - ١٣].

۞ هل السعادة في الشهرة، كالرياضة، والفن؟

✍ **أقول:** لا؛ لأن الشهرة شقاء لا سعادة، ولأن الشهرة لا حقيقة لها إن لم ترتبط بتقوىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- والذي يتقي الله -سبحانه وتعالىٰ- لا يريد الشهرة؛ لأن الشهرة إذا ارتبطت بغير سبب أصيل فإنها تزول سريعا، وإذا زالت عن صاحبها عاش في شقاء، وتعاسة.

۞ هل السعادة في الشهادات:

ربما كانت في نيل أعلىٰ الشهادات، في أن يصبح الإنسان «دكتورا»!!.

والجواب بكل ثقة - لا.

۞ هل السعادة في المنصب:

إذن، لعل أصحاب السعادة هم أصحاب المناصب العالية المرموقة من قادة ووزراء وغيرهم؟

والجواب ليست السعادة في المنصب لأن المسئولية همٌّ في الدنيا، وإن لم يقم صاحبها بحقها فهي حسرة وندامة يوم القيامة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَىٰ الإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ القِيَامَةِ، فَنِعْمَ المُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الفَاطِمَةُ**». (١)

صاحب المنصب والسلطان لا يفارقه الهمُّ خوفًا من زواله، تجده يشقىٰ للمحافظة عليه، وإذا زال منصبه - ولابد أن يزول - عاش بقية عمره تعيسًا.

---

(١) صحيح البخاري: (٧١٤٨).

والمنصب قد يكون سببًا في هلاك صاحبه، ولذلك يعيش في خوف وقلق دائمين.

وكفانا علىٰ ذلك قصة: فرعون وهامان صاحبا المناصب العالية المرموقة اللذان خلَّد القرآن قصتيهما.

وهكذا نرىٰ من خلال الواقع أن السعادة الحقيقية ليست في المال ولا في الشهرة، ولا في الشهادات، ولا في المناصب، ولا ما أشبه ذلك من حطام الدنيا.

۞ إذن أين تكمن أسباب السعادة؟

ما صفات السعداء سعادة واقعية حقيقية؟

هذا ما نوضحه في الصفحات التالية بإذن الله تعالىٰ.

أسباب السعادة:

إن من يريد أن ينال السعادة، وهو لم يأخذ بأسبابها يصدق عليه قول الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري علىٰ اليبس

فلنقف معًا علىٰ أسباب السعادة وصفات السعداء لعل الله أن يوفقنا للأخذ بها إنه جواد كريم:

۞ من أسباب السعادة: الإيمان بالله والعمل الصالح:

الحياة الطيبة في الإيمان والعمل الصالح؛ والناس يتفاوتون بحسب إيمانهم وعملهم الصالح درجات، وبحسبها تكون السعادة، قال سُبحَانَهُ

وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

والكافر لا سعادة له مطلقًا بإجماع العلماء والعقلاء، فالكافر لا سعادة له، والفاجر لا طمأنينة ولا سكينة له، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

- وقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في المؤمن: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]. أي فلنحيينه حياة سعيدة.

وكلنا يريد الحياة الطيبة، فعلينا بالعمل الصالح مع الإيمان لأن عمل الصالحات من أكبر الأمور التي تحصل السعادة، يقول الله تعالىٰ: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [المائدة: ٦٩].

ومن العمل الصالح الصلاة وهي قرة العين، ولقد كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر قال: «**يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا**» (١)، وكان يقول: «.... **وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**» (٢)، يقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟

(١) سنن أبي داود: (٤/ ٢٩٦)، صحيح الجامع: (٧٨٩٢).
(٢) مسند أحمد: (٢١/ ٤٣٣) صحيح الجامع: (٣١٢٤).

﴿بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

والعجيب أن بعض الناس يؤلف في السعادة؛ ولا يدرك السعادة، فإن كارنيجي الأمريكي الذي ألَّف كتابه الشهير «**دع القلق وابدأ الحياة**» هذا الكتاب الذي ترجم إلىٰ تسع وخمسين لغة في العالم، يأتي في آخر عمره ويأخذ سكينًا وينحر نفسه؛ لأنه ما عرف الطريق إلىٰ السعادة، وما عرف الإيمان، فهؤلاء دلُّوا علىٰ طريق العبادة فقالوا: لا نستطيع العبادة، فأعظم الناس سعادةً المؤمن الذي يعمل الصالحات.

* وفي صحيح مسلم عن صهيب أنه ﷺ قال: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**».(١)

ومن أعظم ما يسهل الخاطر، ويزيل الهموم والغموم عمل الصالحات - ومن أجلِّها: الصدقة، ولنجرب ذلك.

مَرِضَ كثير من الصالحين فتصدقوا، فكشف الله مرضهم؛ وأصابتهم كرب فتصدقوا، فأزاح الله كربهم؛ ولذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**مَثَلُ البَخِيلِ وَالمُتَصَدِّقِ مَثَلُ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، قَدِ اضْطَرَّتْ أَيْدِيَهُمَا إِلَىٰ تَرَاقِيهِمَا، فَكُلَّمَا هَمَّ المُتَصَدِّقُ بِصَدَقَتِهِ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ تُعَفِّيَ أَثَرَهُ، وَكُلَّمَا هَمَّ البَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ انْقَبَضَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ إِلَىٰ صَاحِبَتِهَا وَتَقَلَّصَتْ عَلَيْهِ، وَانْضَمَّتْ يَدَاهُ إِلَىٰ تَرَاقِيهِ**»، فَسَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**فَيَجْتَهِدُ**

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٥).

أَنْ يُوَسِّعَهَا فَلَا تَتَّسِعُ». (١)

والبخيل بالمال، والبخيل بالجاه، والبخيل بالبسمة وبالكلمة الطيبة من أضيق الناس نفسًا، ومن أسوئهم خلقًا، ومن أقلقهم حياةً؛ لأنه ما عرف سبيل السعة.

ولذلك كان الكرماء أوسعَ الناس صدورًا، ولنجرب ذلك**!**

فإنك لا تفعل خيرًا للمسلمين إلا ويرزقك سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سعةً في الصدر، فإنه غفور شكور -سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- غفور يغفر الذنب، وشكور يشكر علىٰ الحسنات في الدنيا والآخرة.

كلام نفيس لابن القيم في السعادة:

✍ **قال ابن القيم** رحمه الله في إطلالة قرآنية، واستنباطات روحانية، ودلالات علمية تكشف حقيقة الحياة البشرية، وتدل علىٰ سبل النجاة الحقيقية: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [الحجر: ٢١] مُتَضَمّن لكنز من الْكُنُوز وَهُوَ أَن يطْلب كل شَيْء لَا يطْلب إِلَّا مِمَّن عِنْده خزائنه ومفاتيح تِلْكَ الخزائن بيدَيْهِ وَأَن طلبه من غَيره طلب مِمَّن لَيْسَ عِنْده وَلَا يقدر عَلَيْهِ، وَقَوله ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النجم: ٤٢] مُتَضَمّن لكنز عَظِيم وَهُوَ: أَن كل مُرَاد إِن لم يرد لأَجله ويتصل بِهِ، وَإِلَّا فَهُوَ مضمحل مُنْقَطع فَإِنَّهُ لَيْسَ إِلَيْهِ الْمُنْتَهىٰ، وَلَيْسَ الْمُنْتَهىٰ إِلَّا إِلَىٰ الَّذِي انْتَهَت إِلَيْهِ الْأُمُور كلهَا فانتهت إِلَىٰ خلقه

(١) صحيح البخاري (٤/ ٤١).

ومشيئته وحكمته وَعلمه، فَهُوَ غَايَة كل مَطْلُوب وكل مَحْبُوب، لَا يحب لأَجله فمحبته عناء وَعَذَاب، وكل عمل لَا يُرَاد لأَجله فَهُوَ ضائع وباطل، وكل قلب لَا يصل إِلَيْهِ فَهُوَ شقي مَحْجُوب عَن سعادته وفلاحه، فَاجْتمع مَا يُرَاد مِنْهُ كُله فِي قَوْله ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ [الحجر: ٢١] وَاجْتمعَ مَا يُرَاد لَهُ كُله فِي قَوْله ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النجم: ٤٢] فَلَيْسَ وَرَاءه سُبْحَانَهُ غَايَة تطلب وَلَيْسَ دونه غَايَة إِلَيْهَا الْمُنْتَهىٰ وَتَحْت هَذَا سر عَظِيم من أسرار التَّوْحِيد وَهُوَ أَن الْقلب لَا يسْتَقرّ وَلَا يطمئن ويسكن إِلَّا بالوصول إِلَيْهِ.(١)

بلال وسعادته في الدنيا:

انظر إلىٰ بلال رضي الله عنه هذا الرجل الذي إن نظرنا إلىٰ ظاهره نقول: هذا مسكين عُذِّب في الحياة الدنيا، والحقيقة أنه من أسعد الناس في هذه الحياة الدنيا، والدليل أنه لمَّا حضرت بلالًا الوفاةُ، قَالَت امرأته: واحزناه، فَقَالَ: بَل واطرباه غدًا نلقىٰ الأحبة، محمدا وحزبه. (٢)

إن بلالًا هو السعيد حقًا، سمع النبيُّ صلى الله عليه وسلم خشخشة نعليه في الجنة. وهو يوم يسحب علىٰ الرمال، ويجر علىٰ وجهه، يقول: أحدٌ أحد؛ لأنه ذاق حلاوة الإيمان، وارتفع الإيمان في قلبه إلىٰ درجة أنه لا يشعر بالعذاب.

---

(١) الفوائد لابن القيم: (ص: ٢٠٢).

(٢) الرسالة القشيرية: (٢/ ٤٦٩).

ومن أسباب السعادة الرضا بالقضاء والقدر:

يقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١]. عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ قَالَ: كُنَّا عند علقمة فقرئ عِنْدَهُ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ ﴾ فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَىٰ وَيُسَلِّمُ.(١)

وذُكر عن ابن قتيبة أنه قال: ما كان يتسلىٰ الجاهليون في جاهليتهم وأهل الشرك في شركهم إلا بالقضاء والقدر، تموت ناقة المشرك فيقول: قضاء وقدر، يموت ابنه فيقول: قضاء وقدر، قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣ ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣].

مرض عمران بن حصين أحد الصحابة الأخيار ثلاثين سنة، فما شكىٰ ولا بكىٰ ولا تذمر، حتىٰ كانت الملائكة تصافحه.(٢)

ومن أسباب السعادة: الإحسان إلى الناس بالقول والفعل:

ومن أسبابها الإحسان بالبسمة، وبلين الكلمة، والشفاعة الحسنة، والصدقة، والبر، والصلة، والزيارة، وبمساعدته بأي نوع من المساعدة كلها

(١) تفسير ابن كثير: (٨/ ١٦١).
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة: (٤/ ٥٨٥).

تدخل عليك الطمأنينة، في الدنيا، وقد سلف شيء من هذا.

ومن أسباب السعادة: النظر في الدنيا إلى من هو أدنى:

من أسباب السعادة النظر إلىٰ من هو دونك في الرزق والمال والصحة والسكن والمعيشة، لترىٰ نعمة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الحظوظ الدنيوية عليك ولا تزدريها، أما في الحظوظ الدينية، فلا تنظر إلىٰ من هو دونك في الدين والاستقامة، وقيام الليل، وتلاوة القرآن، والعلم، والتحصيل، والذكر، والصيام، بل ينبغي أن تنظر إلىٰ من هو فوقك، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**انْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ** - قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ - **عَلَيْكُمْ**». (١)

* يقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢٠ - ٢١].

* وقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥ - ١٦].

* وقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ

---

(١) صحيح مسلم: (٢٩٦٣).

أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

ومن أسباب السعادة: العلم الشرعي:

لأن العلماء العارفين بالله هم السعداء. وسأكتفي بذكر مثال واحد لرجل من أهل العلم حتىٰ لا يطول بنا الكلام:

يقول ابن القيم: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنةً من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القاعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة.

أو قال ما جزيتهم علىٰ ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله، وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالىٰ. والمأسور من أسره هواه.

ولما دخل إلىٰ القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحديد: ١٣]، وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف

الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم علىٰ وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.(١)

ومن أسباب السعادة: الإكثار من ذكر الله:

إن من داوم علىٰ ذكر الله يحيا سعيدًا مطمئن القلب، قال تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]، وأما من أعرض عن ذكر الله، فهو من التعساء البؤساء قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب: (ص: ٤٨).

۞ **وإن من أعظم أنواع الذكر: قراءة القرآن:**

يقول الله تعالىٰ في حق القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] ويقول سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] فأنزله الله ﷻ شفاء لما في الصدور وهي القلوب، فالقلب لا يطمئن إلا إلىٰ ذكر الله، وإذا جعل الإنسان لنفسه موعدًا مع الله في تلاوة كتابه ومناجاته، فإنه يعرض نفسه لأعظم سبب من أسباب السعادة.

۞ **ومن أسباب السعادة: اليقين بأن سعادة المؤمن الحقيقية في الآخرة لا في الدنيا:**

قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، ويقول رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**».[1]

✍ **وهنا قصة عجيبة لابن حجر العسقلاني** رحمه الله، يقول الإمام المناوي: ذكروا أن الحافظ ابن حجر لما كان قاضي القضاة مرَّ يومًا بالسوق في موكب عظيم وهيئة جميلة، فهجم عليه يهوديٌّ يبيع الزيتَ الحار، وأثوابُه ملطخةٌ بالزيت، وهو في غاية الرثاثة والشناعة، فقبض علىٰ لجام بغلته، وقال: يا شيخ الإسلام تزعم أن نبيكم قال: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**».[2] فأي سجن أنت فيه؟ وأي جنة أنا فيها؟ فقال: أنا بالنسبة لما أعدَّ الله لي في الآخرة

---

(١) صحيح مسلم: (٢٩٥٦).

(٢) صحيح مسلم: (٢٩٥٦).

من النعيم كأني الآن في السجن، وأنت بالنسبة لما أعدَّ لك في الآخرة من العذاب الأليم كأنك في جنة فأسلم اليهودي.(١)

۞ **ومن أسباب السعادة: انشراح الصدر وسلامته من الأدغال:**

وفي القرآن الكريم آيات عديدة في مقام الانشراح، فقد حكىٰ الله عن موسىٰ - عليه الصلاة والسلام - قوله: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾﴾ [طه: ٢٥]، وقال تعالىٰ - ممتنا علىٰ رسوله محمد ﷺ: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ويقول - جل شأنه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢]. فانشراح الصدر وطلبه من علامات السعادة وصفات السعداء.

۞ **ومن أسباب السعادة: حسن الاختيار للصحبة.**

إن مصاحبة الصالحين خير وبركة في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، ولقد أمر الله تعالىٰ نبيه محمدًا - ﷺ - والأمر عام له ولأمته - بلزوم الصالحين، ومصابرة النفس علىٰ مصاحبتهم، والبقاء معهم، خصوصًا الفقراء منهم والضعفاء، فقال تعالىٰ ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الكهف: ٢٨].، وعن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ

(١) فيض القدير: (٣/ ٥٤٦).

قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِؤُونَ عَلَيْنَا، قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ نَسِيتُ اسمَيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢]. (١)

* وعن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ: كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً؛ وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»(٢).

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**الرَّجُلُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**». (٣)

- قوله: «**عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ**»: أي علىٰ عادة صاحبه وطريقته وسيرته فلينظر أي: يتأمل ويتدبر من يخالل، فمن رضي دينه وخلقه خَالَلَهُ ومن لا، تجنَّبَهُ فإن الطباع سراقة. (٤)

قال الشاعر:

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٤١٣).
(٢) صحيح مسلم: (٢٦٢٨).
(٣) سنن أبي داود: (٤٨٣٣)، وحسنه الألباني في الصحيحة: (٩٢٧).
(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود: (١٣/ ١٢٣).

عَنِ المرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بالمُقَارَنِ يَقْتَدِي

والإنسان مجبول علىٰ التأثر بصاحبه وجليسه، والأرواح جنود مجندة؛ روىٰ البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**». (١)

وتألفها هو ما خلقها الله عليه من السعادة أو الشقاوة في المبتدأ، وكانت الأرواح قسمين متقابلين، فإذا تلاقت الأجساد في الدنيا ائتلفت واختلفت بحسب ما خلقت عليه، فيميل الأخيار إلىٰ الأخيار، والأشرار إلىٰ الأشرار. (٢)

فإذا كان صاحبك طيبًا فإنه يدخل الراحة والأمن والسعادة عليك؛ لأنه لا يجرك، ولا يدعوك إلا إلىٰ الخير؛ لكن إذا كان صاحبك سيئًا فإنه يجلب لك السوء من كل جانب، وفي هذا يقول الشاعر:

فلا تصحب أخا الفسق وإياك وإياه
فكم من صاحب أردىٰ مطيعًا حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ما شاه
وللناس علىٰ الناس مقاييس وأشباه
وللقلب علىٰ القلب دليل حين يلقاه

---

(١) صحيح مسلم: (٢٦٣٨).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٣/ ١٢٤).

ومن أسباب السعادة: الزوجة الصالحة.

إن الارتباط بزوجة يمثل مصيرًا، ولهذا ينبغي أن يكون الاختيار مبنيًا علىٰ أسس قويمة لا علىٰ مجرد نظرات عاطفية، أو نزوات نفسية وجنسية، ولهذا حدد النبي ﷺ الضوابط التي يضعها الرجل في نظره وهو يختار، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ**».(1)، فالذي عنده زوجة ليس عندها دين خاسر، لأن الأصل أن يبحث عن صاحبة دين، ثم لا مانع أن يبحث عن بقية المقومات كالجمال وغيره، ولهذا قال ﷺ: «**مَا اسْتَفَادَ الْمُؤْمِنُ بَعْدَ تَقْوَىٰ اللهِ خَيْرًا لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ، إِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ (2)، وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ (3)، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبَرَّتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ (4)**».(5) فإذا وفَّر الله لمسلم هذه الزوجة فليحمد الله عليها.

ومن أسباب السعادة: مقابلة السيئة من الناس بالحسنى.

* قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا

---

(1) صحيح البخاري: (٥٠٩٠).

(2) هذه تمثل الخلق.

(3) هذه تمثل الجمال.

(4) هذه تمثل الدين.

(5) سنن ابن ماجه: (١٨٥٧). وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف، لضعف عثمان بن أبي العاتكة وعلي بن يزيد -وهو الألهاني- القاسم: هو ابن عبد الرحمن الدمشقي.

﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٥]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**».(١) لأن الإنسان حينما يغضب ستكون تصرفاته دائمًا غيرَ مسئولةٍ وغير معقولة ويترتب عليها مشاكل، فإذا أمسكها سلم، لكن إذا اندفع وراءها ندم.

يقول الشافعي رحمه الله في بعض أبياته:

لما عفوت ولم أحقد على أحد ... أرحت نفسي من هم العداوات
إني أحيي عدوي عند رؤيته ... لأدفع الشر عني بالتحيات
وأُظْهِر البِشْرَ للإنسان أبغضه ... كأنما قد حشى قلبي محبات
الناس داء دواء الناس قربهم ... وفي اعتزالهم قطع المودات. (٢)

والإمام الشافعي كان جالسًا في يوم من الأيام في حلقة من حلقات العلم فدخل عليه رجل أحمق يسبه ويشتمه، فما رد عليه بكلمة واحدة، فلما انتهى، قالوا له: يرحمك الله يا إمام! ألا دافعت عن نفسك؟

فقال لهم ثلاثة أبيات:

قَالُوا سَكَتَّ وَقَدْ خُوصِمْتَ قُلْتُ لَهُمْ ... إِنَّ الْجَوَابَ لِبَابِ الشَّرِّ مِفْتَاحُ
فَالصَّمْتُ عَنْ جَاهِلٍ أَوْ أَحْمَقٍ شَرَفٌ ... أَيْضًا وَفِيهِ لِصَوْنِ الْعِرْضِ إِصْلاحُ

---

(١) صحيح البخاري: (٦١١٤).
(٢) غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة: (ص: ٧٢).

أَمَا تَرَىٰ الأُسْدَ تُخْشَىٰ وَهِيَ صَامِتَةٌ ... وَالْكَلْبُ يَخْشَىٰ لَعَمْرِي وَهُوَ نَبَّاحُ(١)

الكل يخاف من الأسد وهو صامت، والكلب يُرجم وهو ينبح، فهل الكلام والنباح دليل علىٰ أفضلية صاحبه؟ لا.

إن الأفضلية في الدفع بالتي هي أحسن، هكذا علَّمنا الإسلام وعلَّمنا رسول الله ﷺ الذي أُوتي من الحلم والأخلاق أعلىٰ قدر، حتىٰ قال لِلْأَشَجِّ أَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ**». (٢)

۞ ومن أسباب السعادة: عدم التفكير في مشاكل المستقبل.

إن من الناس ناسًا يعيشون مشكلةً ليس لها وجود أصلًا - فلماذا يعيش في مشكلة غير موجودة؟ أو في هم غير موجود؟ إن الأفضل أن يجعل المرء لكل حادثة حديثًا.

فلماذا يخاف إنسان من أمور غير موجودة؟

مثلًا: يخاف أن يمرض وأن يأتيه السرطان، أو أن يفصل من الوظيفة، أو.....، لا تخف علىٰ شيء في المستقبل، دع المستقبل لله، وفوض أمرك إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ! قال تعالىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وإذا حدثت المشكلة فاصبر لها، واطلب من الله ﷻ العوض عنها.

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان: (٣/ ١٣).

(٢) صحيح مسلم: (١٧)،. والحلم: الصبر علىٰ الناس، والأناة: عدم الاستعجال في اتخاذ القرار.

موانع السعادة

لا ريب أن ثمة موانع كثيرة للسعادة تحول دون الوصول إليها، والتنعم بالعيش فيها.

وإليك أيها القارئ الكريم أهم تلك الموانع:

١ - الكفر:

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] هكذا يصور القرآن التعاسة والشقاء تصويرا دقيقًا.

٢ - عمل المعاصي والآثام والجرائم:

إن المعاصي التي يقترفها الناس آناء الليل وأطراف النهار لها آثار مدمرة علىٰ الفرد والمجتمع والحياة كلها، وذلك أنّ قوام الحياة وصلاحها إنما هو في الطاعة والاستقامة علىٰ أمر الله والتقيد بشرعه الحنيف، وكلّ انحراف عن أمره، وكل اتباع لنزغات الشيطان وكل تفلُّت من دينه إنما هو ركض وراء السراب، وضرب في تيه الشقاء، ولا بد أن يلمس الإنسان آثارها النكرة في نفسه وحياته ثم في أخراه يوم لقاء ربه. (١)

---

(١) دليل الواعظ إلىٰ أدلة المواعظ: (ص: ٣١٢).

٣ - الحسد والغيرة:

وأمر الحسد خطير، حتىٰ إن الله تعالىٰ يأمرنا بالاستعاذة من شر الحاسد، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾ [الفلق: ٥]، وقال الله تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤]. قال ذلك عن الكفار، وقال رسول الله ﷺ موجها أمته: «**لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَقَاطَعُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**». (١)

٤ - الحقد والغل:

قال تعالىٰ في سورة الحشر: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الحشر: ١٠].

يصف الله تعالىٰ المؤمنين في هذه الآية بأنهم يقولون هذا الدعاء، لأن الغل من موانع السعادة، ويقول تعالىٰ واصفًا المؤمنين في حياتهم الأبدية، في جنة الخلد: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

٥ - الغضب:

لا شك أن الغضب من حواجب السعادة والانشراح، ولذلك امتدح الله المؤمنين قائلًا عنهم: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ۝٣٧ ﴾ [الشورىٰ: ٣٧] ويقول الرسول: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**». (٢)

---

(١) صحيح البخاري: (٦٠٦٦)، صحيح مسلم: (٢٥٥٩).
(٢) صحيح البخاري: (٦١١٤).

٦ - الظلم:

فإن الظلم مرتعه وخيم. وعاقبته سيئة إلىٰ أبعد الحدود.

٧ - الخوف من غير الله:

إن الخوف من غير الباري سبحانه يورث الشقاء والذلة، ولذلك قال الله -تعالىٰ- عن بني إسرائيل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال إبراهيم لقومه - كما ورد في القرآن: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٨٠]. إذن فالخوف من غير الله من موانع السعادة.

٨ - التشاؤم:

كم كان التشاؤم سببًا في التعاسة والمتاعب، ولهذا كان المصطفىٰ ﷺ يعجبه الفأل، ويكره التشاؤم عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا عَدْوَىٰ وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ الصَّالِحُ: الكَلِمَةُ الحَسَنَةُ**».(١)

٩ - سوء الظن:

فالله -سبحانه- يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، ويقول الرسول: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ**.....».(٢)

---

(١) صحيح البخاري: (٥٧٥٦) واللفظ له، صحيح مسلم: (٢٢٢٤).

(٢) صحيح البخاري: (٦٠٦٦).

١٠ - الكبر:

المتكبر يعيش في شقاء دائم، وتعاسة أبدية، وإن تغطرس، وتعالىٰ علىٰ الناس، وغمطهم حقوقهم.

١١ - تعلق القلب بغير الله:

كتعلق قلب العاشق بمعشوقته، ويكفي لتصوير خطورة الأمر أن نقرأ قصة مجنون ليلىٰ، لنعلم كيف عاش هذا الرجل شريدًا طريدًا، حتىٰ جُنَّ، ومات وهو عاشق.

وكم من عاشق مات في عشقه، وقدم علىٰ الله وقلبه معلق بغيره. فيالها من خسارة دنيوية وأخروية.

١٢ - المخدرات:

إن كثيرًا من الناس يتوهم أن السعادة تجتلب بمعاقرة المُخَدِّرَات والمُسْكِرات، فيقبلون عليها، قاصدين الهروب من هموم الدنيا ومشاغلها وأتراحها، وإذا بهم يجدون أنفسهم كالمستجير من الرمضاء بالنار.

لأنَّ المُخَدِّرَات في الحقيقة من الحوائل دون السعادة، وإنها تجلب الشقاء، واليأس، والانحلال، والدمار، دمار الفرد والمجتمع والأمة، وإن لنا في الواقع الحاضر لخير شاهد علىٰ ذلك فليعتبر أولو الألباب.





المبحث الثاني

الدخول في معية الله وحمايته

الدخول في معية الله(١) وحمايته

إن المسلم يحتاج إلىٰ الربانية حتىٰ يدخل في معية الله وحمايته، لأن الله قد تكفل بالحماية والكفاية والنصرة لكل من انتسب إليه وصار من أوليائه قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

(١) **المعية معناها:** النصرة لأوليائه المؤمنين بالتأييد والنصرة وهي المعية الخاصة، كما قال النبي ﷺ لما قال له أبو بكر: لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا، فقال: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**». قال تعالىٰ: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] [التوبة: ٤٠] وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٨]. وكما قال ﷻ لهارون وموسىٰ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه: ٤٦]، أي: بتأييدي ونصري وبسماع دعائكما.

وهذه المعية الخاصة بخلاف المعية العامة: قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] أي: بعلمه ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] أي: بعلمه ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] يعني: بعلمه ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، فهذه هي المعية العامة، لأن الجميع تحت سمع الله ﷻ وتحت بصره، وهذه المعية العامة تستوجب من العبد الحذر من الله ﷻ والخوف منه ومراقبته. أما معية التأييد والنصرة والتسديد فتستوجب من العبد أن يستغني بالله ﷻ، وأن يتقوىٰ ويستأنس بالله ﷻ.

[الإسراء: ٦٥] وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦].

فأولياء الله لا يخافون إذا ما خاف الناس ولا يحزنون إذا ما حزنوا لماذا؟ لأنهم في حماية الملك قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

أما غيرهم فيا حسرتهم وهم يشعرون بأنهم كالأيتام في هذا الكون، ليس لهم صلة بمالك الملك ومدبر الأمر.... فمن ينصرهم من بعد الله؟

إن الدخول في حمىٰ الله ومعيته، والاستمتاع بمقتضيات تلك الحماية من سكينة وطمأنينة وراحة بال، وعدم خوف أو حزن من ماض أو مستقبل لمن أهم الأسباب التي تؤكد حاجتنا إلىٰ الربانية.

وهذه بعض النماذج التي تؤكد هذه الحقيقة:

١ - نوح عليه السلام:

لقد خلق الله العباد حنفاء علىٰ التوحيد فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم من عبادة الله سبحانه إلىٰ عبادة الأصنام والأحجار وغيرها من المعبودات الباطلة، وأول ما حصل الشرك في قوم نوح، وكان شركهم بتعظيمهم لبعض صالحيهم وتصويرهم صورًا لهم، ثم عبدت تلك الصور بعد فترة من الزمن، ثم أرسل الله الرسل ليقيموا الحجة علىٰ العباد، فكان نوح أولَّ رسولٍ إلىٰ أهل الأرض، فدعا قومه إلىٰ عبادة الله سبحانه بشتىٰ الوسائل، واستمر ألف

سنة إلا خمسين عامًا، حتىٰ أخذ الله أهل الشرك من قومه بالطوفان بسبب إعراضهم عن دعوة نوح عليه السلام.

نجاة نوح عليه السلام والمؤمنين وهلاك الكافرين:

أوحىٰ الله سبحانه إلىٰ نوح بقوله: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: ٣٦ - ٣٧]، ثم جعل الله لنوح علامة يعرف بها قرب نزول العذاب، يقول ربنا سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] (التَّنُّورُ): هو مكان الخبز، (فَارَ التَّنُّورُ)، فهذه علامة علىٰ نزول العذاب، ثم أوحىٰ الله إلىٰ نوح أن: احمل في السفينة: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠]، وكلمة (وَأَهْلَكَ) هنا: يدخل فيها الولد وتدخل فيها الزوجة، لكنَّ الله قال: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

يقول ربنا تبارك وتعالىٰ: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: ٤١ - ٤٢]، أنزل الله الطوفان علىٰ الإنسانية في زمن نوح ولم ينج إلا عدد قليل، ثم أهلك الله الأرض ومن عليها، تقول بعض كتب التفاسير: إن الذين نجو مع نوح في

السفينة اثنا عشر شخصًا، فالعبرة ليست بالكثرة (١)، أرسل الله علىٰ الإنسانية طوفانًا من أعلىٰ ومن أسفل، والله ﷻ له جنود لا يعلمها إلا هو، اسمع إلىٰ قول الله: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا - متتابعة - فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ ﴾[الحاقة:٥- ٧].

أرسل الله الطوفان فأغرق جميع أهل الشرك والكفر ولم ينج إلا من آمن مع نوح.

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ۝٤٢ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ۝٤٣ ﴾ [هود: ٤٢ - ٤٣] وهذا فيه إشارة إلىٰ أن النسب الحقيقي هو نسب العقيدة والدين، نوح ينادي ربه ويقول: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ [هود: ٤٥]، فيقول الله له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود: ٤٦] وهذا هو الولاء والبراء.

يقول الله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا

---

(١) **ولذلك أقول للدعاة:** لا تنظروا إلىٰ كثرة العدد فإن العدد لا يقدم ولا يؤخر، إن نبيا من الأنبياء سيأتي يوم القيامة وليس معه أحد، مع أنه بَلَّغَ، وأقام الحجة، ولكن كما قال الله سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٢].

بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾ [الممتحنة: ٤]، ويقول النبي ﷺ: «أَوْثَقُ عُرَىٰ الْإِيمَانِ الْحَبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ»(١)، ولذلك يقول تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

٢ - **إبراهيم عليه السلام:**

ابتلاء إبراهيم عليه السلام بإلقائه في النار:

وشأن الطغاة في كل الأزمنة والعصور أنهم لا يملكون حوارًا ولا حجة ولا بيانًا ولا أدلة، وإنما قالوا: ﴿فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ [الصافات: ٩٧]، فكان قرارهم هو الحكم بإعدام إبراهيم حرقًا، كما قال فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦].

فالقتل والتنكيل والبطش والتعذيب لغة الطغاة في كل الأزمنة مع أصحاب دعوة التوحيد.

فجمعوا له حطبًا ووصلت النار إلىٰ عنان السماء من شدة اشتعالها، وجاء في بعض الآثار أنه كانت المرأة منهم إن أصابها مرض تقول: لئن شفيت من مرضي لأجمعن حطبًا لنار إبراهيم فالكل اجتمع عليه.

ولكن متىٰ كان يعرف الحق بكثرة أتباعه؟! قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ

(١) مسند أبي داود الطيالسي: (٧٨٣) واللفظ له، مسند أحمد: (٣٠/ ٤٨٨)، وانظر السلسلة الصحيحة: (٩٩٨).

مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأنعام: ١١٦].

فجاءوا بإبراهيم، ومع شدة البلاء إلا أنه لم يتزعزع، ولم يتراجع أو يتباطأ، بل وثق بربه، وتوكل علىٰ خالقه.

✍ **قال ابن عباس:** حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، «قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ» حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].(١)

دخل إبراهيم النار، والنار من طبيعتها الإحراق، ولكن للنار خالق، وهو الله رب العالمين سبحانه، يقول الشنقيطي في أضواء البيان: فالأسباب قد لا تأتي بمسبباتها؛ لأن الأسباب والمسببات لها خالق وهو الله ﷻ، فقال الله ﷻ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩ - ٧٠]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: ٩٨]، فخرج من النار مرفوعَ الرأس، لأن الله تولاه برحمته والله وليّ المؤمنين.

٣ - موسى عليه السلام:

اشتد الأمر بين موسىٰ وفرعون، وتمادىٰ فرعون في طغيانه وعناده، وأراد أن يكذب بنبوة موسىٰ، وقال: إن هو إلا ساحر جاء بأخيه معه، وجمع

---

(١) صحيح البخاري: (٤٥٦٣).

فرعون السحرة أجمعين، وأراد بذلك أن يضل الناس عن النبوءة والدعوة، ولكن الله جل وعلا أبطل كيده وأبطل سحره: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٩].

وبعد مُضِيّ هذه المدة وموسىٰ يدعو فرعون ويخاطبه بخطابٍ لين، ويدعوه بدعوة وموعظة رقيقة إلا أنه لم يستجب، حتىٰ إذا اشتد الأمر وبلغ أشده، ووصل الأمر بينهم إلىٰ القتل والقتال، لما رأىٰ فشل سحرته، لم يجد إلا أسلوب الجبابرة والطواغيت المعاندين، أسلوب القتل، أسلوب التشريد والإبعاد، فأتبعوهم مشرقين ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ٦١].

لما ذهبوا ولم يبق من أمامهم إلا البحر، وفرعون وقومه من خلفهم ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦١ - ٦٣].

وعبر عليه موسىٰ ومن معه من بني إسرائيل ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء: ٦٤ - ٦٦].

لما رأىٰ فرعون ومن معه أن البحر أصبح يبسًا، وعبر عليه موسىٰ ومن معه لحقوا بهم يريدون أن يعبروا علىٰ البحر، لكنها سنة الله جل وعلا، يريد الله أن يغيرها، وأن يبدلها، وأن يعكس قانونها ونظامها لأوليائه وعباده وأنبيائه، أما الكافرون الجاحدون الظالمون فليسوا بأهل أن تغير لأجلهم سنة

واحدة، أو أدنىٰ ظاهرة في هذا الكون، فلما عبر موسىٰ ومن معه، عاد البحر كما كان أمواجًا تتلاطم، وماءً يُغرق من عليه، ثم أدرك فرعون الغرق: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [يونس: ٩٠].

لم يقل آمنت أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إنه العناد والجبروت والطغيان حتىٰ في آخر ساعات العذاب والهلاك، لم يقل آمنت أنه لا إله إلا الله، بل قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ ﴾ [يونس: ٩٠ – ٩١].

ليس ينفعك الإيمان في هذه اللحظة، ولا ينفعك قولك في هذه اللحظة وأنت من المفسدين الضالين المتجبرين المعاندين. فانظر كيف تولىٰ الله موسىٰ عليه السلام.

سفينة مولى رسول الله ﷺ :

* رَوَىٰ: أُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بنِ المُنْكَدِرِ، عَنْ سَفِيْنَةَ: أَنَّهُ رَكِبَ البَحْرَ، فَانْكَسَرَ بِهِمُ المَرْكَبُ، فَأَلْقَاهُ البَحْرُ إِلَىٰ السَّاحِلِ، فَصَادَفَ الأَسَدَ، فَقَالَ: أَيُّهَا الأَسَدُ! أَنَا سَفِيْنَةُ مَوْلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ - ﷺ -. فَدَلَّهُ الأَسَدُ عَلَىٰ الطَّرِيْقِ. قَالَ: ثُمَّ هَمْهَمَ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَعْنِي السَّلَامَ. (١)

(١) سير أعلام النبلاء: (٣/ ١٧٣).

قصة المحمدين الأربعة:

* جَمعتِ الرِّحلَةُ بَيْنَ ابْنِ جَرِيْرٍ، وَابْنِ خُزَيْمَةَ، وَمُحَمَّدِ بنِ نَصْرٍ المَرْوَزِيّ، وَمُحَمَّدِ بنِ هَارُوْنَ الرُّويَانِي بِمِصْرَ، فَأَرملُوا وَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُم مَا يقُوتُهُم، وَأَضَرَّ بِهِم الْجُوع، فَاجْتَمَعُوا لَيْلَةً فِي مَنْزِلٍ كَانُوا يَأْوونَ إِلَيْهِ، فَاتَّفَقَ رأْيُهُم عَلَىٰ أَنْ يَسْتَهِمُوا وَيضربُوا القُرْعَة، فَمَنْ خَرجتْ عَلَيْهِ القُرعَةُ سَأَلَ لأَصْحَابِهِ الطَّعَام، فَخَرَجت القرعَة عَلَىٰ ابْنِ خُزَيْمَة، فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: أَمْهِلونِي حَتَّىٰ أُصَلِّي صَلَاة الخِيرَة، قَالَ: فَاندفعَ فِي الصَّلَاةِ، فَإِذَا هُم بِالشُّموع وَخَصِيٍّ مِنْ قَبْل وَالِي مِصْر يَدَقُّ البَاب، فَفَتَحُوا، فقَالَ: أَيُّكُم مُحَمَّدُ بنُ نَصْرٍ؟ فَقِيْلَ: هُوَ ذَا، فَأَخْرَجَ صرَّةً فِيْهَا خَمْسُوْنَ دِيْنَارًا، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: وَأَيُّكُم مُحَمَّدُ بنُ جَرِيْرٍ؟ فَأَعطَاهُ خَمْسِيْنَ دِيْنَارًا، وَكَذَلِكَ للرُّويَانِي، وَابْن خُزَيْمَةَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الأَمِيْرَ كَانَ قَائِلًا بِالأَمس، فَرَأَىٰ فِي المَنَام أَنَّ المَحَامِدَ جِيَاعٌ قَدْ طَوَوْا كَشْحَهُم، فَأَنفذَ إِلَيْكُم هَذِهِ الصُّرَرَ، وَأَقسَمَ عَلَيْكُم: إِذَا نفذت، فَابْعَثُوا إِلَيَّ أَحَدَكُم.(١)



(١) تاريخ بغداد (٢/ ٥٤٨). سير أعلام النبلاء: (١١/ ١٦٧).



المبحث الثالث

تأمين مستقبل الأولاد

تأمين مستقبل الأولاد (١)

لقد بينا أن المسلم يحتاج إلىٰ الربانية لكي يحقق السعادة، ويدخل في معية الله. وكذلك يحتاج المسلم إلىٰ الربانية حتىٰ يؤمن مستقبل أولاده.

۞ كيف تؤمن مستقبل أولادك من بعدك؟

والآن نبين كيف يؤمن الإنسان مستقبل أولاده: والجوابُ محكمٌ من الذي خلق، ويعلم ما خلق ومن خلق قال تعالىٰ: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء: ٩]، هذا هو عقد التأمين الذي وضعه المولىٰ سبحانه وتعالىٰ في كتابه الكريم، ومن أراد أن يحافظ علىٰ أولاده فلينفذ هذين الشرطين:

١ - التقوى:

قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، و قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم: ٧٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢- ٣]، وتقوىٰ الوالد وطاعته لا تضيع

(١) سأتكلم بصورة مختصرة جدًّا، لأنني بفضل الله فصَّلت القول في تأمين مستقبل الأولاد في كتابي: (بصائر قرآنية).

أبدًا، لا في حياته، ولا بعد مماته قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ [الكهف: ٨٠] وفي الآية الأخرىٰ قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢].

ومن التقوىٰ أن يؤدي الإنسان حق الأمانة، ولا يفرط فيها من أجل أولاده قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٧] ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٨]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فَإِنَّ الرَّجُلَ لِحُبِّهِ لِوَلَدِهِ أَوْ لِعَتِيقِهِ قَدْ يُؤْثِرُهُ فِي بَعْضِ الْوِلَايَاتِ أَوْ يُعْطِيهِ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ؛ فَيَكُونُ قَدْ خَانَ أَمَانَتَهُ؛ وَكَذَلِكَ قَدْ يُؤْثِرُهُ زِيَادَةً فِي مَالِهِ أَوْ حِفْظِهِ؛ بِأَخْذِ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ أَوْ مُحَابَاةِ مَنْ يُدَاهِنُهُ فِي بَعْضِ الْوِلَايَاتِ. فَيَكُونُ قَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَخَانَ أَمَانَتَهُ. ثُمَّ إِنَّ الْمُؤَدِّيَ لِلْأَمَانَةِ مَعَ مُخَالَفَةِ هَوَاهُ يُثَبِّتُهُ اللهُ فَيَحْفَظُهُ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ بَعْدَهُ وَالْمُطِيعُ لِهَوَاهُ يُعَاقِبُهُ اللهُ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ فَيُذِلُّ أَهْلَهُ وَيُذْهِبُ مَالَهُ. (١)

٢ - القول السديد:

الشرط الثاني: القول السديد قال تعالىٰ: ﴿وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء: ٩].

في هذه الآية المباركة ذكّر الله تعالىٰ الأولياء أو الأوصياء في معاملة

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٢٤٩).

اليتامىٰ بأمر جميل يهز المشاعر والنفوس للبعد عن القسوة علىٰ اليتيم، وهو أن هؤلاء الكبار الأوصياء مفارقون أولادهم، وربما تركوا ذرية ضعفاء صغارًا يخافون علىٰ مصالحهم، فليتقوا الله في أيتام الآخرين، كما يحبون أن يتقي الله في أيتامهم أوصياء غيرهم، وليقولوا لهم قولًا حسنًا سديدًا طيبًا يجبر خواطرهم، ويمنع الضر عنهم، ويتفق مع آداب الدين وأخلاق الصالحين، بكل ما يحسن إليهم ويسر قلوبهم، ويعوضهم حنان الأب المتوفىٰ، فكل أولياء الأيتام مطالبون بالإحسان إلىٰ الأيتام، وسداد القول لهم، وإحسان معاملتهم ومعاشرتهم، وتقوىٰ الله في أكل أموالهم كما يخافون تماما علىٰ ذريتهم أن يفعل بهم خلاف ذلك. (١)

إذن من أراد تأمين مستقبل أولاده فعليه بتقوىٰ الله في السر والعلن، وعليه بالقول السديد في حق اليتامىٰ، لأنه يمكن أن يموت ويصير أولاده يتامىٰ فيسخر الله لهم من يقوم بهم ويقول لهم القول السديد إذ الجزاء من جنس العمل.

وعليه بالقول السديد في كل حياته عمومًا فلا يقول زورًا ولا يمشىٰ فجورًا، وعليه أن يصلح بين الناس إن استطاع فإن لم يفعل فليمنع لسانه عن الناس. وبهذا يكون قد أمّن علىٰ أولاده لأن صلاح الإنسان وقوله السديد ينفع أولاده من بعده بإذن الله سبحانه وتعالىٰ.



(١) التفسير الوسيط: (١/ ٢٨٩).



المبحث الرابع

الانسجام مع الفطرة

الفطرة

معنى الفطرة لغة واصطلاحًا:

الفطرة في اللغة: مأخوذة من فطر الشيء يفطره، إذا شقَّه، فشقّ الشيء معناه فطره، وتفطر يعني: تشقق، والفطر هو الشق، وجمعه فطور، ومنه فطر ناب البعير، إذا نبت.

وقال ﷻ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ [الانفطار: ١]، أي: انشقت، وفي حديث عَائِشَةَ ﵂: أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّىٰ تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ....».(١) يعني: تتشقق.

والفَطر هو الابتداء والاختراع، قال الله ﷻ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١]، يعني: خالقهما ومبتدئهما.

وقال ابن عباس ﵄: كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١] حتىٰ أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرت البئر، فهي بئري، يعني: أنا بدأتها. ففهم معنىٰ الفطر من قول الأعرابي، فهذا من حيث اللغة.

(١) صحيح البخاري (٤٨٣٧).

أما من حيث الاصطلاح: فالفطرة هي دين الإسلام، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠].

۞ حقيقة الفطرة التي يولد عليها المولود:

إن المولود يولد علىٰ الفطرة، والفطرة هي الإسلام، وهذه الحقيقة نستنبطها من القرآن، ولقد دلتنا قصة آدم عليه السلام علىٰ أنه كان علىٰ عقيدة التوحيد، ودل القرآن الكريم والسنة النبوية علىٰ أن هذا لم يكن خاصًا بالإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، وإنما هو عام في كل مولود.

يقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

✍ **قال ابن كثير**: أي: فَسَدِّدْ وَجْهَكَ وَاسْتَمِرَّ عَلَىٰ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ لَكَ، مِنَ الْحَنِيفِيَّةِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، الَّذِي هَدَاكَ اللهُ لَهَا، وَكَمَّلَهَا لَكَ غَايَةَ الْكَمَالِ، وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ لَازِمْ فِطْرَتَكَ السَّلِيمَةَ، الَّتِي فطَرَ اللهُ الْخَلْقَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ فَطَرَ خَلْقَهُ عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ. وقوله: (حَنِيفًا) يعني: مائلًا عن الأديان إلىٰ الإسلام. (١)

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ٣١٣).

✍ **وقد اختلف العلماء في تفسير قوله تعالىٰ: لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ علىٰ قولين:**

القول الأول: مَعْنَاهُ لَا تُبَدِّلُوا خَلْقَ اللهِ، فَتُغَيِّرُوا النَّاسَ عَنْ فِطْرَتِهِمُ الَّتِي فَطَرَهُمُ اللهُ عَلَيْهَا. فَيَكُونُ خَبَرًا بِمَعْنَىٰ الطَّلَبِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٩٧].

القول الثاني: هُوَ خَبَرٌ عَلَىٰ بَابِهِ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ تَعَالَىٰ سَاوَىٰ بَيْنَ خَلْقِهِ كُلِّهِمْ فِي الْفِطْرَةِ عَلَىٰ الْجِبِلَّةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، لَا يُولَدُ أَحَدٌ إِلَّا عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلَا تفَاوُتَ بَيْنَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ أَيْ: لِدِينِ اللهِ. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾: لِدِينِ اللهِ، خَلْقُ الْأَوَّلِينَ: [دِينُ الْأَوَّلِينَ]، وَالدِّينُ وَالْفِطْرَةُ: الْإِسْلَامُ.(١)

* وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟**» ثُمَّ يَقُولُ: أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] الْآيَةَ.(٢)

وهذه الفطرة: هي الإيمان المعهود الذي أخذ الله عليه الميثاق من بني آدم، وذلك لما ضرب صلب آدم واستخرج منه كل ذريته عليه السلام، فأخذ عليهم

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ٣١٤) بتصرف.
(٢) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٧).

الميثاق وهم في عالم الذر، وقال لهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فكل إنسان أخذ عليه هذا الميثاق. (١)

فنجد أنّ أقوىٰ دليل عند الإنسان علىٰ وجود الله هو الفطرة، وهذه مسألة غير قابلة للنقاش؛ لأنّ هذه الفطرة مغروسة في الأعماق، فهذا أقوىٰ دليل علىٰ أن الله خلقنا بفطرة، فنحس بالانجذاب إلىٰ التوحيد، والإقرار بألوهيته تبارك وتعالىٰ.

۞ الحكمة في تشبيه الفطرة باللبن:

- وهذه الفطرة التي وُلد عليها الإنسان، قد يطرأ عليها ما يصيبها، ولهذا شبهت الفطرة باللبن، بل كانت نفسها هي اللبن، وذلك في تأويل ما رآه النبي ﷺ حين عُرض عليه ليلة الإسراء، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**رُفِعْتُ إِلَىٰ السِّدْرَةِ، فَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهَرَانِ ظَاهِرَانِ وَنَهَرَانِ بَاطِنَانِ، فَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: النِّيلُ وَالفُرَاتُ، وَأَمَّا البَاطِنَانِ: فَنَهَرَانِ فِي الجَنَّةِ، فَأُتِيتُ بِثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ: قَدَحٌ فِيهِ لَبَنٌ، وَقَدَحٌ فِيهِ عَسَلٌ، وَقَدَحٌ فِيهِ خَمْرٌ، فَأَخَذْتُ الَّذِي فِيهِ اللَّبَنُ**

---

(١) قد يقول قائل: نحن الآن لا نذكر هذا الميثاق، فنقول: يكفي أن يخبرنا الوحي بوقوعه، فنؤمن بوقوعه كسائر أخبار الغيب التي أخبرنا الله عنها، فنصدقها وإن نسينا هذا الميثاق، ثم إنك تشعر في نفسك بهذا الميثاق وهذه الفطرة، فأنت تشعر أن قضية وجود الله سبحانه وتعالىٰ مثلًا لا تحتاج إلىٰ دليل بالنسبة للمؤمن السليم الفطرة، فلا تجد عنده جدلًا في قضية وجود الله، وإنما تجد الجدل في ذلك عند من تلوث بالشبهات والوساوس الشيطانية، ممن استمع لأهل الإلحاد والانحراف وأشباههم.

فَشَرِبْتُ، فَقِيلَ لِي: أَصَبْتَ الفِطْرَةَ أَنْتَ وَأُمَّتُكَ»(١).

ومناسبة اللبن لبدنه وصلاحه به دون غيره كمناسبة الفطرة لقلبه وصلاحه بها دون غيرها، فكما أن هذا الطفل الذي يولد غذاؤه الوحيد هو اللبن، وصلاح بدنه لا يكون إلا باللبن، ولو أتيت له بأفخم المطعومات وأغلاها وأثمنها كاللحوم وغيرها فإنها تضره، وقد تهلكه؛ لأن البدن في هذه المرحلة لا يستطيع تحمل ولا هضم هذه الأطعمة، فالشيء الوحيد الذي يصلح له هو هذا اللبن، فالفطرة بالنسبة لقلب الإنسان وصلاحه كاللبن بالنسبة لبدنه.

فلذلك ربط في الحديث بين الفطرة وبين اللبن، وهذا يتعلق بمن تسلم فطرته وتنجو من مؤثرات البيئة من حوله.

أما الذي تفسد فطرته بعوامل البيئة المحيطة به، فإنه ينشأ علىٰ عقائد منحرفة أجنبية عن فطرته السوية، فأي انحراف عن الإسلام فهو خلاف الأصل، فالأصل هو التوحيد، والشرك طارئ، لا كما يزعم الجهلة الكذابون الدجالون من أن الشرك هو الأصل، وأن الإنسان بطبيعته مشرك، كلا، بل الإنسان بفطرته موحّد.

يقول الله تبارك وتعالىٰ في المنافقين: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٦]، فجعل الهدىٰ رأس المال الحاصل عندهم، إلا أنهم عرّضوه للزوال فخسروه، وذلك حين بدَّلوا هذه الفطرة المستقيمة القريبة

---

(١) صحيح البخاري: (٥٦١٠).

منهم، واشتروا بها الضلالة البعيدة عنهم، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين. إذًا: فما هو الهدىٰ الذي كان عند المنافقين الذين اشتروا الضلالة بالهدىٰ؟ إنّه الفطرة.

الفطرة الإنسانية حقيقتها وأشكالها:

من المعلوم أن الإنسان مفطورٌ علىٰ أشياء كثيرة:

فالإنسان مفطورٌ علىٰ حب الحياة، والتعلق بالبقاء؛ ولذلك نجد أن الطفل - مثلًا- وهو صبي صغير، لو هددته بأن تسقطه من فوق جدار أو في بئر، أو ترمي به من سيارة؛ فإنه يرتعد ويبكي خوفًا من الموت والفناء، وهذه فطرة لا يحتاج الطفل إلىٰ أن يتعلمها؛ بل هي مخلوقة معه.

ولذلك: نجد أن الصحف والإحصائيات في كثيرٍ من الأحيان تتحدث عن نسبة الانتحار في العالم، وأن نسبة الانتحار مثلًا، في أمريكا كذا، ونسبة الانتحار في بريطانيا كذا، ونسبة الانتحار في روسيا كذا، وأن أعلىٰ نسبة للانتحار هي في البلد الفلاني.

ويعتبرون الانتحار مسألة شاذة، بغض النظر عن أضرارها أو آثارها، فهم ينظرون إليها علىٰ أنها مسألة شاذة وتدل علىٰ انحراف في تربية هذا المجتمع، ولو كان أي مجتمع، لماذا؟ لأن حب البقاء وحب الحياة، أمرٌ فطري غريزي مركب في أصل طبيعة الإنسان.

* فمن الفطرة: أن الإنسان يحب الحياة.

* ومن الفطرة: أن الإنسان يحب الوطن، يحب الأرض التي نشأ فيها

بطبيعته.

* ومن الفطرة: أن الإنسان الذكر يميل إلىٰ الأنثىٰ أي يميل إلىٰ المرأة، والمرأة تميل إلىٰ الرجل.

* ومن الفطرة: أن الإنسان يحب الولد.

* ومن الفطرة: أن الإنسان يحب المال.

* ومن الفطرة: أن الإنسان يميل إلىٰ العبودية.

فالإنسان - بطبيعته- ضعيف يحتاج إلىٰ أن يُكّمل ضعفه، أو يتوجه بضعفه إلىٰ شيءٍ يعبده؛ أيًّا كان هذا المعبود، سواء كان بحق أم بباطل لكن الإنسان مفطور علىٰ العبودية.

* **من الفطرة**: أن الإنسان يميل إلىٰ التستر، وألا ينكشف أو يتّعرىٰ أمام الناس؛ ولذلك فالعلماء الذين يتحدثون عن المجتمعات القديمة، ويتكلمون عن مجتمع الغابة؛ يصفونه بأنه مجتمع متعرٍ، متهتك، ليس فيه حجاب ولا لباس، فقضية التستر هي قضية فطرية غريزية مركبة مع الإنسان.

والطفل - منذ صغره - تجد أنه يحس شيئًا فشيئًا بالخجل من ظهور سوءته أو عورته أمام الآخرين.

وهكذا نجد أن هناك أشياءً كثيرة جدًا الإنسان مفطور عليها، صحيح أنها تنمو مع نمو الإنسان، ومع تربيته، ومع معايشته للمجتمع؛ لكن هذه الأشياء موجودة في أصل الإنسان حتىٰ لو لم يوجد شيءٌ يُنمي هذه الأمور، ولا شيء يعارضها ويدمرها فإذا نشأ الإنسان، نشأ عليها، ولذلك قال الرسول ﷺ: «**مَا**

مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟». (١)

موقف الإسلام من الفطرة:

إذا كان من البدهيات في حس كل مسلم ومسلمة أن خالق هذه الفطرة هو مُنَزِّل القرآن، وهو الله تعالىٰ؛ فمن الطبيعي أن نعلم يقينًا: أن هذا الدين وهذا القرآن لابد أن يكون موافقًا للفطرة؛ لأن خالق الإنسان هو منزل القرآن، فيستحيل أن يكون في دين الله، أو شرعه أمرٌ يعارض هذه الفطرة أو يخالفها؛ ولذلك قال الله ﷻ: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤] فالخالق سبحانه هو أعلم بمن خلق؛ ولذلك أنزل الكتب، وأرسل الرسل بالمنهج الملائم لهذه الفطرة التي فطر عليها الإنسان.

موقف المناهج المنحرفة من الفطرة:

إن موقف المناهج المنحرفة من هذه الفطرة التي فطر عليها الإنسان، هو مسخ الفطرة؛ والمراد بمسخ الفطرة: أن الشيطان وجنوده وأولياءه، يستغلون هذه الفطرة التي فطر عليها الإنسان، ليوجهوها وجهةً منحرفة، ويحاولون بكل وسيلة أن يناقضوا ما أمر الله ورسوله به، فيفتحوا – ما استطاعوا- الباب المحرم لإشباع الفطرة، ويغلقوا ما استطاعوا الباب المشروع لإشباع الفطرة، ولنتأمل هذا الحديث الذي سنقف معه عدة وقفات: عَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِهٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ**

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٧).

لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، وَيُقْسَمُ الْمَالُ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ**». (١)

صور مسخ الشيطان للفطرة:

إن الحديث السابق ذكر فيه رَسُولُ اللهِ ﷺ عدة أمور وصور يحاول بها الشيطان مسخ الفطرة وبيانها كالتالي:

أولاً: صدّه الإنسان عن الإسلام:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ....**». فالإنسان في هذه الحال - يفترض أنه إنسان مشرك أو كافر- دُعي إلىٰ الإسلام، فلما همَّ أن يسلم، جاءه الشيطان، وقال له: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟!

(١) سنن النسائي: (٦/ ٢١)، صحيح الجامع: (١٦٥٢ - ٧٣٦).

۞ ثانيًا: من صور مسخ الإنسان للفطرة: استغلال حب تقليد الآباء:

فالشيطان يستغل هذه الغريزة الموجودة عند الإنسان وهي حب التقليد حب الوفاء للآباء والأجداد، كم من إنسان يعرف الحق ويقول: بينه وبين أتباعه أنه وجد أمه وأباه وأقاربه علىٰ خلافه! وفي الحديث المذكور، «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ....**». يقول للإنسان: «**تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ....**».!

✍ **ولله در الإمام الجليل العز بن عبد السلام! يقول تلميذه الشيخ الْبَاجِيّ:** طلع شَيخنَا عز الدّين مرّة إِلَىٰ السُّلْطَان فِي يَوْم عيد إِلَىٰ القلعة، فشاهد العساكر مصطفين بَين يَدَيْهِ ومجلس المملكة وَمَا السُّلْطَان فِيهِ يَوْم الْعِيد من الأبهة، وَقد خرج علىٰ قومه فِي زينته علىٰ عَادَة سلاطين الديار المصرية، وَأخذت الْأُمَرَاء تقبل الأَرْض بَين يَدي السُّلْطَان، فَالْتَفت الشَّيْخ إِلَىٰ السُّلْطَان، وناداه يَا أَيُّوب مَا حجتك عِنْد الله إِذا قَالَ لَك ألم أبوئ لَك ملك مصر ثمَّ تبيح الْخُمُور؟

فَقَالَ: هَل جرىٰ هَذَا؟

فَقَالَ: نعم الحانة الْفُلَانِيَّة يُبَاع فِيهَا الْخُمُور وَغَيرهَا من الْمُنْكَرَات، وَأَنت تتقلب فِي نعْمَة هَذِه المملكة. يُنَادِيه كَذَلِك بِأَعْلَىٰ صَوته والعساكر واقفون!

فَقَالَ: يَا سَيِّدي هَذَا أَنا مَا عملته هَذَا من زمَان أبي.

فَقَالَ: أَنْت من الَّذين يَقُولُونَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، فرسم السُّلْطَان بِإِبْطَال تِلْكَ الحانة.

يقول تلميذه الشيخ الْبَاجِيّ: سَأَلت الشَّيْخ لما جَاءَ من عِنْد السُّلْطَان وَقد شاع هَذَا الْخَبَر يَا سَيِّدي كَيفَ الْحَال؟

فَقَالَ: يَا بني رَأَيْته فِي تِلْكَ العظمة، فَأَرَدْت أَن أهينه لِئَلَّا تكبر نَفسه فتؤذيه.

فَقلت: يَا سَيِّدي أما خفته؟

فَقَالَ: وَالله يَا بني استحضرت هَيْبَة الله تَعَالَىٰ فَصَارَ السُّلْطَان قدامي كالقط.(١) فالإنسان المؤمن القوي يعتبر أنه يتقرب إلىٰ الله ﷻ بمخالفة المألوف الذي وجد عليه الآباء والأجداد متىٰ كان هذا المألوف مخالفًا لشريعة الله ﷻ.

۞ ثالثًا: صدّه الإنسان عن الهجرة:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «.....**ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ......**».

۞ رابعًا: صدّه الإنسان عن الجهاد طلبًا للراحة:

ثم قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في المرحلة الثالثة: «..... **ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ**(٢)**، فَتُنْكَحُ**

---

(١) طبقات الشافعية: (٨/ ٢٠٩-٢١٢).بتصرف.

(٢) يستغل الشيطان حب الإنسان للحياة والبقاء؛ ليثنيه به عن الجهاد في سبيل الله خوفًا من نيل الشهادة! وهكذا يجيء للابن من الناحية التي كَادَ فيها للأب، فقد خاطب =

الْمَرْأَةُ، وَيُقْسَمُ الْمَالُ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ......». أي أن الشيطان قعد للإنسان بطريق الجهاد هو الآن أسلم أولًا، ثم هاجر ثانيًا، ثم أراد أن يجاهد.

فالشيطان يقف للمرة الثالثة، وهو لا ييأس، فيقول له: أين تريد أن تذهب؟ تجاهد! كيف تجاهد؟! أتدري ما الجهاد؟! الجهاد هو جهد النفس والمال أي: إتعاب النفس والمال، إتعاب النفس معروف بالجهد الذي يبذله الإنسان؛ أما إتعاب المال فقد يكون مجازيًا بمعنىٰ إنفاق المال في الجهاد في سبيل الله، وقد يكون حقيقيًا بمعنىٰ أن الإنسان يتعب ماله، يتعب الخيل والإبل، يتعب العبيد الأرقاء تعبًا حقيقيًا بالجهاد في سبيل الله.

فيقول: مالك وللجهد والتعب؟!

إن الراحة والسكون أمر مطلوب، وأكثرنا يميل إلىٰ الراحة والسكون حتىٰ ولو كان يتطلع ويتمنىٰ الخير ولله در الشاعر الذي يقول:

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والإقدام قتالُ

....

=
الشيطان أبانا آدم فيها في الجنة، وقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠﴾ [طه: ١٢٠] وقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: ٢٠]، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾ [الأعراف: ٢١].

فلأن الإنسان يحب الحياة والبقاء، فالشيطان يقول له: ستقتل فتفقد الحياة!! أيضًا: الإنسان يحب أن يستمتع بزوجته فتنكح الزوجة من بعده، والإنسان يحب ماله فيقسم ماله من بعده، وكذلك ييتم أولادك، إذًا لا داعي للجهاد.

قال ﷺ: «**فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ**» ومن الملاحظ أن الرسول عليه الصلاة والسلام، في المواقف الثلاثة يذكر النتيجة الإيجابية، في الموقف الأول: «**فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ**»، وفي الموقف الثاني: «**فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ**»، وفي الموقف الثالث: «**فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ**».

وبعدما ذكر كيد الشيطان وموقف الإنسان المسلم قال: «**فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ**». فإذا صحت نية الإنسان، أرضاه الله تبارك وتعالىٰ، ولو لم يبلغ ما سعىٰ إليه من الشهادة!!

- ونستطيع أن نزيد صورتين من صور مسخ الفطرة غير التي وردت في الحديث وهي كالتالي:

۞ خامسًا: من صور مسخ الفطرة: استغلال حب الجنس الآخر:

الإنسان مفطور علىٰ الميل للجنس الآخر، فالرجل مفطور علىٰ المرأة، والمرأة كذلك، والرجل يكمل المرأة، والمرأة تكمل المرأة. وهذه قضية بحد ذاتها فطرية غريزية لا يلام عليها الإنسان قال تعالىٰ: ﴿ **وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦** ﴾ [المؤمنون: ٥- ٦]، ولذلك شرع الإسلام الزواج وأمر بتيسير أسبابه وحث عليه.

لكن إذا نظرنا إلىٰ أعوان الشيطان! سنجد عجبًا! فهم يحاولون أن

يجعلوا من هذا الميل الغريزي الموجود لدىٰ كل جنس نحو الجنس الآخر؛ خنجرًا يطعنون به الإسلام والمسلمين.

✍ **ويفعلون ما يلي:**

١- العمل بكل وسيلة علىٰ تهييج الغريزة الجنسية وإثارتها:

٢- سد الأبواب المشروعة للإشباع الفطري.

فيا سبحان الله! ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٧- ٢٨].

سادسًا: من صور مسخ الفطرة: استغلال حب الوطن.

حب الوطن بذاته أمر فطري غريزي، لا يلام الإنسان عليه؛ إن كان هذا الحب صرف في مرضاة الله، فدافع الإنسان عن وطن الإسلام وحماه من الكفار، ومن أعداء الإسلام الذين يريدون احتلاله بالسلاح؛ أو الذين يريدون أن يفرضوا عليه الفساد والانحلال؛ فهذا محمود، وإن كان حب الوطن يدعو الإنسان إلىٰ ترك الهجرة، وإلىٰ ترك الجهاد، وإلىٰ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلىٰ ترك الدعوة؛ فهذا مذموم.

والشيطان يستثمر هذه الغريزة، فيحاول أن يحرك هذه الغريزة في نفس الإنسان؛ ليمنعه بها من أعمال الخير.

موانع الانتفاع بالفطرة السليمة

إنَّ مثَل الفطرة مع الحق كبصر العين مع الشمس، فكل ذي عين مبصرة لو تركت عينه بغير حجاب عليها فإنه يرىٰ الشمس، فالعقائد الباطلة مثل الحجاب علىٰ العين، فهي تحول بين البصر وبين رؤية الشمس، كما أن كل ذي حس سليم يحب الحلو إلّا أن يعرض في طبيعته فساد يجعل الحلو في فمه مرًا، فيقول: أنا أشرب العسل فأجد أنه مر، فنقول له: أنت فيك فساد في حاسة الذوق في لسانك، فالأجزاء الحسية في اللسان فيها آفة، أو عندك سبب آخر، فالأذىٰ فيك أنت، وأما العسل فهو هو، فكذلك العين السليمة يستطيع الإنسان أن يرىٰ بها الشمس، لكن قد تأتي الحجب فتحول دون رؤيتها، والعين نفسها مستعدة لتتقبل ضوء الشمس وتعترف به، لكن الحواجز الموجودة تحجب الرؤية، كما يقول الشاعر:

ومن يكن ذا فم مرّ مريض ... يجد مرًا به الماء الزلالا

أي: بعض الناس يصيبه مرض، فيقول: أنا أشرب الماء وأطعمه مرًا، فهذا آفته في نفسه، وليست في هذا الماء الزلال.



المبحث الخامس

عودة العلم المفقود (الخشوع)



الْخُشُوعُ

الخشوع لغة:

مصدر خشع يخشع وهو مأخوذ من مادّة (خ ش ع) الّتي تدلّ كما يقول ابن فارس علىٰ معنىٰ واحد هو التّطامن، يقال خشع فلان إذا تطامن وطأطأ رأسه وهو قريب المعنىٰ من الخضوع، إلّا أنّ الخضوع في البدن وهو الإقرار بالاستخذاء، والخشوع في البدن والصّوت والبصر، قال تعالىٰ: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ [القلم: ٤٣]، قال ابن دريد: الخاشع: المستكين والرّاكع، وقال الرّاغب: الخشوع الضّراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد علىٰ الجوارح، والضّراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب ولذلك قيل فيما روي: إذا ضرع القلب خشعت الجوارح.

وذكرت كتب اللّغة أنّ الخشوع هو الخضوع، يقال خشع يخشع خشوعًا، واختشع وتخشّع: رمىٰ ببصره نحو الأرض، وغضّه وخفض صوته، وقوم خشّع: متخشّعون، وخشع بصره: انكسر، ولا يقال اختشع بصره، قال ذو الرّمّة: تجلّىٰ السّرىٰ عن كلّ خرق [١] كأنّه... صفيحة سيف، طرفه غير خاشع.

---

(١) الخرق من الأرض بفتح الخاء: البعيدة مستوية كانت أو غير مستوية. والخرق: بكسر الخاء من الفتيان الظريف في سماحة ونجدة. لسان العرب (٢/ ١١٤٢).

واختشع إذا طأطأ صدره وتواضع، وقوله تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]: أي سكنت، وكلّ ساكن خاضع خاشع. والخاشع: الرّاكع، في بعض اللّغات، والتّخشّع: تكلّف الخشوع، والتّخشّع لله: الإخبات والتّذلّل. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩].

✍ **قال الزّجّاج**: الخاشعة المتغيّرة المتهشّمة، وأراد المتهشّمة النبات، وبلدة خاشعة: أي مغبرّة لا منزل بها، وإذا يبست الأرض ولم تمطر قيل: قد خشعت. قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩] والعرب تقول: رأينا أرض بني فلان خاشعة هامدة ما فيها خضراء. (١)

واصطلاحًا: قيام القلب بين يدي الرّبّ بالخضوع والذّلّ وقيل: هو الانقياد للحقّ.

✍ **وقال الجنيد**: الخشوع تذلّل القلوب لعلّام الغيوب.

✍ **قال ابن القيّم**: والحقّ أنّ الخشوع معنىٰ يلتئم من التّعظيم والمحبّة والذّلّ والانكسار. (٢)

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ١٨٢)، والمفردات، للراغب (١٤٨)، والصحاح للجوهري (٣/ ١٢٠٤)، والنهاية لابن الأثير (٢/ ٣٤)، ولسان العرب لابن منظور (٨/ ٧١).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم: (١/ ٥٥٨- ٥٥٩) بتصرف، وفتح الباري (٢/ ٢٦٤).

✍ **وحكىٰ ابن حجر عن الفخر الرّازيّ** في تفسيره أنّ الخشوع تارة يكون من فعل القلب كالخشية، وتارة من فعل البدن كالسّكون، وقيل: لا بدّ من اعتبارهما، وقال غيره: هو معنىٰ يقوم بالنّفس يظهر عنه سكون في الأطراف يلائم مقصود العبادة.

۞ من معاني كلمة الخشوع في القرآن:

ذكر بعض المفسّرين أنّ الخشوع في القرآن علىٰ أربعة أوجه:

۞ أحدها: الذّلّ:

* قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه: ١٠٨].

* وقال تعالىٰ: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الحشر: ٢١].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الغاشية: ٢].

۞ والثّاني: سكون الجوارح:

* قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [القمر: ٧].

* وقال تعالىٰ: ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم: ٤٣].

* وقال تعالىٰ: ﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ ﴾ [النازعات: ٨- ٩].

والثّالث: الخوف:

* قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴾ [الشورىٰ: ٤٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦]

والرّابع: التّواضع:

* قال تعالىٰ: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥]

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾ [آل عمران:

.[١٩٩

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾ [الإسراء: ١٠٩]

* وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. (١)

حديث السنة عن الخشوع:

* عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْخُشُوعُ، حَتَّىٰ لا تَرَىٰ فِيهَا خَاشِعًا**».(٢)

* **فمن أسباب حاجتنا إلىٰ الربانية:** عودة هذا العلم، ولن يتم ذلك إلا إذا اتَّصلت القلوب بالله، وأحسنت الانتساب إليه، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ العِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّىٰ لا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَىٰ شَيْءٍ**» فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ الأَنْصَارِيُّ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا القُرْآنَ فَوَاللهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ:

---

(١) انظر: نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (٢٧٦). ويمكن أن يضاف إلىٰ ذلك وجه خامس وهو: اليبس والجمود: وذلك كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾ [فصلت: ٣٩].

(٢) الجامع الصحيح للسنن والمسانيد: (٢/ ٣٠٦)، صحيح الجامع: (٢٥٦٩).

«**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ هَـذِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟**» قَالَ جُبَيْرٌ: فَلَقِيتُ عُبَادَةَ ابْنَ الصَّامِتِ، قُلْتُ: أَلَا تَسْمَعُ إِلَىٰ مَا يَقُولُ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ قَالَ: «**صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، إِنْ شِئْتَ لَأُحَدِّثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ؟ الخُشُوعُ، يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فَلَا تَرَىٰ فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا**».(١)

* عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْعِلْمُ عِلْمَانِ عِلْمٌ فِي الْقَلْبِ فَذَاكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَعِلْمٌ عَلَىٰ اللِّسَانِ فَذَلِكَ حُجَّةُ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ**».(٢)

فالعلم النافع هو ما باشر القلب فأوجب السكينة والخشية والإخبات والتواضع والانكسار لله، وإذا لم يباشر القلب ذلك من العلم، وإنما كان علىٰ اللسان فهو حجة الله علىٰ ابن آدم يقوم علىٰ صاحبه وغيره، كما قال ابن مسعود: «إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ».(٣)

وقد توعد الله الذين لا تلين قلوبهم للذكر ولا يحدث عندهم الخشية، ومدح الذين تدركهم الخشية عند سماع كلامه فقال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا

(١) سنن الترمذي: (٢٦٥٣)، صحيح الجامع: (٢٣٢٨).
(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد: (١١٦١).
(٣) صحيح مسلم: (٨٢٢).

﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: ٢٢- ٢٣]

ولقد كان النبي ﷺ يستعيذ من قلب لا يخشع عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ: لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: كَانَ يَقُولُ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا**».(١) فالعلم إذا أثمر في القلب خشية وخشوعا فهذا هو العلم النافع، وإذا لم يثمر العلم في القلب الخشية فهذا هو العلم المتعوذ منه.

✍ **ولقد حذر ابن الجوزي** من الاشتغال بصورة العلم دون حقيقته ومقصوده فقال: رأيت أكثر العلماء مشتغلين بصورة العلم دون فهم حقيقته ومقصوده؛ فالقارئ مشغول بالروايات، عاكف على الشواذ، يرى أن المقصود نفس التلاوة، ولا يتلمح عظمة المتكلم، ولا زجر القرآن ووعده، وربما ظن أن حفظ القرآن يدفع عنه، فتراه يترخص في الذنوب، ولو فهم، لعلم أن الحجة عليه أقوى ممن لم يقرأ!

والمحدث يجمع الطرق، ويحفظ الأسانيد، ولا يتأمل مقصود المنقول، ويرى أنه قد حفظ على الناس الأحاديث، فهو يرجو بذلك السلامة، وربما

(١) صحيح مسلم: (٤/ ٢٠٨٨).

ترخص في الخطايا، ظنًّا منه أن ما فعل في الشريعة يدفع عنه!

والفقيه قد وقع له أنه بما قد عرف من الجدال، الذي يقوي به خصامه، أو المسائل التي قد عرف فيها المذهب: قد حصل بما يفتي به الناس ما يرفع قدره، ويمحو ذنبه؛ فربما هجم علىٰ الخطايا، ظنًّا منه أن ذلك يدفع عنه! وربما لم يحفظ القرآن، ولم يعرف الحديث، وأنهما ينهيان عن الفواحش بزجر ورفق، وينضاف إليه -مع الجهل بهما- حب الرئاسة، وإيثار الغلبة في الجدل، فتزيد قسوة قلبه! وعلىٰ هذا أكثر الناس، صور العلم عندهم صناعة، فهي تكسبهم الكبر والحماقة.(١)

درجات الخشوع:

قال ابن القيّم: قَالَ صَاحِبُ الْمَنَازِلِ: وهو أي الخشوع علىٰ ثلاث درجات: التَّذَلُّلُ لِلْأَمْرِ، وَالِاسْتِسْلَامُ لِلْحُكْمِ، وَالِاتِّضَاعُ لِنَظَرِ الْحَقِّ.

- **التَّذَلُّلُ لِلْأَمْرِ** تَلَقِّيهِ بِذِلَّةِ الْقَبُولِ وَالِانْقِيَادِ وَالِامْتِثَالِ. وَمُوَاطَأَةُ الظَّاهِرِ الْبَاطِنَ، مَعَ إِظْهَارِ الضَّعْفِ، وَالِافْتِقَارِ إِلَىٰ الْهِدَايَةِ لِلْأَمْرِ قَبْلَ الْفِعْلِ، وَالْإِعَانَةِ عَلَيْهِ حَالَ الْفِعْلِ، وَقَبُولِهِ بَعْدَ الْفِعْلِ.

- **وَأَمَّا الِاسْتِسْلَامُ لِلْحُكْمِ** فَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الْحُكْمَ الدِّينِيَّ الشَّرْعِيَّ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ عَدَمَ مُعَارَضَتِهِ بِرَأْيٍ أَوْ شَهْوَةٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الِاسْتِسْلَامَ لِلْحُكْمِ الْقَدَرِيِّ، وَهُوَ عَدَمُ تَلَقِّيهِ بِالتَّسَخُّطِ وَالْكَرَاهَةِ وَالِاعْتِرَاضِ.

---

(١) صيد الخاطر: (ص: ٤٤٩: ٤٥٠).

وَالْحَقُّ أَنَّ الْخُشُوعَ هُوَ الِاسْتِسْلَامُ لِلْحُكْمَيْنِ، وَهُوَ الِانْقِيَادُ بِالْمَسْكَنَةِ وَالذُّلِّ لِأَمْرِ اللهِ وَقَضَائِهِ.

- **وَأَمَّا الِاتِّضَاعُ لِنَظَرِ الْحَقِّ** فَهُوَ اتِّضَاعُ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ، وَانْكِسَارُهَا لِنَظَرِ الرَّبِّ إِلَيْهَا(١)، وَاطِّلَاعِهِ عَلَىٰ تَفَاصِيلِ مَا فِي الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ.(١)

---

(١) اعلم أنّ حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرّقيب وانصراف الهمم إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره، يقال إنّه يراقب فلانا، ويراعي جانبه، ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالًا في الجوارح وفي القلب. أمّا الحالة فهي مراعاة القلب للرّقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إيّاه وانصرافه إليه. وأمّا المعرفة الّتي تثمر هذه الحالة فهي العلم بأنّ الله مطّلع علىٰ الضّمائر، عالم بالسّرائر، رقيب علىٰ أعمال العباد، قائم علىٰ كلّ نفس بما كسبت، وأنّ سرّ القلب في حقّه مكشوف كما أنّ ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشدّ من ذلك. فهذه المعرفة إذا صارت يقينا- أعني أنّها خلت عن الشّكّ- ثمّ استولت بعد ذلك علىٰ القلب قهرته؛ فربّ علم لا شكّ فيه لا يغلب علىٰ القلب كالعلم بالموت، فإذا استولت علىٰ القلب استجرّت القلب إلىٰ مراعاة جانب الرّقيب وصرفت همّه إليه؛ والموقنون بهذه المعرفة هم المقرّبون، وهم ينقسمون إلىٰ الصّدّيقين وإلىٰ أصحاب اليمين. انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٣٩٨).

قال تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١]. وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]. وقال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢﴾ [الأحزاب: ٥٢] وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾ [العلق: ١٤] وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨] وقال تعالىٰ: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: ١٩]. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» وَهَذَا إِرْشَادٌ وَأَمْرٌ بِمُرَاقَبَةِ الرَّقِيبِ.

من فوائد (الخشوع):

(١) يورث الخوف والرّهبة من الله ﷻ.

(٢) مظهر من مظاهر الإيمان وحسن الإسلام.

(٣) دليل علىٰ صلاح العبد واستقامته.

(٤) إعلان العبوديّة لله ونبذ ما سواه.

(٥) تكفير الذّنوب وتعظيم الأجر.

(٦) النّجاة من العذاب والعقوبة.

(٧) الفوز بالجنّة.

(٨) الخشوع يرفع صاحبه يوم القيامة.

(٩) الخشوع يؤدّي إلىٰ غضّ البصر وخفض الجناح.

(١٠) الخشوع يبعد القسوة من القلب.

(١١) الخشوع في الصّلاة يؤدّي إلىٰ الفلاح.

(١٢) من خشع قلبه لا يقربه شيطان.

....

=

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٥٩- ٥٦٠) باختصار وتصرف يسير.



المبحث السادس

التمكين لدين الله

أنواع التمكين في القرآن الكريم

* قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

إن هذه الآيات وأمثالها تشير إلىٰ نصر الله وإعزاز أهل الإيمان ممن يحرصون علىٰ الدعوة ويتحملون المشاق في سبيلها سواء كان الداعية رسولًا كريمًا أو أحد المؤمنين، وهذا الإعزاز والانتصار والتمكين يكون في الحياة الدنيا قبل الآخرة.

ونجد في القرآن الكريم والسنُّة النبوية المطهرة، أن من الأنبياء من قتله أهل الكفر والشرك، كيحيي وزكريا عليهما السلام وغيرهما، ومنهم من حاول قومه قتله إلا أن الله نجاه منهم كنبينا محمد وعيسىٰ ابن مريم عليه السلام، وكإبراهيم الذي ترك قومه وعشيرته مهاجرًا إلىٰ الشام، ونجد من أهل الإيمان علىٰ مر العصور ومر الدهور من يسام سوء العذاب وفيهم من يلقىٰ في خدود الأرض المليئة بالنيران المحرقة، ومنهم من يقتل في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، ومنهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد، فأين وعد الله لهم

بالنصر والظفر والتمكين؟ وقد طُردوا أو قتلوا أو عذبوا؟ (١)

إن الشيطان يدخل إلىٰ النفوس من هذا المدخل، ويفعل بها الأفاعيل.

كما أن الناس يقيسون بظواهر الأمور، ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير، فالناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان وهي مقاييس بشرية صغيرة، فأما المقياس الشامل، فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر، ولا بين مكان ومكان، ولو نظرنا إلىٰ قضية الإيمان والاعتقاد لرأيناها تنتصر من غير شك. وانتصار قضية الإيمان هو انتصار أصحابها، فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها، وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها.

والناس كذلك يقصرون معنىٰ النصر علىٰ صورة معينة معهودة لهم، قريبة الرؤية لأعينهم، ولكن صور النصر شتىٰ، وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة.. إبراهيم عليه السلام وهو يلقي في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها.. أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك -في منطق العقيدة - أنه كان في قمة النصر وهو يلقىٰ في النار، كما أنه انتصر مرة أخرىٰ وهو ينجو من النار، هذه صورة وتلك صورة وهما في الظاهر بعيد من بعيد.. فأما في الحقيقة قريب من قريب. (٢)

---

(١) انظر: حقيقة الانتصار، ص (١٣، ١٤).

(٢) انظر: الظلال: (٥/ ٣٠٨٦).

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام كما نصرها باستشهاده، وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة ويحفز الألوف إلىٰ الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقىٰ حافزًا محركًا للأبناء والأحفاد، وربما كانت حافزًا محركًا لخطىٰ التاريخ كله مدىٰ أجيال. (١)

إن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة: ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة، لقد انتصر محمد ﷺ في حياته، لأن هذا النصر يرتبط بمعنىٰ إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض، فهذه العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن علىٰ حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعًا، من القلب المفرد إلىٰ الدولة الحاكمة، فشاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته، ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعية تاريخية محدودة مشهودة، ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرىٰ بعيدة، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية وفق تقدير الله وترتيبه. (٢)

إن النصر والتمكين للمؤمنين له وجوه عدة، وصور متنوعة من أهمها؛ تبليغ الرسالة، وهزيمة الأعداء، وإقامة الدولة.

---

(١) المصدر نفسه: (٥/ ٣٠٨٦).
(٢) المصدر نفسه: (٥/ ٣٠٨٦).

تبليغ الرسالة وأداء الأمانة

إن من أنواع التمكين التي ذكرت في القرآن الكريم، تمكين الله تعالىٰ للدعاة، بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، واستجابة الخلق لهم، وقد أشار القرآن إلىٰ عدة نماذج من ذلك:

أولاً: أصحاب القرية:

* قال تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [يس: ١٣ - ١٨].

إن أهل هذه القرية لم يستجيبوا لدعوة المرسلين، ومضوا في كفرهم وعنادهم غير مبالين، وهددوا المرسلين بالرجم والعذاب الأليم، والمتأمل في الآيات القرآنية تظهر له بعض معاني النصر والتمكين، التي حققها المرسلون، وبذلك يكون المرسلون قد نصروا نصرًا مؤزرًا، ويكون أصحاب القرية هم الخاسرون.

۞ إن معاني النصر ظهرت في الحقائق التالية:

١- تمكين الله تعالىٰ للمرسلين بحيث استطاعوا تبليغ رسالته، ولم يستسلموا لشبهة أهل القرية أولًا، وتهديدهم ثانيًا، وهذه هي مهمتهم: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾ [يس: ١٧] ومن أدىٰ ما عليه فقد انتصر وفاز ونجح.

٢- إن استجابة رجل من أهل القرية لهم، وتأييده لدعوة التوحيد علانية يعد نصرًا وانتصارًا له ولهم، ولذلك كان رد أهل القرية عنيفًا تجاهه، لأنهم شعروا بخذلانه لهم، وخذلانهم نصر لأولئك الرسل.

٣- إن استشهاد الرجل الذي جاء من أقصىٰ المدينة نصر له ولدعوة التوحيد حيث استطاع أن يودع في قلوب الناس من المعاني الكبيرة، ويحفِّز الألوف إلىٰ الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي كتبها بدمه، فأصبحت حافزًا محركًا لأهل الإيمان علىٰ مر الدهور ومر العصور منذ نزول القرآن الكريم إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، والعجيب أن قتله في سبيل دعوة التوحيد كان سببًا في فوزه الأبدي بدخول الجنة ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [يس: ٢٦].

لقد تمكن التوحيد في قلبه فجعله حريصًا علىٰ هداية قومه، فلم يحمل حقدًا ولا ضغينة مع تعذيب قومه له وقتله، وهذا انتصار عظيم علىٰ النفس البشرية: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يس: ٢٦- ٢٧].

إن وصول دعوة التوحيد إلىٰ أقصىٰ المدينة دليل علىٰ المجهود العظيم الذي بذله المرسلون وتدل علىٰ المعاني العظيمة من الصدق والإخلاص التي تمكنت في نفوسهم من أجل دعوة التوحيد.

٤- إن انتصارات هؤلاء الرسل وهذا الداعية الذي جاء من أقصىٰ المدينة توجت بهلاك القوم الذين كذبوا بدعوة المرسلين قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يس: ٢٨- ٢٩].

ثانيًا: أصحاب الأخدود:

إن قصة الغلام مع الملك الكافر من أوضح القصص في تمكين الله تعالىٰ للدعاة في تبليغ رسالتهم وأداء أمانتهم.

* عَنْ صُهَيْبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَىٰ الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَىٰ عَلَىٰ دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّىٰ يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَىٰ

النَّاسُ، فَأَتَىٰ الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَىٰ، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَىٰ، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَىٰ الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَىٰ، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَىٰ فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَىٰ فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمِ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمِ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ

الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّىٰ تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَىٰ جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَىٰ جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّىٰ جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَىٰ الْحَقِّ».(١)

لقد انتصر الغلام بعقيدته علىٰ الملك الكافر، وتمكن منهجه الرباني في نفوس رعايا الملك المشرك الغادر، وثبتوا علىٰ عقيدتهم وضحوا بأنفسهم من أجل إيمانهم وعلَّموا البشرية معنىً من معاني الانتصار.

في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر علىٰ الإيمان، وأن هذا الإيمان الذي بلغ تلك الذروة العالية في نفوس الفئة الخيرية الكريمة الثابتة المستعلية، لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان

(١) صحيح مسلم: (٣٠٠٥).

والطغيان.

في حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة.

ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئًا آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرىٰ.

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان، ليست هي القيمة الكبرىٰ في الميزان، وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة، والنصر ليس مقصورًا علىٰ الغلبة الظاهرة، فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة.

إن الناس جميعًا يموتون، وتختلف الأسباب، ولكن الناس لا ينتصرون - جميعًا - هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الارتفاع، ولا يتحررون هذا التحرر، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلىٰ هذه الآفاق، إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده، تشارك الناس في الموت، وتنفرد دون كثير من الناس في المجد، المجد في الملأ الأعلىٰ، وفي دنيا الناس - أيضًا - إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم يخسرون أنفسهم، وكم كانت البشرية كلها تخسر، كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنىٰ الكبير، معنىٰ زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرّية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة علىٰ الأرواح، بعد سيطرتهم علىٰ الأجساد.

﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [البروج: ٨]. حقيقة ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلىٰ الله، في كل أرض، وفي كل جيل.

إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة، وليست شيئًا آخر على الإطلاق، وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان، ولا يسخطون منهم إلا العقيدة.

إن المتأمل في قصة الغلام يجد أن الغلام انتصر بعقيدته ومنهجه، وكذلك الراهب الذي ثبت من أجل أن تبقى عقيدته في مقابل أن تزهق روحه، أما الأعمى فقد انتصر مرتين، انتصر عندما تخلى عن مكانته عند الملك مع ما في ذلك من جاه ومكانة، وانتصر عندما تخلى عن حياته في مقابل عقيدته.

إن الراهب والأعمى قد خلّدا لنا معاني عظيمة من معاني الانتصار الحقيقي، بعيدًا عن التأويل والتبرير الذي يغطي فيه كثير من الناس ضعفهم وخورهم بستار يوهمون فيه الآخرين أنهم فعلوا ذلك من أجل الدين.

لقد كان الغلام ذكيًا ألمعيًا، وحين سنحت له فرصة عظيمة في تبليغ رسالة ربه، اغتنمها وحقق معاني عظيمة في مفهوم النصر والتمكين.

لقد انتصر الغلام بقوة فهمه وإدراكه لأقصر وأسلم الطرق لنصرة دينه وعقيدته، وإخراج أمته من الضلال إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، وانتصر عندما وفق لاتخاذ القرار الحاسم في الوقت المناسب، متخطيًا جميع العقبات، ومستعليًا على الشهوات وحظوظ النفس ومتاع الحياة الدنيا، وانتصر على هذا الملك المتجبر المتغطرس، الذي أعمى الله قلبه، فأخرب ملكه بيده، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

إن الغلام كان عبقريًّا عندما خطط لإهلاك الملك الكافر وعندما رسم طريقه لنيل الشهادة في سبيل الله.

لقد كان الانتصار العظيم في المعركة بين الكفر والإيمان لصالح موكب التوحيد، لقد استشهد فرد وحيت بسببه أمة فآمنت برب الغلام.

إن دقة التخطيط وبراعة التنفيذ، وسلامة التقدير، نجاح باهر، وفوز ظاهر.

لقد انتصر الغلام عندما جعله الله قدوة لمن بعده، وأبقىٰ له ذكرًا حسنًا علىٰ لسان المؤمنين، حيث جعل الله له لسان صدق في الآخرين، لقد كانت انتصارات متلاحقة ووصلت إلىٰ ذروتها عندما آمن الناس برب الغلام، آمنوا بالله وحده وكفروا بالطاغوت، وهنالك جن جنون الملك، فقد صوابه، فاستخدم كل ما يملك من وسائل الإرهاب والتخويف، في محاولة يائسة، للإبقاء علىٰ هيبته وسلطانه وتعبيد الناس له.

ثم يحفر أخاديده، ويوقد نيرانه، ويأمر زبانيته وجنوده بإلقاء المؤمنين في النار، وتأتي المفاجأة المذهلة، بدل أن يضعف من يضعف، ويهرب من يهرب، إذا نجد الإقدام والشجاعة، وذلك بالتدافع إلىٰ النار ولا غريب، لأن الإيمان بث في نفوسهم الشجاعة، والثبات، وها هم يجدّون في اللحاق بالغلام، وكأنهم يتلذذون في تقديم أرواحهم فداءً لعقيدتهم ودينهم.

إن الإيمان الحقيقي يصنع بالأمم الغرائب، ويبدد الظلام الطويل الذي عاشوه، والسنوات المديدة التي استعبدهم فيها الطغاة، ومع قصر المدة التي قد يأتي فيها الإيمان إلىٰ النفوس إلا أنه كفيل بتعريف الناس بحقيقة المنهج

الرباني كما نرىٰ في هذه الأمة السعيدة التي آمنت برب الغلام، وكأنهم عرفوا المنهج وعاشوا فيه كما عاش الراهب طوال عمره، أو تربوا عليه كما تربىٰ الغلام في صباه.

إن حقيقة الإيمان عندما تخالط بشاشة القلوب، وتلامس الأرواح تفعل العجب.

لقد كان انتصار الناس الذين آمنوا برب الغلام انتصارًا جماعيًا مباركًا يدل علىٰ صفاء العقيدة، ووضوح المنهج، وسلامة الطريق، وفهم لحقيقة الانتصار.

إننا لا نجد في القرآن ولا في السُّنَّة أي ذكر لهؤلاء الظلمة، وماذا كان مصيرهم في الدنيا، ولله في ذلك حكمة قد تخفىٰ علينا. (١)

نعم وردت آية في آخر قصتهم فيها دعوة لهم وتحذير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: ١٠].

✍ قال الحسن البصري: «انظروا إلىٰ هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلىٰ التوبة والمغفرة». (٢)

إن هذه النهاية تحقق معنىٰ دقيقًا من معاني الانتصار.

---

(١) انظر: حقيقة الانتصار: (١٣، ١٤)

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٩٦).

وهنا نطرح هذا السؤال فنقول: **مَنْ المنتصر؟**

هل الذي نصر عقيدته ودين ربه، وحُرّق بضع دقائق، ثم انتقل إلىٰ جنات النعيم، أو ذلك الذي تمتع بأيام في الحياة الدنيا ثم مآله - إن لم يتب - إلىٰ عذاب جهنم وعذاب الحريق؟

هل هناك مقارنة بين الحريق الأول، والحريق الثاني.. حريق الدنيا وحريق الآخرة؟ إنها نقلة بعيدة، وبون شاسع، أما المؤمنون الذين حُرّقوا في الدنيا، فـ ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البروج: ١١]، وتعلن النتيجة التي لا مراء فيها ولا جدال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ أليس هذا هو الانتصار؟ [(١)] هذا في الآخرة، وفي الدنيا تمكن المنهج من قلوب الناس وتم ظهوره.



(١) انظر: حقيقة الانتصار: (٥٥).

هلاك الكفار ونجاة المؤمنين أو نصرهم في المعارك

إن قصة نوح وموسىٰ عليهما السلام نموذج رفيع للتدليل علىٰ أن من أنواع التمكين هلاك الكفار ونجاة المؤمنين، وقصة نوح مع قومه منهج عظيم للدعاة إلىٰ الله، وقصته مليئة بالدروس والعبر، ومما يكسبها أهمية خاصة ما تميزت به، ومن ذلك:

١- أن نوحًا عليه السلام أول رسول إلىٰ البشر، وكل أول له خصوصيته وميزته.

٢- امتداد الزمن الذي قضاه في دعوة قومه (٩٥٠ سنة).

٣- كونه من أولىٰ العزم الذين ذكروا في القرآن.

٤- ورد اسمه كثيرًا في القرآن الكريم حيث بلغ (٤٣) مرة في (٢٩) سورة من سور القرآن، أي في ربع سور القرآن تقريبًا، مع ورود سورة باسمه في القرآن.

وأما قصة موسىٰ عليه السلام مع فرعون، فتبين ضراوة الصراع بين الحق والباطل، والهدىٰ والضلال، والإيمان والكفر، والنور والظلام، وتسلط الأضواء علىٰ استكبار فرعون وتجبره واستعباده عباد الله واستضعافهم واتخاذهم خدمًا وحشمًا وعبيدًا، وكيف أراد الله لبنىٰ إسرائيل أن يرد إليهم حريتهم المسلوبة وكرامتهم المغصوبة، ومجدهم الضائع وعزهم المفقود،

إن من يقف أمام إرادة الله فهو عاجز ضعيف، وهو فاشل مهزوم، وإن أعداء الله أينما كانوا هم إلىٰ هزيمة وخسارة وهوان، وتبين لنا كيف انتقم الله من فرعون ونصر وليه موسىٰ عليه السلام وقومه.

وأما قصة طالوت، فتوضح مرحلة مرت بها أمة بنىٰ إسرائيل، فبعد أن وقعوا في المعاصي، وانحرفوا عن منهج الله وسلط الله عليهم الأعداء وأصاب بني إسرائيل ذل وخيم، ومرارة أليمة، وهزيمة عظيمة، وأرادوا أن يغيروا واقعهم المهين، وأن يبدلوا ذلهم عزة وهزيمتهم نصرًا، وعلموا أن السبيل لذلك هو الجهاد والقتال، فطلبوا من نبيهم أن يختار لهم ملكًا يتولىٰ أمورهم، ويقودهم إلىٰ العزة والنصر، ويقاتل لهم أعداءهم، في سبيل الله، فوقع خيار الله علىٰ طالوت ليكون ملكًا عليهم، ومن ثم يقودهم إلىٰ النصر والعزة والتحرير، فاعترض الملأ علىٰ نبيهم قائلين: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فبين لهم نبيهم أن الله اصطفاه عليهم، والله حكيم خبير، وإن الله زاده بسطة في العلم والجسم، وتسلم طالوت قيادة بنىٰ إسرائيل وكانت قصة طالوت مع بنىٰ إسرائيل من أروع القصص القرآني في بيان سنن الله في النهوض بالأمم المستضعفة، وما هي السمات والصفات المطلوبة للقيادة التي تتصدىٰ لمثل هذه الأعمال العظيمة لتقوية الشعوب والنهوض بها نحو المعالي، وفق منهج رباني ووسائل عملية وتربوية عميقة علىٰ معاني الطاعة والثبات والتضحية والفداء من أجل العقيدة الصحيحة.

وفي سيرة النبي ﷺ نجد هذا النوع من التمكين - ألا وهو النصر علىٰ

الأعداء- واضحًا، فبعد أن هاجر ﷺ إلىٰ المدينة قدّر ظرفه وزمانه ومكانه وجهز قوات جهادية حققت أهدافها القريبة والبعيدة، معتمدًا علىٰ الله في ذلك، شارعًا في الأخذ بالأسباب التي أمره الله بها، فترك لنا معالم نيرّة في مغازيه الميمونة، ودروسًا عظيمة في كيفية تحقيق النصر علىٰ الأعداء والتمكين لدين الله تعالىٰ، بدأ بالسرايا، فحققت أهدافها، ومضىٰ يحاصر قوىٰ البغي والكفر والضلال حتىٰ فتحت مكة، ومن ثم وحدت جزيرة العرب، وأثناء ذلك كان يوجه الضربات المحكمة إلىٰ الوثنية في كل مكان وإلىٰ اليهود الذين نقضوا العهود، وإلىٰ ملوك الأرض يدعوهم للإسلام، فترك البناء متينًا. وقام الخلفاء الراشدون من بعده ليتوسعوا بالإسلام شرقًا وغربًا، وهكذا توالت الأجيال لحمل الرسالة ولأداء الأمانة، وكان تاريخ أمتنا مليئًا بهذا النوع من التمكين، ففي عهد صلاح الدين كانت موقعة حطين علىٰ يديه وكان فتح القدس، وفي عهد يوسف بن تاشفين كانت معركة الزلاّقة، وفي عهد محمد الفاتح كان فتح القسطنطينية، وهكذا نجد دائمًا عون الله لأهل التوحيد والإيمان علىٰ مر العصور وكر الدهور وتوالىٰ الأزمان.(١)



---

(١) فقه النصر والتمكين في القرآن: (١/ ٤٥). بتصرف واختصار.

شروط التمكين وأسبابه

إن الاستخلاف في الأرض، والتمكين لدين الله، وإبدال الخوف أمنًا، وعد من الله تعالىٰ متىٰ حقق المسلمون شروطه.

ولقد أشار القرآن الكريم بكل وضوح إلىٰ شروط التمكين، ولوازم الاستمرار فيه.

* قال تعالىٰ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النور: ٥٥- ٥٦].

* **لقد أشارت الآيات الكريمة إلىٰ شروط التمكين وهي:** (١)

١- الإيمان بكل معانيه وبكل أركانه.

٢- ممارسة العمل الصالح، بكل أنواعه، والحرص علىٰ كل أنواع الخير وصنوف البر.

---

(١) سأتكلم في نقاط مختصرة فقط، لأنني لو فصلت في هذه الأمور سأحتاج إلىٰ مؤلف مستقل، وليس المقام مقام تفصيل في هذا، ولعل الله يبسط فتبسط في موضع آخر.

٣- تحقيق العبودية الشاملة.

٤- محاربة الشرك بكل أشكاله وأنواعه وخفاياه.

وأما لوازم استمرار التمكين فهي:

١- إقامة الصلاة.

٢- إيتاء الزكاة.

٣- طاعة الرسول ﷺ.

وأما ما يتعلق بأسباب التمكين:

فقد أمر الله تعالىٰ بالإعداد الشامل في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والإعداد في حقيقته أخذ بالأسباب، فالإعداد المطلوب من خلال مفهوم الآية إعداد شامل؛ لأن كلمة قوة جاءت نكرة في سياق الأمر، فيشمل الآتي:

١- قوة العقيدة والإيمان.

٢- قوة الصف والتلاحم.

٣- قوة السلاح والساعد.

إن الآية الكريمة تفتح أذهان المسلمين علىٰ الإعداد الشامل؛ المعنوي والمادي، العلمي والفقهي علىٰ مستوىٰ الأفراد والجماعات، وتدخل في طياتها الإعداد التربوي والسلوكي والإعداد المالي، والإعلامي والسياسي والأمني، والعسكري.... إلخ.

صفات جيل التمكين

في مرحلة الإعداد والتربية يهتم المشرفون عليها من الدعاة بصفات جيل التمكين ويعملون على غرسها في نفوس العناصر التي اختيرت لهذه المرحلة؛ لعلمهم اليقيني أن لجيل التمكين صفاتٍ خاصةً، تميزه عن غيره من الأجيال وسمات يعرف بها، ذلك أنه الجيل الذي يعد ليكون مؤهلا لنصر الله وسببا لإعادة مجد الأمة التي اختارها الله لإعلاء كلمته ونصر دينه وعقيدته، وعندما تبرز صفات جيل التمكين في جيل يكون مؤهلا للتغلب على التحديات التي تواجهه سواء كانت محلية، أو كانت داخلية، أو كانت عالمية، ويمكننا تقسيم صفات جيل التمكين إلى: صفات إيمانية، صفات سلوكية أخلاقية، صفات حركية ودعوية، صفات نفسية.

١ - صفات إيمانية:

١ - **ربانية وإخلاص**: أي أنهم مخلصون لله رب العالمين، فإذا جاءتهم الدنيا جعلوها في أيديهم ولم يدخلوها في قلوبهم، لا يعبدون الأشخاص، ولا الأهواء، ولا الطاغوت أيا كان فقد تبين لهم الرشد من الغي، فكفروا بالطاغوت وآمنوا بالله وحده فاستمسكوا بالعروة الوثقى لا انفصام لها قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

٢- الشعور بمعية الله ﷻ: وهذا الشعور يدفع العبد المؤمن إلىٰ الصدع بالحق ويطلق صاحبه الجبن والخوف والهلع، ويحدث في النفس انقلابا نفسيا في حياة الداعية، ولنتذكر حين ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١- ٦٢].

٣- غرباء في هذه الدنيا: إن هذا الصنف هو الذي أشار إليه رَسُولُ اللهِ ﷺ حين قَالَ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ**».(١)

* وفي لفظ: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَنَّةَ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، ثُمَّ يَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ**» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «**الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**».(٢)

والمسلم إذا شرح الله صدره للإسلام وملأ قلبه بالإيمان يستسهل كل صعب ويستعذب كل كدر، إن هذا الغريب يرسل للناس من الأشعة الهادية ما ينير لهم الطريق، فهي ليست غربة عزلة وفرار، ولكنها غربة رفعة وسمو وحرص علىٰ إيصال دعوته للجميع، فهو لا يعيش في برج عاج بعيدًا عن الناس، بل يتفاعل معهم ويحمل همومهم ويعاونهم في حل مشاكلهم، فالناس جزء منه وهو جزء منهم فلا يتصور أن يتعالىٰ عليهم.

٤- طلاب آخرة: لعلمهم بأن متاع الدنيا قليل وبأنه ينتهي ويزول

(١) صحيح مسلم: (١٤٥).
(٢) مسند أحمد: (٢٧/ ٢٣٧).

﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء: ٧٧] ولذلك تنشأ سعة في نفوسهم، ورقة في مشاعرهم، وتحررًا من المادة وظلامها.

٥- أوابون توابون: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[آل عمران: ١٣٥].

وهذه مفاهيم إيمانية يجب أن تعيشها الأمة:

١- اليقين والثقة بمنهج الله وهو الحق وما عداه باطل.

٢- الوعي بدورها ومهمتها وهي الشهادة علىٰ العالمين ولن تتحقق إلا بالعيش مع الكتاب والسنة.

٣- اليقين بضخامة الأجر وعظم المنزلة المترتبة علىٰ القيام بالشهادة.

٤- اليقين بنصر الله وأنه لابد آت.

٥- اليقين بأن نصر الله لا يتنزل جزافا.

٢ - صفات سلوكية وأخلاقية:

ولابد لجيل التمكين من صفات أخلاقية سلوكية يجب أن يتحلىٰ بها ومن أبرزها:

١- **الصدق**: وهو سلوك وصف الله ﷻ به أنبياءه عليهم السلام: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٤]، واتصف به حبيبنا ﷺ حتىٰ قبل بعثته، ووصف به ربنا سبحانه الرجال، فقال تعالىٰ:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ...﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٢- **الصبر**: خلق وصف الله تعالىٰ به الدعاة ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ...﴾ [السجدة: ٢٤] وهو خلق لازم للداعية ويكفي أن يعلم الداعية جزاء الصبر ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

ولنا في قدوتنا ﷺ أسوةٌ حسنةٌ في صبره علىٰ أهل مكة وما لاقاه عند عودته من الطائف وغيرها.

٣- **الحب والإيثار**: وأعلىٰ مراتب الحب الإيثار وأدناها سلامة الصدر، وأن يكون لإخوانه كالبنيان يشد بعضه بعضا، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٣﴾ [الأنفال: ٦٢- ٦٣].

٤- **العطاء والبذل والجود**: وهي صفة بارزة في حياة المؤمن فهي قاعدة المجتمع المؤمن المتكافل المتضامن، عَنْ مُوسَىٰ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَىٰ قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَىٰ الْفَاقَةَ». (١)

---

(١) صحيح مسلم: (٢٣١٢).

ونعـم العطـاء هـذا الـذي يجعـل الـبعض يحـب الإسـلام وأهلـه ويفـتح الأبواب الموصدة والقلوب المغلقة، إن الإيثار علىٰ النفس مع الحاجة قمة عليا يجب لمن وصل إلىٰ مرحلة الإعداد والتربية أن يكون له فيها نصيب كبير.

ومراتب الجود والإيثار كثيرة منها:

- الجود بالنفس وهو أعلىٰ المراتب.

- الجود بالعلم وبذله.

- الجود بالنفع بالجاه كالمشي في قضاء مصالح المسلمين.

- الجود بالصبر والاحتمال.

- الجود بالراحة فيتعب في قضاء مصالح غيره.

- الجود بترك ما في أيدي الناس لهم، فلا يلتفت إليه بقلبه ولا يتعرض له بحاله ولا بلسانه وغير ذلك من أنواع الجود.

٥- **العفة والاستغناء عن الناس**: إنه جيل مرتبط بالله ﷻ لا يعمل إلا لله، ولا يسأل إلا الله، فهو غني بالله ولذلك امتلأت نفوسهم عفة لا يتطلعون إلا إلىٰ فضل الله ولا يرجون إلا رحمة الله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ [القصص: ٢٤].

٣ - الصفات الحركية والدعوية:

١- يجب أن يتولد لدىٰ جيل التمكين شعورٌ ذاتي بمسئولية العمل

للإسلام: واستعداد كامل لتلبية حاجات هذه المسئولية من النفس والجهد، فهو لا ينتظر التكليف الحركي لينهض بالأعباء والمسئوليات، وإنما يتولد في أعماقه شعور بالمسئولية ويجري في عروقه إحساس رباني بالتكليف.

فهذا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - عندما التزم بالإسلام تفجرت فيه الذاتية الحركية فذهب إلىٰ بلال بن رباح، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان والزبير بن العوام، ودعاهم للإسلام فأسلموا، وقد ذكر لنا القرآن الكريم قصة مؤمن آل فرعون وكيف قام بدعوة قومه إلىٰ الإيمان بدعوة موسىٰ عليه السلام.

٢- يؤمن بالواقعية والعملية: فهو بعيد عن الغوغائية ويحتكم إلىٰ الحقائق لا إلىٰ الأوهام، ولا ينسىٰ وهو يتطلع إلىٰ السماء أنه واقع علىٰ الأرض، فلا يجري وراء خيال كاذب ولا أماني موهومة فيسبح في غير ماء، ويطير بغير جناح، جيل كبير الآمال ولكنه واقعي التفكير، ولا ييأس من روح الله ولا يقنط من رحمة ربه لكنه يعرف حدود قدراته، ودوائر إمكاناته، يراعي سنن الله في كونه كما يراعي أحكامه في شرعه ويتبنىٰ سياسة النفس الطويل والصبر الجميل، يؤمن بالعلم ويحترم العقل، ولا يتبع الظن وما تهوىٰ الأنفس، ويرفض الخرافة.

٣- جيل عمل وبناء جماعي: فلا يقف أبناؤه عند التغني بأمجاد الماضي، ولا عند النواح علىٰ هزائم الحاضر، ولا عند التمني لانتصارات المستقبل، إنما يؤمن بالعمل والعطاء والإنتاج، وأن الإيمان الحق ما وقر في القلب وصدقه العمل، وما خلق الله الناس إلا ليعملوا بل ما خلقهم إلا

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقد علموا من حقائق التاريخ وقراءة الواقع أن أهل الباطل يتكتلون حول باطلهم فأولىٰ بأهل الحق أن يتجمعوا حول حقهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤].

لهـذا صـمموا علـىٰ أن يبحثـوا علـىٰ أشـباههم ممـن ينشـدون الحـق ويرفضون الباطل، ويدعون إلىٰ الخير وينكرون الشر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فمضوا في طريق العمل الجماعي يعملون في صمت، ويبنون في صبر ويجاهدون بلا كلل، ولا ملل، وعزموا علىٰ أن يكونوا متعاونين علىٰ البر والتقوىٰ متكاتفين في السراء والضراء.

٤- **جيل دعوة وجهاد:** كما كان الصحابة من المهاجرين والأنصار لا يشغلهم جهاد عن جهاد ولا ميدان عن ميدان، فهم دائمًا في صراع متواصل، لا يلقون سلاحهم ولا يستريحون من كفاحهم ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. يجاهدون في سبيل الله في كل معركة تطلبهم وبكل سلاح يمكنهم.

٥- **جيل توازن واعتدال:** فهم متوازنون معتدلون علىٰ صراط مستقيم لا يميلون إلىٰ اليمين ولا ينحرفون إلىٰ الشمال، لا يغرقون في الماديات ولا يغرقون في الروحانيات، يعلمون أن لربهم عليهم حقًا وأن لأنفسهم عليهم حقًا، وأن لأسرهم عليهم حقًا، ولمجتمعهم عليهم حقًا، فهم يعطون كل ذي حق حقه، غير جانحين إلىٰ الإفراط ولا مائلين إلىٰ التفريط، يأخذون

بالعزائم ولا يغفلون الرخص، فإن الله يحب أن تؤتىٰ رخصه كما يحب أن تؤتىٰ عزائمه..

يبشِّرون ولا ينفرون، وييسرون ولا يعسرون، ويجادلون بالتي هي أحسن ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]. يفرقون بين الأصول والفروع، والكليات والجزئيات، والقضايا المصيرية والمسائل الجانبية، ويمزجون بين الروح والمادة، والعقل والقلب، وبين الثبات علىٰ الغايات والتطور في الأساليب، بين أداء الواجبات وطلب الحقوق، بين الحرص علىٰ القديم والاستفادة من الجديد، فلا ينقطعون عن الماضي ولا ينعزلون عن الحاضر، فرسان بالنهار ورهبان بالليل، لا تلهيهم نافلة عن فريضة ولا فرض عن مثله.

٦- **جيل منضبط**: يعيش جو الانطلاقة بضوابطه فيتحرك بدعوته وفكره بين الناس مراعيا الضوابط الحركية حتىٰ لا تكون حركة غوغاء، ولا تمنعه الطاعة من إبداء آرائه في جو من الصراحة والوضوح وتتسع صدوره لآراء المخالفين، ولا يجد غضاضة في التنازل عن رأيه إذا استقر رأي الشورىٰ علىٰ رأي آخر، يعرف ما الذي يعلن من دعوته فلا يتردد في الجهر به وتعليمه للناس، وما الذي يسر فلا يبوح به ولا لأقرب الناس إليه.

٤ - الصفات النفسية:

من الصفات النفسية التي يجب أن يتحلىٰ بها جيل التمكين:

١- **إرادة قوية لا يتطرق إليها لين ولا ضعف**: يقول تعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن

نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٤٦] **ومن مظاهرها:**

- معرفة الهدف والإصرار علىٰ تحقيقه والوفاء له.

- الهمة العالية والعمل الدائب المتواصل.

- محاسبة النفس بشدة والانتصار عليها.

- مخالطة الناس والصبر علىٰ أذاهم.

- الصبر وتحمل المشاق والصعاب والتغاضي عن الهفوات.

- الصراحة في الحق والانصياع له والاعتراف بالخطأ وعدم إفشاء السر.

- استشراف الأمل وعدم اليأس وسياسة النفس الطويل.

٢- تضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل: ومن مظاهر التضحية العزيزة:

- وضع الدعوة في قمة الأولويات مع استصحاب نية التضحية.

- القدوة في بذل العزيز علىٰ النفس (المال - الراحة - النفس - فراق الأهل...).

- تربية من يعولهم علىٰ البذل والعطاء والتضحية.

- ربط المصير بالمصير وأن يوطن ظروفه مع ظروف الدعوة.

- تخليص النفس من كل مظاهر الطمع والبخل.

- تقديم مصلحة الدعوة علىٰ المصلحة الفردية.

- الاستعداد الكامل لتنفيذ الأمر علىٰ أي حال وتحت أي ظرف.

٣- وفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر:

ومن أنواع الوفاء:

وفاء مع الله - مع الدعوة - مع الإخوة - مع النفس - مع الناس.

ومن مظاهر الوفاء الثابت:

- الاعتراف بالجميل وتوريث الدعوة وفتح مجالات عمل جديدة.

- الاستمرارية في العمل حتىٰ في أحلك الظروف.

- المصارحة والنصيحة بآدابها الشرعية.

- حمل الأهل والأقارب علىٰ احترام الدعوة والتحمس لها.

- تفقد الغائب والشعور بآلام الآخرين.

- إيثار المصلحة الدعوية علىٰ المصلحة الفردية.

- الذب والدفاع عن الإسلام وقياداته وعلمائه.

٤- ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له يعصم من الخطأ فيه أو الانحراف عنه أو المساومة عليه أو الخديعة بغيره:

- إخلاص الوجهة لله وتصحيح النية دائما.

- وضوح الهدف وطبيعة الطريق وكيفية الوصول إلىٰ الأهداف.

- استشعار ثقل الأمانة والتبعة الملقاة علىٰ الدعاة.

- التمسك بالقرآن والسنة وفهم السلف الصالح.

- العمل الجاد والمتواصل الذي يؤدي إلىٰ أفضل النتائج بأقل مجهود.

- عدم الاجتهاد في الثوابت.

- محاسبة النفس واتهامها عند الاختلاف.

٥- **الاتزان النفسي «الانفعالي»**: وهي صفة مهمة يجب أن يتصف بها صاحب الشخصية السوية المتزنة، ومن أهم مظاهر الاتزان النفسي:

- الثقة بالله ﷻ وفي نصره وتأييده لأوليائه وحسن التوكل عليه.

- ملك النفس عند الغضب.

- العاطفة المتزنة.

- وضع الأمور في نصابها وحجمها دون تضخيم ولا تصغير.

- البعد عن الحساسية المفرطة وأن يؤخذ الكلام علىٰ أحسن محمل.

- الانضباط والكتمان وعدم الثرثرة.

- البعد عن الانطوائية.

- ذلكم هو الجيل الذي ننشده وتنشده معنا الأمة بكاملها، وهو الجيل الذي تعمل القوىٰ العالمية علىٰ إجهاضه، وشغله عن معاركه ومعارك أمته الكبرىٰ بمعارك جانبية تافهة، وإغراقه في دوامة من الجدل لا يخرج منها، إن هذا الجيل هو جيل النصر الذي تتحرر علىٰ يديه كل أرض دنسها الفجار،

هو الذي ترتفع به راية الله في أرض الله، هذا الجيل هو الجدير بأن يتنزل عليه نصر الله ﷻ، عندما كانت صفات جيل التمكين متمكنة في الجيل الإسلامي الأول استطاع ذلك الجيل:

- أن يحرر الجزيرة العربية من دنس الصهيونية في بني النضير وبني المصطلق وبني قينقاع وخيبر.
- أن يستأصل شأفة الوثنية في بدر والأحزاب وفتح مكة.
- أن ينكس رايات الصهيونية في اليرموك وحطين.
- أن يهزم المجوسية في القادسية. (١)

---

(١) فقه النصر والتمكين في القرآن: (١/ ٤٥٥/ ٤٤٦). بتصرف واختصار.



المبحث السابع

نصر الله للربانيين

نصر الله للربانيين

* قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ ﴾ [المجادلة: ٢٠].

الله تبارك وتعالىٰ هو الناصر، الذي ينصر رسله وأنبياءه وأتباعهم علىٰ أعدائهم، ويثبت أقدامهم عند لقاء عدوهم، ويلقي الرعب في قلوب أعدائهم.

وهو سبحانه النصير، الذي ينصر أولياءه، الذي لا يخذل وليه، ولا يسلمه لأعدائه.

وهو ﷻ الناصر والنصير لعباده المؤمنين، الذي ينصر من يشاء، في أي وقت شاء، والنصر منه وحده، والمنصور من نصره الله، والمخذول من خذله الله: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ... ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

فهو سبحانه الناصر لأهل الإيمان، فلو اجتمع عليهم أهل الأرض جميعًا وما عندهم من العُدد والعَدد نصر الله المؤمنين عليهم، لأن الله لا غالب له، فهو الذي قهر الخلائق وأخذ بنواصيهم، وإذا أراد أن يخذل أحدًا خذله ولو أعانه جميع الخلق.

فعلىٰ المؤمن حقًا الاستنصار بالله، والاعتماد عليه، والبراءة من الحول

والقوة، والتوكل علىٰ الله وحده، الذي يملك النصر وحده.

وقد نصر الله أنبياءه ورسله والمؤمنين في مواطنَ كثيرة، وخذل أعداءهم، وأعز الله المؤمنين، وخذل الكافرين.

وقد تكفل الله سبحانه بنصر أوليائه علىٰ أعدائه في الدنيا والآخرة كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [غافر: ٥١- ٥٢].

وقد أوجب الله سبحانه علىٰ نفسه نصر المؤمنين علىٰ أعدائهم كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم: ٤٧].

والله ﷻ قادر علىٰ نصرة دينه، فهو الذي نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وهو القوي القادر علىٰ كل شيء، ولكنه ابتلىٰ ويبتلي عباده بذلك التسليط، ليظهر من ينصر دينه وشرعه ممن يتولىٰ عن نصرته كما قال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٤].

وقد بين الله لعباده أنه لا ناصر لهم دونه، ولا معين لهم سواه، وذلك لتتوجه قلوبهم له، وأكفهم بالضراعة إليه، فهو الملك البر الرحيم، الذي يملك الخلائق كلها، ويتصرف فيها كيف يشاء ويجري عليهم أحكامه القدرية والشرعية والجزائية، وهو مولىٰ المؤمنين وناصرهم، فليتوجهوا إليه

وحده في جميع حوائجهم، فهو نعم المولىٰ ونعم النصير: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧].

اللهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦].[1]



(١) موسوعة فقه القلوب (١/ ٣٠٨/ ٣١٠). بتصرف.



الفصل الرابع

الدليل إلى الربانية

تمهيد

قبل الحديث عن دليل الربانية، هناك أمر مهم ينبغي الإشارة إليه، وهو أن القلوب مهما بلغ مرضها، واشتدت قسوتها إلا أنها تظل تحمل في طياتها إمكانية عودتها إلىٰ الصحة والحياة مرة أخرىٰ فتكون ربانية بأمر الله تعالىٰ، وإلىٰ هذا المعنىٰ يشير قوله تعالىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٧].

والملاحظ أن هذه الآية جاءت بعد الآية التي عاتب الله فيها عباده المؤمنين علىٰ عدم خشوع قلوبهم، قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]

✍ **يقول ابن كثير معلقًا:** فَفِي ذِكْرِهِ تَعَالَىٰ لِهَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ الَّتِي قَبْلَهَا تَنْبِيهٌ عَلَىٰ أَنَّهُ تَعَالَىٰ كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، كَذَلِكَ يُلِينُ الْقُلُوبَ بِالْإِيمَانِ بَعْدَ قَسْوَتِهَا مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي. (١)

✍ **وقال ابن كثير أيضا:** وَقَوْلُهُ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٦).

بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ، تَعَالَىٰ، يُلِينُ الْقُلُوبَ بَعْدَ قَسْوَتِهَا، ويَهدي الحَيَارىٰ بَعْدَ ضَلتها، ويفرِّج الْكُرُوب بَعْدَ شِدَّتِهَا، فَكَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ الْمُجْدِبَةَ الْهَامِدَةَ بِالْغَيْثِ الهتَّان الْوَابِلِ كَذَلِكَ يَهْدِي الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ بِبَرَاهِينِ الْقُرْآنِ وَالدَّلَائِلِ، وَيُولِجُ إِلَيْهَا النُّورَ بَعْدَ مَا كَانَتْ مُقْفَلَةً لَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْوَاصِلُ، فَسُبْحَانَ الْهَادِي لِمَنْ يَشَاءُ بَعْدَ الْإِضْلَالِ، وَالْمُضِلِّ لِمَنْ أَرَادَ بَعْدَ الْكَمَالِ، الَّذِي هُوَ لِمَا يَشَاءُ فَعَّالٌ، وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ فِي جَمِيعِ الْفِعَالِ، اللَّطِيفُ الخبير الكبير المتعال. (١)

ولعل في جيل الصحابة خيرَ شاهد علىٰ ذلك فحسان بن ثابت أسلم وهو في الستين من عمره، وعكرمة بن أبي جهل مات شهيدًا في اليرموك بعد أن كان النبيُّ قد أهدر دمه عند فتح مكة، وغيرهما وغيرهما.



(١) تفسير ابن كثير: (٨/ ٢١).

المبحث الأول
القرآن الكريم هو الدليل إلى الربانية

الدليل إلىٰ الربانية هو القرآن الكريم (١)، والله سبحانه وتعالىٰ يريد منا أن نعرف كتابه العزيز، وأن نعيش في ظلاله، ولذلك عرض لنا طائفة من أسماء القرآن وصفاته وخصائصه وسماته، ولهذا وجب علينا أن نعرف القرآن وأن نفهمه جيدا، وأن نتفاعل مع أسمائه حتىٰ نعرف طبيعته ودوره ومهمته ورسالته...... لأنه لا أحد أعلم بكلام الله من الله سبحانه، وإن تفضل الله علينا بتعريف أسماء كتابه لهو نعمة سابغة ولهو رحمة باهرة، علينا أن نقابلها بالتوجه إلىٰ الله سبحانه بالحمد والشكر والإخلاص والحب والإقبال علىٰ كتابه الكريم بالتدبر والتذوق والالتزام والتطبيق، لنعرف طعم الحياة، ونتذوق ألوانها ومظاهرها.

---

(١) لقد تكلمت بفضل الله تعالىٰ عن القرآن الكريم، وعن كيفية التعامل والتعايش معه بشيء من التفصيل في الفصل الأول من كتابي: فتح المنان في بيان مقاصد وتناسب سور القرآن. ولذلك لن أعيد الكلام هنا، ولكن سأتكلم عن القرآن الكريم بشيء من الاختصار إتمامًا للفائدة، مع الحرص علىٰ إضافات وزيادات لبعض الأمور.

بعض أسماء القرآن وخصائصه، وسماته وصفاته:

أولاً: القرآن:

هو أشهر هذه الأسماء وأبرزها وأظهرها، وقد خص الله كتابه المنزل علىٰ رسول الله بهذا الاسم، حيث لم يطلق علىٰ كتب الله السماوية السابقة.

ولعل في اختيار هذا الاسم الكريم المتميز المتفرد إشارة بارزة إلىٰ وجوب تميز وتفرد الأمة الإسلامية الأمينة علىٰ قرآنها وعلىٰ وجودها وعلىٰ البشرية من حولها بحيث لا تأخذ في مناهج حياتها من غير هذا القرآن الكريم.

- **أخبر الله عن بدء نزول القرآن** في شهر رمضان المبارك بقوله تعالىٰ: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]

- **وقال تعالىٰ في وصف القرآن:** ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ ﴾ [ص: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ ﴾ [ق: ١].

- **ووصف القرآن بأنه عربي مبين فقال تعالىٰ:** ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾ [يوسف: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [الرعد: ٣٧].

- **وقرر الله أن القرآن ميسر للذكر** لمن أراد أن يذكر ويتذكر، ولمن تعامل معه بقلب حي وتأثر بالغ فقال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ

﴿ ... (١٧)﴾ [القمر: ١٧].

– **وبين الله أنه ضرب في هذا القرآن للناس** من كل مثل لعلهم يتفكرون أو يتذكرون، قال تعالىٰ: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾ [إبراهيم: ٢٥].

– **ولكنهم غفلوا عن هذه الأمثال وأعرضوا عنها**، واختاروا أن يعيشوا في ريبهم وكفرهم يترددون. فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١)﴾ [الإسراء: ٤١].

– **وأعلمنا الله أن الكفار لا يحبون سماع هذا القرآن**، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام إذا قرأ القرآن فإن الحاجز السميك، والحجاب الساتر، يرتفع بينه وبين أولئك الكفار، وأن هذا الحجاب الحاجز يتمثل في الأغطية علىٰ القلوب، وفي الصمم في الآذان، فلا تعي ولا تتدبر كلام الله، ولذلك يعرضون عن القارئ لكلام الله، ويولون مدبرين نافرين فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا (٤٦)﴾ [الإسراء: ٤٥- ٤٦].

ودعانا إلىٰ أن نتهيأ لتلاوة القرآن، وأن نستعد لها استعدادًا خاصًا، بأن نتوجه إلىٰ الله قبلها، نستعيذ به من الشيطان، لتكون هذه الاستعاذة وسيلة لتدبر كلام الله، فقال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ

﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل: ٩٨].

– **وطالبنا الله بالأدب الجم مع القرآن،** عندما نسمع آياته تتلىٰ علينا، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

– **وبيّن أثر القرآن علىٰ الجبال الجوامد لو خاطبها به وتفاعلها معه،** وأبرز مظاهر التأثير والانفعال عليها فقال: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١].

– **ولقد أمرنا الله بتدبر القرآن،** والوقوف طويلًا أمام آياته، وملاحظة إيحاءاتها وتوجيهاتها ومعانيها وحقائقها، فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤].

– **وأرشد الله إلىٰ أن نجعل التدبر وسيلة لا غاية،** ولا نقعد عنده ونتشاغل به عن الهدف المنشود، وهو زيادة الإيمان والثقة واليقين بكلام الله، وملاحظة تناسقه وتناسبه وإدراك مهمته وأغراضه، وتلقي حقائقه ومقرراته فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

– **وقد ذم الله الكفار الذين قسموا القرآن،** وأطلقوا عليه صفات باطلة

ليصدوا الناس عن الإيمان به فقالوا عنه: سحر وشعر وكهانة قال تعالىٰ: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الحجر: ٩٠- ٩١]. وعضين أي مفرقًا، حيث قالوا كهانة وقالوا أساطير الأولين إلىٰ غير ذلك مما وصفوه به. (١)

- **وسجل القرآن الكريم شكوىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ ربه**، من الكفار وإعراضهم عن القرآن وهجرهم له. فقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٠].

- **بل سجل القرآن أسلوبًا من أساليب الكفار في مواجهتهم لهذا القرآن**، ومحاربتهم له، وبذلهم كل ما في وسعهم من طاقة لطمس نوره والقضاء عليه.....وهيهات هيهات.

إنهم يلجأون إلىٰ وسيلة خسيسة تنبئ عن هزيمتهم الداخلية أمام القرآن، إنهم يطلبون من الجماهير المخدوعة أن تستعيض عن ذلك باللغو والصياح والضجيج، ورفع الأصوات اللاغية، والمكاء والصفير، والتصدية والتصفيق.... لعلهم يغلبون هذا الحق ويطمسون هذا النور، ويغطون نور الشمس برقعة منديل. قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت: ٢٦].

---

(١) المفردات: (٢٣٨).

ثانيًا: الكتاب:

وهو الاسم الثاني للقرآن الكريم، وقد ذكر كثيرًا في آياته، وتردد كثيرًا في سوره، وهو يلي القرآن في الشهرة وكثرة الذكر، والقرآن كتاب باعتباره مكتوبًا، مضمومة حروفه وكلماته وآياته عن طريق الخط والكتابة....

- **هذا الكتاب الذي أنزله الله هو حق لا ريب فيه**، وهو هدىٰ للمتقين. قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١- ٢]. وهو كتاب حكيم كما أنه قرآن حكيم.. قال تعالىٰ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس: ١]، وقد أحكمت آياته ثم فصلت ووضحت وبينت، وقدمت للناس ليؤمنوا بها قال تعالىٰ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١].

- **وخاطب الله رسوله ﷺ بأنه أنزل عليه القرآن**، وذلك ليخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور، من ظلمات الكفر إلىٰ نور الإيمان، وكتاب الله هو الوسيلة الوحيدة لهذا الإخراج، وأية وسيلة أخرىٰ غيره إنما هي أوهام وظنون وتخرصات، ولا تنتج إلّا مزيدا من الظلمات. قال تعالىٰ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١].

- **وأعلمه أنه أنزل إليه الذكر والكتاب تبيانا لكل شيء وتفصيلا له**، وهو بهذا التبيان هدىٰ ورحمة وبشرىٰ للمسلمين، فقال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ

ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل: ٨٩] وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل: ٤٤].

بل قصر الله مهمة الكتاب الكريم علىٰ هذا البيان، وحصرها به، وطالب رسوله عليه الصلاة والسلام بالقيام بذلك وتبليغه وأدائه.. فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤].

وقد أشار القرآن إلىٰ وظيفة الرسول عليه الصلاة والسلام في تعليم الأمة كتاب الله، فسجل دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بذلك منذ زمن بعيد، حيث دعوا الله أن يبعث للبشرية خيرًا وطهرًا ونورًا وهداية. قال تعالىٰ: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وأخبرنا الله أنه استجاب دعوة النبيين الصالحين عليهما الصلاة والسلام فقال تعالىٰ: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقال تعالىٰ مظهرًا المنة الربانية العظمىٰ علينا ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام، وإخراجه هذه الأمة بإذن ربها من الظلمات إلىٰ النور، ومن الضلال إلىٰ الهدىٰ، ومن الموت إلىٰ الحياة: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ

رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ونلاحظ في القرآن آية كريمة قسمت المسلمين في تعاملهم مع كتاب الله أقساما ثلاثة، فهم قد ورثوا كتاب الله، ولكنهم ليسوا علىٰ مستوىٰ واحد في هذه الوراثة، ولا علىٰ درجة واحدة في الاعتناء بهذا الموروث الكريم، والكنز العتيق، والبركة الغامرة، فمنهم من ظلم نفسه في التعامل مع كتاب الله وتطبيقه، فقصر في الواجبات وارتكب المحرمات، ومنهم من هو مقتصد لا يريد أن تزيد طاعاته علىٰ معاصيه ولا العكس، والصنف الثالث هو الفائز الناجح، وهو السابق بالخيرات، والمستزيد من الطاعات، والمكثر من الحسنات ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

ثالثًا: الذكر:

قال تعالىٰ: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]

وفي القرآن الذكر المجيد لهذه الأمة، فقد كانت قبل هذا القرآن نكرة من النكرات، تعيش وتموت ولا يحس بها أحد إن عاشت أو ماتت.. ثم أعلىٰ القرآن ذكرها، وبوأها مكانتها، وأسلمها قيادة البشرية، وجعلها قائدة ورائدة، وفي مركز الأستاذية والوصاية والرعاية.. ولا ذكر لهذه الأمة إلّا بالتزام الذكر

الرباني، والانطلاق به والظهور من خلاله. هذا أو العودة إلىٰ زوايا النسيان وعالم النكرات، وذيل القافلة وسقط المتاع.. قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وهذا الذكر المبارك لا يستفيد منه إلّا من كان صاحب قلب حي متفاعل، فيمتزج الذكر الرباني مع القلب الإيماني، وتسري الحياة مع القرآن إلىٰ القلب فتحييه.. وتظهر سمات الحياة القرآنية علىٰ الجوارح، وتلحظ علىٰ السلوك، وتكون ثمارًا يانعة خيرة في الواقع المعاش. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩- ٧٠].

رابعًا: الروح:

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]. ونأخذ هذه الآية علىٰ حقيقتها، ونأخذ هذه السمة القرآنية علىٰ ظاهرها، فإنه روح وإنه حي وإنه حياة، والإنسان يكون ميتا بين الأموات، يكون ميت القلب، والإحساس والشعور، ثم يتفاعل مع الروح القرآني المحيي، ويفتح لهذه الروح قلبه وأحاسيسه وكيانه فتدب في هذا القلب الحياة، وتنعكس علىٰ الظاهر في الحياة.. وصدق الله القائل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ

بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

خامسًا: النور:

القرآن نور يشرق في قلب المؤمن فيزهر بالإيمان، ويشرق في حياته فينيرها له، ويشرق في سماء الأمة فيكون ضياء وسعادة وهدىٰ وخيرًا، ويشرق في البشرية فتعرف مواقعها وتهتدي إلىٰ طريقها- إن أرادت سواء السبيل- قال تعالىٰ: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥- ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [التغابن: ٨].

سادسًا: الفرقان:

به يفرق بين الحق والباطل، وبين الهدىٰ والضلال، وبين النور والظلمات، ففيه وحده الحق والهدىٰ والنور، ونقيضه وضده هو باطل وضلال وظلام. قال تعالىٰ: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٣- ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان: ١].

سابعًا: البرهان:

فهو برهان من الله لعباده، أقام به الحجة عليهم، وأظهر من خلاله أوضح

الدلالات وأقواها، علىٰ موضوعاته ومعانيه وحقائقه، في العقيدة والحياة.. وكل من تعامل مع أدلة القرآن في يسرها ووضوحها وتفاعل القلب والعقل معها، وقارنها بالأدلة والبراهين والأقيسة التي أوجدتها العقول البشرية وقررتها وبينتها، كل من فعل ذلك يدرك طرفا من البرهان القرآني ويسره ووضوحه قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤- ١٧٥].

۞ ثامنًا: القرآن موعظة وشفاء وهدى ورحمة للمؤمنين:

قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس: ٥٧].

إنه موعظة من الله، وهل هناك أبلغ من الموعظة الربانية؟ وأيسر منها؟ وأكثر منها نفاذا إلىٰ القلب والضمير؟.. إن مواعظ البشر مهما سمت في البلاغة والتأثير، عاجزة عن أن تقارب الموعظة القرآنية أو تدانيها، ولو أقبل الدعاة والوعاظ علىٰ الموعظة القرآنية وخاطبوا المسلمين بها، لتغلغل الكلام في قلوبهم، وتأثرت به أعمالهم، وصلحت به حياتهم.. وأي قلب لم تنفعه الموعظة القرآنية فهو ميت لا ينفعه شيء آخر..

والموعظة القرآنية تولد الشفاء للصدور، والقضاء علىٰ ما في هذه الصدور من أمراض وأدناس وأرجاس، وصدق الله ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ومما يلفت النظر في الآية أنها جعلت الموعظة القرآنية والشفاء القرآني للناس جميعا، بينما خصصت الهدىٰ والرحمة بالمؤمنين، وقصرتهما عليهم، مما يجعل الإيمان شرطا للهدىٰ والرحمة.

تاسعًا: والقرآن بصائر تهدي:

قال تعالىٰ: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٠].

وهذه البصائر القرآنية الربانية الهادية موجهة للناس جميعا، ولكن هذه البصائر لا تدركها إلّا القلوب الحية، حيث تعيها وتتفاعل معها وترشد بها، وتهتدي علىٰ أساسها.

إن الأجسام لها العيون التي تبصر بها، وإن القلوب لها البصائر التي تهتدىٰ بها، فالأبصار للأجساد والبصائر للقلوب، وإذا ما تعطلت أبصار الأبدان فقد يعيش الإنسان بدونها، ولكن إذا تعطلت بصائر القلوب فإنها تموت، ولا يبقىٰ فيها نفع أو خير، وصدق الله القائل: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

المبحث الثاني

لماذا أنزل الله القرآن

أنزل الله ﷻ القرآن ليكون وسيلة يهتدي الناس من خلالها إلىٰ طريقه، وإلىٰ جنته قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤- ١٧٥].

فمن يقرأ القرآن يتأكد لديه بالأدلة العقلية أن للكون إلهًا واحدًا، وأن هذا الإله هو الله سبحانه، وأنه خلقنا وأسكننا الأرض ليختبرنا، وأن هناك حياة بعد الموت ثم حسابًا، فنعيمًا أو عذابًا.

ولا يكتفي القرآن بذلك بل يرسم للناس الطريق المستقيم الموصل للنجاح في هذا الاختبار، ونيل رضا الله، ويعرِّفهم بالعقبات التي قد تعترضهم، وبالمنحنيات التي قد تُبعدهم، وبعَدُوَّهم الذي يتربص بهم..

كل هذا من خلال خطاب ودود يقطر رحمة وشفقة وحنانا.. خطاب يستحث الجميع إلىٰ سرعة العودة إلىٰ الله قبل فوات الأوان قال تعالىٰ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٧]. قال تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ

ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣].

إنـه الحبـل المتـين الـذي أنزلـه الله مـن السـماء لينتشـل بـه النـاس مـن الضلال..

إنه حبل الـودّ الـذي يظهـر مـدىٰ حـب الله لعبـاده، وأنـه يريـد لهـم جميعًـا الخير.

ألـم يقل ﷺ: «**أبشـروا، فـإن هـذا القـرآن طرفـه بيـد الله، وطرفـهُ بأيـديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا، ولن تضلوا بعده أبدًا**».



المبحث الثالث

القرآن هو سر نهضتنا

عندما نقول - بعون من الله - إن القرآن هو سر نهضة هذه الأمة، فإن هذا القول لا يأتي من فراغ، بل تُؤيده شواهد وأسباب كثيرة نذكرها - لعلها تشحذ الهمم وتقوي العزائم للانطلاق الصحيح نحو هذا الكنز المهجور، وهي كالآتي:

أولاً: القرآن هو اختيار الله لعباده أجمعين:

الله ﷻ هو الرب الذي يُربِّي عباده ويتعاهدهم، ويمدهم بما يحتاجون إليه من سائر الإمدادات كالطعام والشراب والهواء والحفظ والرعاية قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [النحل: ١٠-١١].

هذا الرب العظيم يحب عباده جميعًا ويريد لهم الخير والنجاح في الاختبار الذي نزلوا إلىٰ الأرض لتأديته... يريد لهم جميعًا دخول الجنة قال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٢١].

فرب العالمين، المربي للبشر جميعًا هو الذي أنزل لهم القرآن.

فالقرآن هو اختيار الله لعباده أجمعين قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: ٥٧].

ثانيًا: القرآن يجمع بين الرسالة والمعجزة:

القرآن دون غيره من الكتب السماوية السابقة يجمع بين أمرين عظيمين: الرسالة والمعجزة..

فالرسالة القرآنية شأنها شأن الكتب السابقة تدل الناس علىٰ الله، وتهديهم إلىٰ الطريق الموصل إليه، وتبين لهم العقبات والمنعطفات التي قد تقابلهم وكيف يتجاوزونها قال تعالىٰ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة: ١٨٥].

– ولقد كانت هذه وظيفة الإنجيل أيضًا قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة: ٤٦].

– وكذلك التوراة وسائر الكتب قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

ولكن هل معرفة الطريق وحدها تكفي لسلوك المرء له، أليس هناك عقبات داخل الإنسان تحول بينه وبين السير في طريق الهدىٰ؟

أليس الهوىٰ وسطوته علىٰ القلب له دور كبير في تثبيط الإنسان وإقعاده

عن السير في طريق الله؟

من هنا تظهر عظمة القرآن وأفضليته علىٰ سائر الكتب السابقة، فلقد أودع الله فيه معجزة خارقة، أعظم بكثير من معجزات عيسىٰ وموسىٰ وصالح وسائر الرسل والأنبياء السابقين عليهم أفضل الصلوات والتسليم.

إن المعجزة القرآنية الخارقة ليست فقط في بلاغته وخلوده وحفظه من التحريف، وليست فقط في صلاحية القرآن لكل زمان ومكان، بل إنها فوق ذلك بكثير، فسرُّ المعجزة القرآنية يكمن في قدرته الفذة - بإذن الله - علىٰ التغيير، وبث الروح والحياة الحقيقية، وتوليد الطاقة فيمن يحسن الإقبال عليه قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

المعجزة القرآنية تقوم بتوصيل تيار الحياة إلىٰ القلب فيفيق من غفلته، ويحيا بعد موته، وينطلق إلىٰ ربه قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولئن كانت الرسالة القرآنية توضح للناس الطريق الموصل إلىٰ الله، فإن المعجزة القرآنية تقوم بأخذ أيديهم إلىٰ هذا الطريق، وتسير بهم، وتقودهم، وتتولىٰ إخراجهم من الظلام الذي يعيشون فيه إلىٰ نور الله المبين في الدنيا، والجنة في الآخرة.

وهناك العديد من الآيات التي تبين هاتين الوظيفتين، منها ما جاء في سورة المائدة قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ

مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

فهنا توضح الآيات وظيفة القرآن كرسالة هادية، أما وظيفته كمعجزة فتوضحها بقية الآية قال تعالىٰ: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٦].

فالإخراج من الظلام... من المكان الذي ألفه الإنسان يحتاج إلىٰ قوة دافعة، وطاقة تتولد داخله تُيسِّر له اتخاذ قرار النهوض والخروج مما تعود عليه... وهذه هي وظيفة المعجزة القرآنية، والتي اختصه الله بها... قال ﷺ: **«مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**. (١)

ثالثًا: القرآن يخاطب الفكر والعاطفة في آن واحد:

من عجائب القرآن التي ينفرد بها عن غيره أنه يخاطب الفكر والعاطفة معًا وفي آن واحد، يخاطب العقل فيقنعه بما يريد إقناعه به، وفي نفس الوقت يتسرب هذا الخطاب إلىٰ المشاعر فيستثيرها ويدفعها للتجاوب معه فتتحول القناعة العقلية إلىٰ إيمان قلبي، وهذا لا يمكن حدوثه مع أي خطاب آخر.

اقرأ مثلًا قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ

(١) صحيح البخاري: (٤٥٩٨).

إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وانظر: الاستدراج إلىٰ الطاعة في افتتاح الآية بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وترقيق العاطفة بين الواترين والموتورين في قوله ﴿أَخِيهِ ﴾ وقوله ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ وقوله ﴿بِإِحْسَٰنٍۗ ﴾، والامتنان في قوله تعالىٰ: ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ ﴾ والتهديد في ختام الآية.

ثم انظر في أي شأن يتكلم؟ أليس في فريضة مفصلة وفي مسألة دموية؟

وتتبع هذا المعنىٰ في سائر آيات الأحكام حتىٰ أحكام الإيلاء والظهار.

ففي أي كتاب من كتب التشريع تجد مثل هذا الروح؟

بل في أي لسان تجد هذا المزاج العجيب؟

تالله لو أن أحدًا حاول أن يجمع في بيانه بين هذين الطرفين ففرق همه ووزع أجزاء نفسه، لجاء بالأضواء المتنافرة ولخرج بثوب بيانه رقعًا ممزقة.(١)

ومن نماذج الخطاب المتكامل التي لا يقدر عليه إلا الله والذي يخاطب العقل والوجدان، ويتعرض لقضية غاية في الحساسية دون جرح مشاعر قارئها ذكرًا كان أو أنثىٰ قوله تعالىٰ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

(١) النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز ١٤٣ - ١٤٦ بتصرف.

رابعًا: القرآن لديه القدرة بإذن الله على الاستثارة الدائمة للمشاعر والضرب على أوتار القلوب وتوليد الطاقة والقوة الروحية:

أودع الله في القرآن خاصية عجيبة تساعده علىٰ تفعيل معجزته، والقيام بدوره الخطير في توليد القوة الروحية الدافعة للعمل بما يدل عليه، هذه الخاصية هي قدرته الفذة - بإذن الله - علىٰ الاستثارة الدائمة للمشاعر.

فالبيان القرآني يحمل شتىٰ أنواع الأساليب التي تخاطب العاطفة، وتضرب علىٰ أوتار القلوب فتستثيرها وتأخذ بمجامعها وترجها رجًا عنيفًا، فيحدث التفاعل وتتولد الطاقة والقوة الروحية وتقوىٰ العزيمة، وتشتد الإرادة للقيام بما تحمله الآيات من توجيهات...

فتجد القرآن مليئًا بأساليب الترغيب والترهيب، والتشويق، ولفت الانتباه، وضرب الأمثال، والقصة، والتخيير، والاستدراج، والترقيق، والتنفير، والتحذير، والتشجيع، والإشهاد، والاستشهاد، وإثارة مشاعر الغيرة والتنافس....

هذا وغيره تجده بسهولة عند قراءتك لبضع آيات من القرآن، فإذا ما اجتمع في القراءة الترتيل الصحيح حيث التأثر بالنظْم والجرْس، مع التدبر والفهم حيث التأثر بالمعنىٰ.. تولدت القوة الروحية التي ننشدها.

فإن أردت مثالًا لتأثير التلاوة الصحيحة في المعنىٰ، وما يحدثه من أثر في القلب، وبعد ذلك البدن في الحركة فاقرأ -إن شئت- قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ [المدثر: ١: ٢]، وكذلك قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا

﴿ مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وقل مثل ذلك علىٰ إيحاءات ألفاظ: سارعوا - سابقوا - خروا سجدًا وبكيا، وأثر ذلك علىٰ القلب والبدن.

خامسًا: القرآن ميسر للذكر والفهم:

من المزايا العظيمة للقرآن أنه ميسر للذكر قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: ١٧].

ففي أي وقت بالليل أو النهار، وفي أي مكان طاهر يستطيع المرءْ أن يلتقي مع القرآن.

كان من الممكن أن تكون قراءة القرآن مقصورة علىٰ أزمنة محددة أو أماكن معينة كالمساجد مثلًا، لكن الله ﷻ جعل تناوله بهذا التيسير لتتاح الفرصة للجميع أن يلتقوا به في الوقت الذي يروق لهم، وهذا - بلا شك - يعطي للقرآن مزية عظيمة في استيعابه لجميع الأفراد باختلاف ظروفهم وأحوالهم.

خطاب للعامة وخطاب للخاصة:

ومع تيسر القرآن للقراءة في أي وقت وأي مكان فإنه كذلك ميسر للفهم، فخطابه موجه للعامة والخاصة.

ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنىٰ لك - إن أردت أن تُعطي كلتا الطائفتين حظها كاملًا من بيانك - أن تخاطب كل واحدة منها بغير ما

تخاطب به الأخرىٰ، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال.

فأما أنَّ جملة واحدة تُلقىٰ إلىٰ العلماء والجهلاء، وإلىٰ الأذكياء والأغبياء، وإلىٰ السوقة والملوك، فيراها كل منهم مُقَدّرة علىٰ مقاس عقله، وعلىٰ وفق حاجته، فذلك ما لا تجده علىٰ أتمه إلا في القرآن الكريم.

فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفىٰ كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلىٰ عقولهم، لا يلتوي علىٰ أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلىٰ ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة والخاصة علىٰ السواء. ميسر لكل من أراد قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: ١٧].

القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى:

من وسائل تيسير القرآن للقراءة أنه كتاب موجز مع أن ما يحتويه من معان عظيمة يحتاج عرضها إلىٰ الكثير من المجلدات الضخمة.

تخيل معي - أن القرآن يملأ عدة مجلدات... هل سيقبل عليه الناس؟ هل سيتسنىٰ لهم قراءته من أوله إلىٰ آخره أم سيهابون ذلك ويتكاسلون عن إتمامه؟!

هذا الإيجاز المعجز يجمع بين القصد في اللفظ والوفاء بالمعنىٰ، وهذان ضدان لا يمكن أن يجتمعا في أي كلام غير القرآن كما يقول د. دراز: فالذي يعمد إلىٰ ادخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا علىٰ حد الضرورة لا ينفك من أن يحيف علىٰ المعنىٰ قليلًا أو كثيرًا... فالحذر يأخذه من الإكثار والإسراف...

يبذل جهده في ضم أطرافه وحذف ما استطاع من أدوات التمهيد والتشويق، ووسائل التقرير والتثبيت، وما إلىٰ ذلك مما تمس إليه حاجة النفس في البيان، حتىٰ يخرجه ثوبًا متقلصًا يقصر عن غايته، أو هيكلًا من العظم لا يكسوه لحم ولا عصب... ورب حرف ينقص من الكلام يذهب بمائه ورونقه، ويكسف شمس فصاحته.

القرآن إيجاز كله:

القرآن إيجاز كله، سواء مواضع إجماله ومواضع تفصيله، والقرآن يستثمر دائمًا برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني... أجل، تلك ظاهرة بارزة فيه كله، يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب، ولذلك نسميه إيجاز كله... فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنىٰ.

سادسًا: القرآن هو الكلمة السواء التي لا يختلف عليها اثنان من الأمة:

لا يمكن لعاقل أن يُنكر الخلافات الموجودة بين أبناء الأمة الإسلامية، فمن خلاف بين السنة والشيعة، إلىٰ خلاف بين أبناء السنة أنفسهم.

والخلاف بين الناس أمر واقع ما له من دافع، لاختلاف البيئات والأفهام والثقافات.

وهو محمود لو كان اختلافَ تنوع بين الطوائف والمذاهب المختلفة حين يسعىٰ الجميع لتكميل بعضهم البعض.

وهـو محمـود لـو كـان خلافًـا في المسـاحة التـي يمكـن الخـلاف فيهـا، فالصـحابة والسـلف اختلفـوا فيمـا بيـنهم، ولكـن لـم يختلفـوا في الكليـات والأصول، بل في الفرعيات.

وهـو محمـود كـذلك لـو لـم يصـاحبه تعصـب واعتـداد بـالرأي وتسـفيه وانتقاص للمخالفين واحتقار جهودهم أو الحط من شأنهم.

ولكـن الواقـع يقـول غيـر ذلـك، فالأمـة ليسـت علىٰ قلـب رجـل واحـد، فبعض الخلافات تجاوزت المساحة المسموح بها بكثير.

وبعض الخلافـات انتقـل أصـحابها مـن الناحيـة الموضـوعية إلىٰ الناحيـة الشخصية، فعمدوا إلىٰ تجريح الأشخاص والهيئات والتشهير بهم...

وممـا يـدعو للأسـف أن الكـل يعتقـد أنـه علىٰ صـواب، وأن طريقتـه هـي الطريقة المثلىٰ.

فما هو الحل لهذا الوضع الذي لا يُرضي الله ﷻ، والـذي بسـببه تتعـرض الأمـة للخـذلان والحرمـان قـال تعـالىٰ: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ولقـد ذهبـت ريحنـا بالفعـل، وأصـبحنا معـرَّة الأمـم، ومضـرب المثـل في التخلف والانحطاط.

۞ الكلمة السواء:

لحـل هـذه المشـكلة المعقـدة لابـد أن يكـون هنـاك شـيء يجتمـع عليـه الجميع... يرضون به حكمًا يحل هذا الخـلاف ويصـوب للجميـع مـواقفهم،

فما هو هذا الشيء الذي يمكنه أن يجمع حوله أمة تجاوز عددها المليار وثلث المليار؟!

لو بحثنا في كل شيء تحت أيدينا فلن نجد إلا شيئًا واحدًا يوافق الجميع علىٰ الاحتكام إليه... ألا وهو القرآن.

والعجيب أن الله سبحانه وتعالىٰ سماه بالحبل، وكأنَّ قدره ووظيفته أن ينتشل الجميع ويرفعهم ويوحدهم قال تعالىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فحبل الله هو القرآن كما قال ابن مسعود وغيره.

ومما يؤكد هذا المعنىٰ قوله ﷺ: «**كِتَابُ الله هُوَ حَبْلُ الله المَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرْضِ**».(١)

فالقرآن حين يقبل عليه المرء إقبالًا صحيحًا نازلًا به علىٰ هواه، وليس نازلًا بهواه إليه، فإنه يزيد الإيمان ويُنقص الهوىٰ في قلبه، وهذا من شأنه أن يُنهي جزءًا كبيرًا في موضوع الخلاف.

والقرآن كذلك يوضح ويبين الكثير من الأمور المختلف فيها، ويرسم في الأذهان خريطة الإسلام بنسبها الصحيحة دون تفريط ولا إفراط، فيُعطي كل ذي حق حقه.

والقرآن يبني العلاقة الصحيحة مع الله، ومع النفس، ومع الرسل، ومع

---

(١) رواه ابن جرير عن أبي سعيد، وصحيح الجامع: (٤٤٧٣).

الملائكة، ومع الصالحين، ومع عالم الغيب وعالم الشهادة، و... وحين تنبني العلاقة الصحيحة بهذه الأمور يزول الكثير من أسباب الخلاف بين أبناء الأمة.

سابعًا: القرآن عبادة متجددة لا تُمل:

القرآن لا يبلىٰ من كثرة الرد، ففيه الجديد دائمًا لقرائه، ولو نهل البشر جميعًا من نبعه لما انقطع أبدًا عن التدفق، ولما شعر أحدهم بالملل أو التكرار أو عدم وجود جديد، بل العجب أننا سنفاجأ يوم القيامة بأننا ما أخذنا إلا رشفات وقطرات يسيره من نهر القرآن العظيم الفياض بالخير، وصدق من قال بأن القرآن لا يزال بكرًا.

اقرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٢١٢﴾ [البقرة: ٢١٢]، وانظر هل ترىٰ كلامًا أبين من هذا في عقول الناس. ثم انظر كم في هذه الكلمة من مرونة، فإنك لو قلت في معناها:

١ - إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ولا سائل يسأله لماذا يبسط الرزق لهؤلاء ويقدره علىٰ هؤلاء، أصبت.

٢ - ولو قلت: إنه يرزق بغير تقتير ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاذ، أصبت.

٣ - ولو قلت: إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب، أصبت.

٤ - ولو قلت: أنه يرزقه بغير معاتبة ومناقشة له علىٰ عمله، أصبت.

٥ - ولو قلت: يرزقه رزقًا كثيرًا لا يدخل تحت حصر وحساب، أصبت.(١)

تقرأ فتؤجر:

وفوق هذا كله فالقرآن عبادة يُتعبد من خلالها ويُتقرب إلىٰ الله ﷻ بها، مما يدفع بالمسلم إليه ويحببه دومًا في التعامل معه كباب للأجر والثواب، وقربة إلىٰ الله، وهذا لا يتوافر في أي كتاب آخر.

تأمل هذا القول لرسول الله ﷺ وما يمكن أن يثيره من رغبة لقراءة القرآن: «**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلَاثَ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ؟**» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «**فَثَلَاثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ**».(٢)

ثامنًا: القرآن وسيلة ودواء مُجرب

ومما يؤهل القرآن ليكون بداية صحيحة لنهضة الأمة، أنه قد جُرِّب من قبل... استعمله الجيل الأول علىٰ حقيقته فصاروا من خلاله - بإذن الله - خير أمة، وتبدل ترتيبهم بين الأمم من الذيل إلىٰ المقدمة في سنوات معدودة.

لقد كان حال أمة العرب قبل الإسلام أسوأ بكثير من حالنا الآن، ومع ذلك فقد نفع معهم القرآن وأثر فيهم، وغيَّرهم، وأصلح حالهم، وأعاد صياغتهم من جديد، وهذا - بلا شك - يعطينا الأمل بأن القرآن يصلح معنا

---

(١) النبأ العظيم، ١٤٦، ١٤٧. باختصار.

(٢) صحيح مسلم: (٨٠٢).

- بإذن الله - ويقدر أن يفعل بنا مثل ما فعل بهم.

ويكفيك في هذا أنَّ حزنَهم الشديد علىٰ وفاة محمد ﷺ لم يكن فقط علىٰ فراقه، بل كان علىٰ انقطاع نزول القرآن، وانفصال الأرض عن السماء، كيف لا وقد ذاقوا حلاوة الإيمان من خلاله، وأدركوا قيمته وقدرته التغييرية الفذة، وأنه كان يرفعهم ويرقيهم في مدارج الإيمان، ويزيدهم معرفة بالله، وارتباطًا به....

تأمل معي هذه الواقعة التي تؤكد هذا المعنىٰ:

* عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِعُمَرَ: «انْطَلِقْ بِنَا إِلَىٰ أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ، فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَىٰ الْبُكَاءِ. فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا».(١)

أَوَلَا يكفينا القرآن؟!

* عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ جَعْدَةَ، قَالَ: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِكِتَابٍ فِي كَتِفٍ فَقَالَ: «**كَفَىٰ بِقَوْمٍ حُمْقًا أَوْ ضَلَالَةً أَنْ يَرْغَبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ أَوْ كِتَابٌ غَيْرُ كِتَابِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ**: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] الْآيَةَ».(٢)

---

(١) صحيح مسلم: (٢٤٥٤).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: (٩/ ٣٠٧٢)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (٦/ ٤٧١).

* وفي لفظ: جَاءَ أُنَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِكُتُبٍ قَدْ كَتَبُوهَا، فِيهَا بَعْضُ مَا سَمِعُوهُ مِنَ اليهود، فقال النبي ﷺ: «**كَفَىٰ بِقَوْمٍ حُمْقًا أَوْ ضَلَالَةً، أَنْ يَرْغَبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ إِلَيْهِمْ، إِلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ غَيْرُهُ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ**» فَنَزَلَتْ ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١] الْآيَةَ». (١)

* عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، مَرَّ بِرَجُلٍ يَقْرَأُ كِتَابًا، فَاسْتَمَعَهُ سَاعَةً فَاسْتَحْسَنَهُ، فَقَالَ لِلرَّجُلِ: اكْتُبْ لِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، قَالَ: نَعَمْ، فَاشْتَرَىٰ أَدِيمًا فَهَيَّأَهُ، ثُمَّ جَابَهُ إِلَيْهِ، فَنَسَخَ لَهُ فِي ظَهْرِهِ وَبَطْنِهِ، ثُمَّ أَتَىٰ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَجَعَلَ يَقْرَأُهُ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَلَوَّنُ، فَضَرَبَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِيَدِهِ الْكِتَابَ، وَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرَىٰ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُنْذُ الْيَوْمَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ فَاتِحًا وَخَاتَمًا، وَأُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَفَوَاتِحَهُ**». «**وَاخْتُصِرَ لِي الْحَدِيثُ اخْتِصَارًا، فَلَا يَهْلِكَنَّكُمُ الْمُتَهَوِّكُونَ**». (٢)

من هذه النصوص وغيرها يتبين لنا أن رسول الله ﷺ لم يكن يعتمد شيئًا في تربية الصحابة غير القرآن، وسنته المطهرة، باعتبارها شارحة له.

ومن هنا توثق ارتباط الناس بالقرآن في العهد النبوي، ارتباطًا عمق صلة القلوب بربها، إلىٰ درجة أن الصحابة، رضوان الله عليهم، كانوا يتتبعون

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني: (٤/ ٢٤١).
(٢) مصنف عبد الرزاق: (١٠١٦٣)، شعب الإيمان: (٧/ ١٧١)، الدر المنثور: (٦/ ٤٧٢). والمتهوكون أي المتحيرون.

الـوحي، تتبـع الملهـوف، الحـريص علـىٰ الترقـي في مـدارج المعرفـة بـالله والسلوك إليه سبحانه. (١)

تاسعًا: القرآن هو المنقذ - بإذن الله:

والمُخرج من الفتن الذي دلنا عليه رسول الله ﷺ أخبرنا رسول الله ﷺ بأنه ستكون هناك فترات انكسار وهزيمة وفتن ستمر بها الأمة الإسلامية، وأن الأمم الأخرىٰ ستتكالب عليها وتهزمها، وأخبرنا ﷺ بأن السبب وراء ذلك هو حب الدنيا وكراهية الموت، أو بمعنىٰ آخر ضعف الإيمان وسطوة الهوىٰ علىٰ القلب.

* عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَىٰ عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَىٰ الْأَكَلَةُ عَلَىٰ قَصْعَتِهَا**». قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**». قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**». (٢)

ولقد أخبرنا ﷺ بأن المخرج من هذه الفتن وهذا الوهن هو القرآن، لأنه سيعالج السبب الذي من أجله ضعفت الأمة وهانت علىٰ الله.

* عن الحارث الأعور قال: مَرَرْتُ فِي المَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الأَحَادِيثِ فَدَخَلْتُ عَلَىٰ عَلِيٍّ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، أَلَا تَرَىٰ أَنَّ النَّاسَ قَدْ

(١) التوحيد والوساطة، ص (٤٢).

(٢) مسند أحمد: (٢٢٣٩٧)، سنن أبي داود: (٤٢٩٧)، والسلسلة الصحيحة: (٩١٨).

خَاضُوا فِي الأَحَادِيثِ، قَالَ: وَقَدْ فَعَلُوهَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ**». فَقُلْتُ: مَا المَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغَىٰ الهُدَىٰ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَىٰ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّىٰ قَالُوا:** ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن:١، ٢] **مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**».(١)

* ولقد أكد رسول الله ﷺ علىٰ هذا المعنىٰ في حديثه لحذيفة بن اليمان حين أخبره بالاختلاف والفرقة بعده، عَنْ نَصْرِ بْنِ عَاصِمٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ الْيَشْكُرِيَّ فِي رَهْطٍ مِنْ بَنِي لَيْثٍ فَقَالَ: «مَنِ الْقَوْمُ؟» قُلْنَا: بَنُو لَيْثٍ فَسَأَلْنَاهُ وَسَأَلَنَا ثُمَّ قُلْنَا أَتَيْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ قَالَ: «أَقْبَلْنَا مَعَ أَبِي مُوسَىٰ قَافِلِينَ وَغَلَتِ الدَّوَابُّ بِالْكُوفَةِ فَاسْتَأْذَنْتُ أَنَا وَصَاحِبٌ لِي أَبَا مُوسَىٰ فَأَذِنَ لَنَا فَقَدِمْنَا الْكُوفَةَ» فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: إِنِّي دَاخِلُ الْمَسْجِدِ فَإِذَا قَامَتِ السُّوقُ خَرَجْتُ إِلَيْكِ قَالَ: «فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا فِيهِ حَلْقَةٌ يَسْتَمِعُونَ إِلَىٰ حَدِيثِ رَجُلٍ فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَامَ إِلَىٰ جَنْبِي» فَقُلْتُ لَهُ: مَنْ هَذَا فَقَالَ:

(١) سنن الدارمي: (٣٣٧٤)، سنن الترمذي: (٢٩٠٦)، والسلسلة الضعيفة: (٦٣٩٣).

«أَبَصْرِيٌّ أَنْتَ» فَقُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: «قَدْ عَرَفْتُ لَوْ كُنْتَ كُوفِيًّا لَمْ تَسَلْ عَنْ هَذَا» هَذَا حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَأَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ وَعَرَفْتُ أَنَّ الْخَيْرَ لَنْ يَسْبِقَنِي» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: يَا حُذَيْفَةُ «**تَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ ثَلَاثَ مِرَارٍ**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: يَا حُذَيْفَةُ «**تَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ ثَلَاثَ مِرَارٍ**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبَعْدَ هَذَا الشَّرِّ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**هُدْنَةٌ عَلَىٰ دَخَنٍ وَجَمَاعَةٌ عَلَىٰ أَقْذَاءٍ فِيهَا**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: يَا حُذَيْفَةُ «**تَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ ثَلَاثَ مِرَارٍ**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «**فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ صَمَّاءُ عَلَيْهَا دُعَاةٌ عَلَىٰ أَبْوَابِ النَّارِ، وَأَنْ تَمُوتَ يَا حُذَيْفَةُ، وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَىٰ جِذْلٍ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتَّبِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ**».(١)

---

(١) سنن أبي داود: (٤٢٤٦)، وسنن النسائي: (٧٩٧٨). واللفظ له. والسلسلة الصحيحة: (٢٧٣٩).

المبحث الرابع

القرآن روح القلوب وقوتها

روح القلوب وقوتها:

من عجائب القرآن أنه ميسر للجميع، لا يحتاج إلىٰ عقلية خاصة، أو طقوس معينة، أو أماكن محددة، أو أزمنة بعينها للتعامل معه.

فهو متاح في كل الظروف والأحوال.. يخاطب العامة والخاصة، والعلماء والأميين، والرجل والمرأة، فيُحدث في الجميع أثره العظيم، ويمد القلوب بالروح، ويفجر منابع إيمانه فيها، فيخرجها من الظلمات إلىٰ النور، ومن غلبة الهوىٰ إلىٰ غلبة الإيمان.

إنه كالشمس تسع الجميع بضيائها وأثرها ودفئها، ويزيد عن شمس الدنيا بأن شمسه لا تغرب، ونوره لا يأفل.

وكما أن شمس الدنيا لا تؤثر إلا فيمن يتعرض لها؛ كذلك القرآن لا يؤثر إلا فيمن يتعرض له قال تعالىٰ: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التكوير: ٢٧- ٢٨].

ولا يعني أبدًا عدم رؤية البعض للشمس بسبب الغيوم والسُّحب.. أنها غير موجودة، أو أن تأثير وجودها لا يعدو ذلك الضوء الخافت المختلط بالضباب، والذي تصعب معه الرؤية....

روح تسري في القلوب:

من أهم الأوصاف التي وصف بها القرآن أنه: «روح» قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

فأهمية وجوده في القلب وتأثيره عليه، كأهمية الروح بالنسبة للجسد.. بل يزيد باعتبار أن الأجساد إلىٰ زوال، وأن القلب هو محل نظر الله ﷻ، وعلىٰ قدر سلامته وصحته تكون الاستقامة في الدنيا، والنجاة يوم القيامة قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩].

إنه يثير العواطف ويوقظ العقول في وقت واحد، وبعد الاقتناع يطمئن العقل ويهدأ الإحساس، ويشعر الإنسان بنشوة الفرح والارتياح.

تأثير يُدرك ولا يمكن وصفه:

إن في هذا القرآن سرًّا خاصًّا يشعر به كل من يواجه نصوص القرآن ابتداءً قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيه، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن.

يشعر أن هنالك شيئًا ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هنالك عنصرًا ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحًا، ويدركه بعض الناس غامضًا، ولكنه علىٰ كل موجود.. هذا العنصر الذي ينسكب في الحس، يصعب تحديد مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنىٰ الكامن فيها؟

أهو الصور والظلال التي تشعها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم أنها تشمل ما تقدم وشيئًا آخر وراءها غير محدود!

ذلك سر مودع في كل نص قرآني يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداءً ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله.(١)

من مظاهر تأثير القرآن:

ولقد وصف لنا القرآن بعضًا من مظاهر تأثيره في الآخرين، ولم يقصر القرآن هذا التأثير علىٰ البشر فقط بل نجده قد تعداهم إلىٰ الجن، بل وإلىٰ الجماد....

ولئن كنا لا نستطيع إدراك سر تأثير القرآن وكيفية عمله في داخل الفرد إلا أننا يمكن أن ندرك بعضا من أبعاده من خلال نتائج ومظاهر هذا التأثير.

خشوع الجبال وتصدعها:

لقد بلغ من شأن القرآن وعظمته وشدة تأثيره أنه لو أُنزل علىٰ جبل من الجبال، وجُعل له عقل كما جُعل للبشر، لرأيت الجبل - مع كونه في غاية القسوة والصلابة - خاشعًا متصدعًا من خشية الله كما قال تعالىٰ: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الحشر: ٢١] أي:

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٩٩.

لاتَّعظ الجبل وتصدَّع صخرُه من شدة تأثره من خشية الله.

ففي هذا بيان حقيقة تأثير القرآن وفعاليته في المخلوقات، ولو كانت جبلًا أشمًّا، أو حجرًا أصمًّا.....

وضُرب التصدع مثلًا لشدة الانفعال والتأثير، لأن منتهىٰ تأثر الأجسام الصلبة أن تنشق وتتصدع، ولا يحصل ذلك بسهولة.(١)

القشعريرة والسجود:

فإن كان الجبل سيندك إذا ما استقبل القرآن، كذلك فإن القلوب المؤمنة تخشع وتهتز هزًا عنيفًا عند استقباله، ولقد وصف لنا القرآن بعضا من مظاهر هذا التأثير:

فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

فالقلب يتأثر ويلين، والجلد يقشعر ويلين.. وما هذا إلا دلالة علىٰ الأثر الذي أحدثه القرآن في القلب، والهزة العنيفة التي حدثت للمشاعر.

وليس ذلك فحسب، بل إن المؤمن الذي يتلو الآيات ويعيش معها يجد قلبه وقد استولت عليه مشاعر التعظيم والمهابة والإجلال لله ﷻ، ولا يستطيع أن يسيطر علىٰ هذه المشاعر فتجده يسجد بتلقائية لربه إجلالًا

(١) عظمة القرآن للدوسري/ ٧١، ٧٢.

وخشية ومهابة قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧- ١٠٩].

فالحال المتوقع لمن يستقبل القرآن استقبالًا صحيحًا قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨].

فإن لم يصاحب البدن القلب في سجوده، اكتفىٰ القلب بالسجود وحده من خلال وجله واهتزازه وهبوطه خشوعًا لربه.

ومما يلفت الانتباه أن الله ﷻ قد ذمَّ الكافرين لعدم سجودهم عند سماعهم للقرآن [﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾ [الانشقاق: ٢٠- ٢١].

وكأن الحال الطبيعي للإنسان عند سماعه للقرآن هو السجود لشدة تأثير القرآن علىٰ المشاعر والقلوب..

أجيبوا داعي الله:

ومن مظاهر تأثير القرآن، والتي حدثتنا عنها الآيات، ما حدث لمجموعة من الجن حينما استمعوا إلىٰ آيات من القرآن فكان أول رد فعل لهم أن قال بعضهم لبعض:

(أَنْصِتُوا) ولم يقولوا **(اسمعوا)** فقد أدهشهم الخطاب، وسيطر عليهم، فتأثروا به تأثرًا بالغًا، وكانت النتيجة السريعة لهذا التأثر هو الرغبة الجارفة

بتبليغ ما فهموه من فحوىٰ الخطاب القرآني لقومهم ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١].

فالآيات تصور الأثر الذي انطبع في قلوبهم من الإنصات للقرآن، فقد استمعوه صامتين منتبهين حتىٰ النهاية. فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلىٰ قومهم، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه، أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به. وهي حالة من امتلأ حسه بشيء جديد، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب، يدفعه دفعًا إلىٰ الحركة والاحتفاء بشأنه وإبلاغه للآخرين بجد واهتمام. (١)

تأثير القرآن على مشركي مكة:

تروي لنا كتب السيرة: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل - عمرو بن هشام - والأخنس بن شريق، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل منهم مجلسا يستمع فيه، وكل لا يعرف بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا قائلين: فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا حتىٰ إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل إلىٰ مجلسه، فباتوا

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٧٣.

يستمعون له، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتىٰ إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتىٰ نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا علىٰ ذلك ثم تفرقوا». (١) فما الذي دفعهم لذلك؟!

إنه التأثير القوي للقرآن علىٰ قلوبهم، والذي لم يجعلهم يستطيعون (السيطرة علىٰ أنفسهم التواقة للاستماع إليه، فعادوا رغم تعاهدهم علىٰ عدم العودة إلىٰ سماعه). (٢)

ولهذا خشوا من هذا التأثير علىٰ عبيدهم وسائر الناس «فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا».

۞ الوليد بن المغيرة:

سمع الوليد بن المغيرة شيئًا من القرآن فكأنما رقَّ له فقالت قريش: صبأ والله الوليد، ولتصبون قريش كلها.

فأوفدوا إليه أبا جهل يثير كبرياءه واعتزازه بنسبه وماله ويطلب منه أن يقول في القرآن قولًا يعلم به قومه أنه له كاره.

قال: «فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقوله شيئًا من هذا. والله:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٩٢، ١٩٣.
(٢) التعبير القرآني: (١١٤).

إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يُعلىٰ». قال أبو جهل: والله لا يرضىٰ قومك حتىٰ تقول فيه.

قال: فدعني أفكر فيه. فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر. أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه؟

اعترافات عتبة بن ربيعة:

وهذا عتبة بن ربيعة – من سادة قريش – يقوم إلىٰ محمد ﷺ ليفاوضه باسم المشركين من قريش، ويعرض عليه بعض العروض، لعله يقبل بها، ويترك دعوته.

فيعرض عليه المُلك، ويعرض عليه المال، ثم يعرض الطب إن كان ما يأتيه من قبيل الوساوس والجنون..

حتىٰ إذا فرغ الرجل من عروضه، وأتم مهمته، قال له رسول الله ﷺ: «**أوقد فرغت يا أبا الوليد قال: نعم، قال:** «**فاسمع مني**»، قال: أفعل، فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت: ١ – ٥].

ومضىٰ رسول الله ﷺ يقرأ عليه سورة فصلت، وعتبة منصت لها، وقد ألقىٰ يديه خلف ظهره، معتمدًا عليها يسمع منه، ثم انتهىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ آية السجدة من السورة، فسجد وسجد معه عتبة، ثم قال: قد سمعت يا أبا

الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

وفي بعض الروايات أنه ﷺ لما وصل إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ قال له عتبة: ناشدتك لله والرحم أن تمسك، إذ لم يعد عتبة يتمالك نفسه أمام هذا الذي يسمع مما لا قبل لأهل الأرض به.

ثم قام عتبة إلىٰ أصحابه الذين بعثوه عنهم رسولًا ومفاوضًا، إلا أنه كان قد سمع ما سمع، فأثر القرآن في نفسه وجوارحه، حتىٰ بدا ذلك في وجهه، فقال القوم بعضهم لبعض: نحلف بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي أني سمعت قولا، والله ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة.

يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم. (١)

۞ السجود الجماعي:

في يوم من الأيام كان رسول الله ﷺ يقرأ سورة النجم عند الكعبة، وكان يستمع لقراءته العديد من المشركين، فسكتوا وأنصتوا، وتأثروا لدرجة أنه عندما بلغ نهاية السورة، وسجد عند قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴾، لم

(١) المعجزة القرآنية لمحمد حسن هيتو/ ٣٧، ٣٨.

يتمالك جميع المستمعين السيطرة علىٰ أنفسهم وخروا ساجدين.

* **يقول عبد الله بن مسعود**: أن النبي ﷺ قرأ بالنجم فسجد، فلم يبق أحد إلا سجد، إلا أن شيخًا أخذ كفًا من تراب فرفعه إلىٰ جبهته، وقال: يكفيني هذا.(١)

خوف المشركين من فتنة نسائهم وأولادهم بسماعهم للقرآن:

لما اشتد أذىٰ المشركين بالمسلمين، وهاجر بعض الصحابة إلىٰ الحبشة، رغب أبو بكر رضي الله عنه بالهجرة، فلقيه ابن الدَّغِنَّةِ، وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الْأَرْضِ، فَأَعْبُدَ ربي، فقال بن الدَّغِنَةِ: إِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، إِنَّكَ تُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ، فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ، فَارْتَحَلَ ابْنُ الدُّغُنَّةِ، فَرَجَعَ مَعَ أبي بكر، فطاف بن الدُّغُنَّةِ فِي كُفَّارِ قُرَيْشٍ، وَقَالَ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يُخْرَجُ مِثْلُهُ، وَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ؟!

فَأَنْفَذَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ بن الدَّغِنَةِ، وَأَمَّنُوا أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه، وَقَالَتْ لِابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ، فَلْيَعْبُدْ ربه في داره ما شاء، وَلْيُصَلِّ فِيهَا مَا شَاءَ، وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ وَلَا يُؤْذِينَا، وَلَا يَسْتَعْلِنْ بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ فِي غَيْرِ دَارِهِ، فَفَعَلَ.

ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ، فَابْتَنَىٰ مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَتَقِفُ عَلَيْهِ

---

(١) البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (٥٧٦).

نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً لَا يَمْلِكُ دَمْعَهُ حِينَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ، فَأَرْسَلُوا إِلَىٰ ابْنِ الدَّغِنَةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: إِنَّا قَدْ أَجَرْنَا لَكَ أَبَا بَكْرٍ عَلَىٰ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ فِي دَارِهِ، وَإِنَّهُ جَاوَزَ ذَلِكَ وَابْتَنَىٰ مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَأَعْلَنَ بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَىٰ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ فِي دَارِهِ، فَعَلَ، وَإِنْ أَبَىٰ إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ ذَلِكَ، فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ بِالِاسْتِعْلَانِ.

فَأَتَىٰ ابْنُ الدُّغُنَّةِ أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي عَقْدِ رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فإني أرد إليه جوارك، وأرضىٰ بجوار الله ورسوله اللهِ ﷺ. (١)

فهذه الأخبار تؤكد إقرار المشركين بقوة تأثير القرآن، ولولا الكبر والعناد والحرص علىٰ استمرار نفوذهم ومكاسبهم لأسلموا، ويكفي تواصيهم فيما بينهم بالاجتهاد في الحيلولة بين الناس وبين سماعهم للقرآن حتىٰ لا يتأثروا بسماعه فيؤمنوا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت: ٢٦].

من هنا ندرك حكمة تكليف المسلم بأن يمكن المشركين من سماع كلام

(١) صحيح ابن حبان: (١٥/ ٢٨٤/ ٢٨٥)، وانظر: صحابة رسول الله وجهودهم في تعليم القرآن الكريم لأنس كرزون ص ١٢٧، ١٢٨.

الله قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، ولم يكلف المسلم بما بعد السماع.. فالإسماع هو الأداة الأولىٰ والمباشرة لنقل كلام الله إلىٰ الآخرين، وهو الوسيلة الأنسب لفتح القلوب إلىٰ هدىٰ الله.(١)

القرآن كان السبب الأول لإسلام الأوائل:

وفي مقابل تأثر الكافرين بالقرآن مع عدم إسلامهم بسبب كبرهم وعنادهم، وحرصهم علىٰ مصالحهم؛ نجد أن العامل المشترك لإسلام من أسلم من المسلمين الأوائل هو سماعهم للقرآن أيضًا.

- فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في قصة إسلامه: فلما سمعت القرآن رقَّ له قلبي فبكيت، ودخلني الإسلام.(٢)

- وقال الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه وقد حشا في أذنيه كُرسُفا، لئلا يسمع القرآن: «فأبىٰ الله إلا أن يسمعني بعض قوله. فسمعت كلامًا حسنًا، فقلت في نفسي: واثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفىٰ عليَّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟

قال: فعرض عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام، وتلا عليَّ القرآن، فوالله ما سمعت قولًا قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه.. فأسلمت.(٣)

---

(١) التعبير القرآني ١٠٧، ١٠٨.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢١٣.
(٣) المصدر السابق ١/ ٢٣٩.

– وهذا الجبير بن مطعم يأتي المدينة مع أسارىٰ بدر فيسمع رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة المغرب فيقول كما روىٰ البخاري: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ قَالَ: «كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ».(١)

– وحكت أم سلمة رضي الله عنها – أن النجاشي استقرأ جعفرًا رضي الله عنه القرآن، قالت: فقرأ عليه صدرًا من ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾.. فبكىٰ النجاشي، حتىٰ اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتىٰ أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عيهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسىٰ ليخرج من مشكاة واحدة. (٢)

– وجاء وفد من نصاري الحبشة إلىٰ الرسول ﷺ، لما سمعوا به، فتلا عليهم الرسول ﷺ كلام الله «فلما سمعوا القرآن، فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله، وآمنوا به». (٣)

كيف أسلم أسيد بن حضير؟

والسيرة مليئة بالأحداث التي تؤكد هذا المعنىٰ وكيف أن الأثر الذي كان يُحدثه القرآن في نفس مستمعه هو السبب المباشر في إسلام الأنصار، ومن

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٥٤).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٧.
(٣) المصدر السابق.

قبلهم المهاجرين.

فهذا هو أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وكانا سيدي (الأوس)، قد عزما علىٰ إخراج مصعب بن عمير من يثرب بعد أن تزايد عدد من أسلم من أهلها علىٰ يديه، و كان مصعب في بستان من بساتين بنىٰ (عبد الأشهل) يدعو الناس إلىٰ الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن.

فبدأ أُسيد بأن أخذ حربته، ومضىٰ نحو البستان، فلما رآه أسعد بن زرارة مقبلًا قال لمصعب: ويحك يا مصعب، هذا سيد قومه، وأرجحهم عقلا: أسيد بن حضير، فإن يسلم يتبعه في إسلامه خلق كثير، فاصدق الله فيه..

وقف أسيد بن حضير علىٰ الجمع، والتفت إلىٰ مصعب وصاحبه أسعد، وقال: ما جاء بكما إلىٰ ديارنا، وأغراكما بضعفائنا؟! اعتزلا هذا الحي إن كانت لكما بنفسيكما حاجة.

فالتفت مصعب إلىٰ أسيد قائلًا: يا سيد قومه، هل لك في خير من ذلك؟ قال: وما هو؟!

قال: تجلس إلينا، وتسمع منا، فإن رضيت ما قلناه قبلته، وإن لم ترضه تحولنا عنكم ولم نعد إليكم.

فقال أسيد: لقد أنصفت، وركز رمحه في الأرض وجلس، فأقبل عليه مصعب فكلمه عن الإسلام، وقرأ عليه شيئا من آيات القرآن، فانبسطت أساريره، وأشرق وجهه، وقال: ما أحسن هذا الذي تقول، ما أجلّ ذلك الذي تتلو!! كيف تصنعون إذا أردتم الدخول في الإسلام؟

قال مصعب: تغتسل وتطهر ثيابك، وتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتصلي ركعتين، ففعل.(١)

وهكذا نجد الأثر السريع للقرآن.. لقد تلقوه مسحورين، يستوىٰ في ذلك المؤمنون والكافرون: هؤلاء يُسحرون فيؤمنون، وهؤلاء يُسحرون فيهربون، ثم يتحدث هؤلاء وهؤلاء عما مسَّهم، فإذا هو حديث غامض لا يعطيك أكثر من صورة المسحور المبهور، الذي لا يعلم موضع السحر فيما يسمع من هذا النظم العجيب، وإن كان ليُحس منه في أعماقه هذا التأثير الغريب.(٢)

الدليل الدامغ:

ومع كل مظاهر التأثير القرآني السابق ذكرها، إلا أن أهم مظهر لقوة تأثير المعجزة القرآنية هو التحول العظيم الذي حدث لجيل الصحابة، والتغيير الجذري الذي حدث لهم بعد إسلامهم...

أمة عجيبة:

لقد كان العرب قبل الإسلام يعبدون الحجارة، ويأتون الفواحش، ويقطعون الأرحام ويسيؤون الجوار، ويأكل القوىٰ منهم الضعيف. يقول أبو رجاء العطاردي رضي الله عنه: «كُنَّا نَعْبُدُ الحَجَرَ، فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ، وَأَخَذْنَا الآخَرَ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٤، ٢٧٥.
(٢) تحقيق الوصال بين القلب والقرآن: (ص: ٢٩).

بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُفْنَا بِهِ، فَإِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَجَبٍ قُلْنَا: مُنَصِّلُ الأَسِنَّةِ، فَلَا نَدَعُ رُمْحًا فِيهِ حَدِيدَةٌ، وَلَا سَهْمًا فِيهِ حَدِيدَةٌ، إِلَّا نَزَعْنَاهُ وَأَلْقَيْنَاهُ شَهْرَ رَجَبٍ».(١)

هذه نماذج لما كان عليه الجيل الأول قبل الإسلام.. هذا الجيل بهذه الحالة، حين أحسن أفراده استقبال القرآن، والتعرض الصحيح له؛ أحسن القرآن وفادتهم وقام بعمله خير قيام معهم، وأخرجت مدرسته جيلًا فريدًا وبأعداد كبيرة، فانتقلت أمتهم متوثبة من الساقة إلىٰ المقدمة وذلك في سنوات معدودة.



(١) البخاري: (٤٣٧٦)، وجثوة من تراب هي القطعة من التراب تجمع فتصير كوما.

المبحث الخامس

لماذا لم ننتفع بالقرآن؟!

إننا لم ننتفع بالقرآن الانتفاع المطلوب منَّا لعدَّة أسباب وهي كالآتي:

أولاً: الصورة الموروثة عن القرآن:

بعد أن ينزل الجنين من بطن أمه، ويبدأ في النمو شيئًا فشيئًا، ثم يدخل مرحلة الإدراك، فإنه يرىٰ أمورًا كثيرة تحدث من حوله.. هذه الأمور تقع في ذاكرته، فإذا ما تكرر بعضها أمامه فإنها تنتقل إلىٰ منطقة اللاشعور في عقله لتشكل معتقدًا لديه.(١)

* **فعلىٰ سبيل المثال:** عندما كان يشعر بالعطش كانوا يحضرون له شيئًا

(١) أي معلومة يتلقاها الإنسان من خلال سمعه أو بصره فإنها تذهب إلىٰ جزء في العقل وهو العقل المدرك أو الواعي أو الشعور، فإذا قبلها العقل انتقلت إلىٰ الجزء الآخر وهو الغير مدرك أو اللاشعور والذي يشكل منطقة العلم الراسخ، أو اليقين، أو المعتقدات سواء كانت صحيحة أو فاسدة، ولكي يستقر مدلول المعلومة في منطقة اللاشعور لا بد من تكرار مرورها علىٰ العقل المدرك مرات ومرات فيمررها إلىٰ اللاشعور حتىٰ تستقر فيه.. مثال: تعلم قيادة السيارة في البداية يكون بالعقل المدرك وبعد تكرار وتكرار تستقر المعلومات في اللاشعور، فيقوم الإنسان بقيادة السيارة بتلقائية دون تفكير، وكذلك تعلم أحكام التجويد في البداية يكون بالعقل المدرك وبعد ذلك بـ (اللاشعور).

كل مرة، فاستقر في يقينه – مع الوقت – أن هذا الشيء هو الذي يدفع عنه العطش، ثم بعد ذلك يعلم اسم هذا الشيء، فيطلبه بتلقائية عند عطشه.

وعندما يجد أبويه يتوقفان عن الكلام عند سماع شيء ما يصل إلىٰ مسامعه عدة مرات في اليوم، فإن ذاكرته تختزن هذه الصورة من الاحترام (للأذان).

وهكذا في سائر الأمور التي يجدها في بيئته الأولىٰ، فكل ما يُقَّدس في بيته، يُقَدَسَّ عنده، والعكس صحيح، فهو لا يأبه بالأمور التي لا يهتم بها أهل البيت.

۞ وماذا عن الصورة الموروثة عن القرآن؟!

إن كانت أغلب المفاهيم والقيم – سواء كانت صحيحة أم خاطئة – تغرس في يقين الطفل في سنوات عمره الأولىٰ، فماذا يتكون لديه من مفاهيم حول القرآن؟!

– هو في البداية لا يعرف القرآن لكنه يرىٰ شيئًا موضوعًا في مكان ما بالمنزل، تمر الأيام والأيام ولا يقترب منه أحد، وإذا ما حدث وأمسك به أحد أبويه فإنه يُقبله، وينظر فيه قليلا ثم يتركه في مكانه.

– يجد أمه تقوم بتشغيل المذياع فيخرج منه صوت له نغمة ليست كسائر النغمات التي يسمعها، ثم يجد أمه تترك مكان المذياع الذي ينبعث منه الصوت وتذهب لمكان آخر.. أو تتحدث مع والده، أو في الهاتف، أو تقرأ في مجلة.. كل هذا في وجود الصوت المنبعث من المذياع!!.

– يرىٰ والده ووالدته يشاهدان التلفاز باهتمام، فإذا ما جاء الصوت الذي تعود علىٰ سماعه مع أمه وبنفس النغمة، يجد أبويه وقد ذهب اهتمامهما فأغلقا الجهاز، أو تركاه يبث الصوت دون أن يستمع إليه أحد.

– يسير مع أبويه فيجد أناسًا يجلسون في مكان كبير، ويسمع نفس الصوت، ويجد الناس –في الغالب– يتحدثون فيما بينهم، ولا يعبأون بما يسمعون..

– يركب مع والده السيارة، فيجده قد أدار زرًا فيها، وانبعث نفس الصوت، ثم يجد أباه يتحدث مع أمه في وجود الصوت الذي تعود علىٰ سماعه دون أن يهتم به أحد..

فماذا تظن أن يرسخ في يقين هذا الطفل – الذي ما هو إلا أنا وأنت – عن القرآن؟!

هل سيرث من أبويه ومن البيئة المحيطة أهمية القرآن، وأنه للقلب كالروح للجسد، أم سيرث التقديس الشكلي له، وعدم الاهتمام بفهم خطابه؟!

– وعندما يكبر الأولاد ويكونون في سن المدرسة، فإن بعض الآباء يأخذ بأيديهم إلىٰ مراكز تعليم القرآن، فيزداد الأمر رسوخًا لديه بأن المطلوب مع القرآن هو: ألفاظ تقرأ أو تحفظ بلا وعي ولا إدراك.

۞ الصورة الذهنية:

✍ **يقول عمر عبيد حسنة**: إن الصورة التي طبعت في أذهاننا، في مراحل

الطفولـة للقـرآن أنـه لا يُسـتدعي للحضـور إلا في حـالات الاحتضـار والنـزع والوفـاة، أو عنـد زيـارة المقـابر، أو نلجـأ لقراءتـه عنـد أصـحاب الأمـراض المستعصية، وهي قراءات لا تتجاوز الشفاة(١).

✍ **ويقول الإمام محمد عبده** ﷺ: معرفتنا بالقرآن كمعرفتنا بـالله تعـالىٰ أول ما يُلقن الوليد عندنا من معرفة الله تعالىٰ هـو اسـم (الله) تبـارك وتعـالىٰ، يتعلمه بالأيمان الكاذبة، والصادقة: (والله لقد فعلت كذا وكذا، والله ما فعلت كذا).

وكذلك القرآن: يسمع الصبي ممن يعيش معهـم أنـه كـلام الله تعـالىٰ، ولا يعقـل معنـىٰ ذلـك، ثـم لا يعـرف مـن تعظـيم القـرآن إلا مـا يعظمـه بـه سـائر المسلمين الذين تربىٰ بينهم وذلك بأمرين:

أحدهما: اعتقاد أنَّ آية كذا إذا كُتبت ومحيت بماء وشربه صاحب مـرض كذا يشفىٰ، وأن من حمل القـرآن لا يقربـه جـن ولا شـيطان ويبـارك لـه في كـذا وكذا إلىٰ غير ذلك ممـا هـو مشـهور ومعـروف للعامـة أكثـر ممـا هـو معـروف للخاصة.

ثانيهما: الهـزَّة والحركـة المخصوصـة والكلمـات المعلومـة التـي تصـدر ممـن يسـمعون القـرآن إذا كـان القـارئ رخـيم الصـوت، حسـن الأداء، عارفًـا بالتطريب علىٰ أصول النغم.

والسبب في هذه اللذة والنشوة هو حسن الصوت والنغم، بل أقوىٰ سـبب

(١) كيف نتعامل مع القرآن ص ١٧.

لذلك هو بُعد السامع عن فهم القرآن.. وأعنىٰ بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليب القرآن بعجائبها وتملكه مواعظها فتشغله عما بين يديه مما سواه.(١)

۞ ورثنا القرآن:

لقد ورثنا القرآن فيما ورثناه عن السابقين.. ورثناه ككتاب مقدس تقديسًا شكليًا: نُقبِّله.. نفتتح به الحفلات والمناسبات.. تكتب آياته في تابلوهات أنيقة تزين الجدران، أو تدق علىٰ مصكوكات من الذهب والفضة لتتزين بها النساء.

ثانيًا: طول الإلف:

إن وجود الشمس، وشروقها وغروبها كل يوم آيات عظيمة تدل علىٰ القدرة المطلقة للخالق – سبحانه وتعالىٰ – وعلىٰ قيوميته علىٰ جميع خلقه، وأنه لا تأخذه سنة ولا نوم.. هذه الآيات التي نشاهدها كل يوم: صباحًا ومساءً لماذا لا تؤثر فينا؟!

الجواب هو: لأننا ألفنا وجودها منذ الصغر.

(فطبيعة النفس البشرية إذا أَلِفت الشيء خفىٰ عليها أسراره، وصرفها هذا الإِلف عن التفكر فيه ثم اكتشاف ما فيه) (٢).

---

(١) مقدمة تفسير الفاتحة ص ١٩، ٢٠، باختصار.

(٢) التعبير القرآني ص١٣٦.

فإذا ما انتقلنا للقرآن الكريم فإننا نجد أن (طول الإلف) له دور كبير في عدم انتفاعنا به..

فمنذ الصغر ونحن قد ألفنا القرآن يُتلىٰ بنغمة وتراتيل معينة، لا تظهر هذه النغمة في كلام آخر سواء كان شعرًا أو نثرًا أو أغانٍ.

وباستمرار سماع هذه النغمة تعودت الأُذن عليها، وألِفتها دون محاولة الإصغاء إلىٰ معنىٰ الكلام الذي يصاحبها.

ومما ساعد علىٰ عدم الإصغاء للخطاب القرآني أن المستمع في الغالب يكتفي بجو الروحانية، والشعور بالارتياح الذي ينشأ عند سماع أصوات المقرئين ينساب في المكان وكما أسلفنا فإن هذا الارتياح ناشئ عن جرس القرآن وجماله التوقيعي الذي لا نظير له، ولكنه للأسف لا يُنْشئ إيمانًا، فالإيمان يحتاج إلىٰ يقظة العقل وإدراكه للمعنىٰ، مع استثارة العاطفة مع هذا المعنىٰ ليستقر مدلوله في القلب فينشأ بذلك الإيمان.

۞ القراءة بالألحان المحدثة:

ومما ساعد علىٰ إلف القرآن، وعدم الانصراف إلىٰ المعنىٰ هو القراءة بالألحان المحدثة التي ابتدعها بعض المقرئين.

✍ **يقول ابن رجب**: هذه الألحان تهيج الطباع، وتلهي عن تدبر ما يحصل له من الاستماع، حتىٰ يصير الالتذاذ بمجرد سماع النغمات الموزونة، والأصوات المطربة، وذلك يمنع المقصود من تدبر معاني القرآن.

وإنما وردت السنة بتحسين الصوت بالقرآن، لا بقراءة الألحان، وبينهما

بون بعيد[١].

فالقارئ يتفنن في النغم والتلحين، ويخرج عن سنن الترتيل، وقواعد التجويد، ويعيد الآية عند استحسان السامعين للنغمة وطلبهم الإعادة، والسامع يستخفه الطرب لا من معاني القرآن، بل من حسن التوقيع، وأفانين الألحان، فيصيح في نهاية الآيات بكلمات الاستحسان، والثناء على القارئ، والدعاء له، وطلب الإعادة منه. [٢]

ولطالما طرقت أَذاننا ونحن نسير في الشوارع والطرقات أصوات بعض المقرئين وهم يقرؤون بهذه الألحان المحُدثة، والقراءات المختلفة لنفس الآية، ولطالما سمعنا كلمات الاستحسان التي تلقىٰ إليهم والآهات التي تخرج من أفواه السامعين..

سمعنا هذا ولا نزال نسمعه حتىٰ ألفناه، وانصرفت عقولنا عن إدراك المعاني..

ثالثًا: نسيان الهدف الذي من أجله نزل القرآن:

إن الإنسان هو موضوع القرآن، بمعنىٰ أن الهدف الأسمىٰ لنزول القرآن هو هداية الإنسان وإصلاحه والسير به في الطريق المؤدي إلىٰ رضا الله وجنته..

ومن أجل تحقيق هذا الهدف جعلها الله رسالة موجزة مقارنة بما تحتويه

(١) مجموع رسائل ابن رجب ٢/ ٤٦٣.
(٢) هجر القرآن ص ١٠٠. وليراجع ما كتبته في هذه النقطة في كتابي فتح المنان.

من معان عظيمة، ليسهل حملها وقراءتها وحفظها.

ولكونها رسالة موجزة، وفقراتها قليلة الكلمات ثقيلة المعاني، كان من الضروري قراءتها بتأنٍ وتؤدة حتىٰ يتمكن القارئ والسامع من فهم المقصود منها ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

ولأن وظيفتها في الهداية والتغيير تتطلب الزيادة المستمرة للإيمان في القلوب، كان الأمر الإلهي بترتيلها والتغني بها لتستثير بذلك العاطفة ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل: ٤].

ولأنها تخاطب الناس جميعًا، فقد يسَّرها الله للقراءة، فلا تحتاج إلىٰ أماكن محددة، أو أزمنة خاصة لتقرأ فيها: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

ولأن مستويات الناس وثقافاتهم ومداركهم مختلفة فقد جعل الله عباراتها مرنة تستوعب الزمان والمكان والأشخاص أيًا كان مستواهم..

ولأن الإنسان من طبيعته النسيان، وكذلك لتعرضه المستمر للمغريات والملهيات خلال يومه وليلته؛ كان من الأهمية بمكان أن يداوم علىٰ قراءة القرآن لتحدث له دوام التذكرة والتبصرة، وليُعَوِّض بالقرآن ما فقده من إيمان، وليس ذلك فحسب بل وليمد قلبه بالروح التي تجعله دومًا في إقبال علىٰ الله.

من هنا كانت التوجيهات النبوية المتعددة بكثرة تلاوة القرآن، وتعاهده كل يوم، وحتىٰ لا تمل النفس كان رصد الجوائز والأجر العظيم لكل من قرأ

حرفًا من القرآن ليستمر الحافز والدافع لديها للقراءة.. كل ذلك ليتحقق المقصود من اللقاء بالقرآن..

تأمل معي هذا الحديث النبوي الذي يربط بين الأمرين.. بين قيمة القرآن، وبين ثواب قراءته. عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ، فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَأْدُبَةِ اللهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ. إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، وَهُوَ النُّورُ الْمُبِينُ وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنِ اعْتَصَمَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، لَا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَخْلَقُ مِنْ رَدٍّ. اتْلُوهُ فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَأْجُرُكُمْ بِكُلِّ حَرْفٍ [مِنْهُ] عَشْرَ حَسَنَاتٍ. لَمْ أَقُلْ لَكُمْ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**». (١).

ولأن الهداية لن تحدث إلا بفهم المراد من الخطاب كان الأمر بتدبر القرآن لتحقيق المقصود من نزوله ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

ولأن البعض قد لا يتيسر له وجود المصحف بجواره في كل الأوقات، ولأن الصلاة تتطلب قراءة القرآن كانت فضيلة حفظه.. كله أو بعضه.

إذن فهي منظومة متكاملة من الوسائل التي شُرِعت، وندب إليها لتحقيق الهدف العظيم من نزول القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٥٠، وفي مجمع الزوائد (٧/ ١٦٤)، والدارمي (٣٣١٦) عن عبد الله بن مسعود.

وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس: ٥٧].

فكثرة قراءة القرآن، وتعلم أحكام تلاوته، وترتيله، وحفظ آياته، وتدبره، وقراءته بصوت مسموع وحزين.. كل هذه وسائل لتحقيق الهدف.

معنىٰ ذلك أن أهل القرآن هم أهل الانتفاع به، والوصول من خلاله إلىٰ الهدف الذي أنزل من أجله.

✍ **من هنا ندرك كلام ابن القيم:** أهل القرآن هم العالمون به، والعاملون بما فيه، وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه، ولم يعمل بما فيه، فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم.(١)

۞ ماذا يحدث لو نُسي الهدف؟!

فإذا ما نُسي الهدف من نزول القرآن، وبالتالي لم يحدث ربط الوسائل بهذا الهدف، فمن المتوقع أن يتعامل الكثير مع النصوص الواردة في فضل وأهمية «الوسائل» (كفضل القراءة والترتيل والحفظ وقراءة الليل..) علىٰ أنها «غايات» و «أهداف».

فيُصبح هم المرء حفظ القرآن كهدف ومن ثم لا يُعطي اهتمامًا يُذكر للقراءة المتأنية الواعية المدركة لمعاني الآيات فضلًا عن التأثر بها.

وينصرف الهم كذلك إلىٰ تحصيل أكبر قدر من الحسنات من خلال القراءة السريعة، وينصرف الهم أيضًا إلىٰ استغراق الأوقات في تعلم أحكام

(١) زاد المعاد لابن القيم ١/ ٣٣٨.

الترتيل والتعمق فيها، والتشديد علىٰ المتعلمين في أمور قد لا تكون أساسية في الترتيل.

- كل ذلك وغيره من المتوقع أن يحدث لو نُسي الهدف من نزول القرآن..

ولقد حدث ذلك بالفعل.. نعم، لم يحدث ذلك بين يوم وليلة، بل بدأ نسيان الهدف من نزول القرآن يحدث بالتدريج بعد الجيل الأول.

✍ **يقول عبد الله بن مسعود**: أُنزل القرآن ليُعمل به، فاتخذوا دراسته عملًا!!

إن أحدكم ليقرأ من فاتحته إلىٰ خاتمته ما يُسقط منه حرفا، وقد أسقط العمل به.[1]

✍ **ويقول الحسن البصري**: إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملا، فأنتم تركبونه وتقطعون به مراحله، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار.[2]

۞ هل نقرأ لنفهم أم نقرأ لنقرأ؟!

✍ **وللشيخ محمد الغزالي** رحمه الله كلام دقيق يؤكد هذا المعنىٰ، فيقول في كتاب «كيف نتعامل مع القرآن؟»: «حال المسلمين مع القرآن الكريم تستدعي الدراسة المتعمقة، ذلك أن المسلمين بعد القرون الأولىٰ، انصرف

(١) سبق تخريجه.

(٢) لمحات الأنوار للغافقي ٣/ ١٢٠٤.

اهتمامهم بكتابهم إلىٰ ناحية التلاوة، وضبط مخارج الحروف، واتقان الغُنن والمُدود، وما إلىٰ ذلك مما يتصل بلفظ القرآن والحفاظ علىٰ تواتره كما جاءنا، أداءً وأحكامًا -أقصد أحكام التلاوة- لكنهم بالنسبة لتعاملهم مع كتابهم، صنعوا شيئًا ربما لم تصنعه الأمم الأخرىٰ.. فإن كلمة «قرأت» عندما يسمعها الإنسان العادي أو يقولها، تعني: أن رسالة جاءته أو كتابًا وقع بين يديه فنظر فيه، وفهم المقصود منه.. فمن حيث الدلالة لا أجد فكاكًا بين الفهم والقراءة، أو بين السماع والوعي.

أما الأمة الإسلامية، فلا أدري بأية طريقة فصلت بين التلاوة، وبين التدبر، فأصبح المسلم اليوم يقرأ القرآن لمجرد البركة، كما يقولون، وكأن ترديد الألفاظ دون حس بمعانيها، ووعي لمغازيها، يفيد أو هو المقصود.

وعندما أحاول أن أتبين الموقف في هذا التصرف، أجد أنه مرفوض من الناحية الشرعية، ذلك أن قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩] يعني: الوعي والإدراك والتذكر والتدبر.. فأين التدبر؟ وأين التذكر مع تلك التلاوة السطحية التي ليس فيها أي إحساس بالمعنىٰ، أو إدراك للمقصد».(١)

رابعًا: الانشغال بفروع العلم والتبحر فيها

كان ﷺ يحرص علىٰ عدم انشغال الصحابة بغير القرآن حتىٰ يتمكن القرآن في القيام بعمله علىٰ أكمل وجه..

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن ص٢٧.

وتوفي الرسول ﷺ بعد أن ترك جيلًا عظيمًا تفخر به البشرية حتىٰ الآن..

ولقد كان أبناء هذا الجيل حريصون علىٰ تبليغ نفس الرسالة لمن بعدهم، ولقد مر علينا سابقًا الكثير من المواقف التي تؤكد هذا المعنىٰ..

ولكن بعد أن اتسعت الفتوحات، واختلط المسلمون بالأجناس الأخرىٰ وبما كانوا يحملونه من ثقافات حدث الانبهار بها والتفكير في نقلها وأسلمتها.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرىٰ فإن الانشغال بتدوين الحديث، وتتبع رجاله استنفذ جهدا عظيمًا من الأجيال التالية لجيل الصحابة.

هذا العمل العظيم الذي قام به هؤلاء العلماء الصالحون كان ضروريًا لحفظ سنة رسول الله ﷺ، ولكن كان من الأولىٰ ألا يكون هذا العمل علىٰ حساب القرآن، بمعنىٰ أن يسير الاهتمام بالحديث وتدوينه جنبًا إلىٰ جنب مع الاهتمام بالقرآن كمصدر متفرد للهداية والتغيير، ولكن لم يحدث هذا علىٰ الوجه المطلوب، وبدأ دور القرآن يتراجع قليلًا في النفوس، ولقد تعالت صيحات من بينهم تنبههم لضرورة التوازن، حتىٰ لا يكون الاهتمام بالحديث علىٰ حساب القرآن، ومن ذلك ما قاله الإمام الشعبي لأصحاب الحديث: يا قوم! إنكم كلما تقدمتم في الحديث تأخرتم في القرآن.(١)

وليت الأمر قد اقتصر علىٰ الاهتمام بالسنة، فالسنة هي صنو القرآن،

(١) مع القرآن وحملته في حياة السلف الصالح ص ٥٣، نقلا عن نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٨٢.

وشارحة لما أجمل فيه، والذي يهتم بها اهتمامًا صحيحًا فسيجدها تدعوه دومًا إلىٰ الانتفاع الحقيقي بالقرآن.

وليت الأمر قد اقتصر كذلك علىٰ العلوم التي استقاها العلماء من الكتاب والسنة والتي تُعرف الناس بربهم وبالطريق الموصل لبلوغ رضاه وجنته، وبأحكامه التي افترضها عليهم، وبما ينفعهم وبما يضرهم في الدارين.

لم يقتصر الأمر علىٰ ذلك، بل بدأ التوسع في فروع العلم المختلفة كعلوم الآلة (النحو -البلاغة- الصرف..) والتي من المفترض أنها وسائل مُعينة لخدمة العلم الأساسي النافع ألا وهو معرفة الله ﷻ وما يحبه ويرضاه، ومعرفة أحكامه، ومعرفة ما ينفع وما يضر.

كل ذلك كان علىٰ حساب الاهتمام بالقرآن.

۞ النبع لم يعد واحداً:

إذن فتطور الفكر الإسلامي بهذا الشكل كان له مردود سلبي علىٰ الاهتمام بالقرآن، والدليل علىٰ ذلك أن المساحة اتسعت بين الجيل الأول والأجيال المتتالية.

خامسًا: غياب أثر القرآن:

ومن العوامل التي أدت إلىٰ ضعف الإيمان بالقرآن غياب أثره في حياة الكثير من المنشغلين به.

نعم، هناك نماذج قرآنية تظهر بين الحين والآخر، ولكن نسبتها قليلة

بالمقارنة بالمجموع.

وعندما يرىٰ عموم الناس أن أخلاق غالبية أهل القرآن لا تختلف عن أخلاق غيرهم، بل علىٰ العكس فقد يروا من البسطاء أخلاقًا وسلوكيات قد لا يجدوها من المنشغلين بالقرآن.. فإن هذا من شأنه أن يؤثر علىٰ نظرتهم للقرآن تأثيرًا سلبيًّا، لتزداد مكانته انحصارًا في النفس، ويدخل في نطاق التقديس الشكلي المحض.

فإذا ما حدثتهم عن ضرورة الانتفاع بالقرآن كما انتفع به الجيل الأول، قفزت إلىٰ أذهانهم الأمثلة التي يعرفونها ويحتكون بها من المنشغلين بالقرآن، و التي لا يرون فيها النماذج الصحيحة، لذلك فإن كلماتك – في الغالب – لن تجد لها صدًىٰ إيجابيًّا في نفوسهم.

والأمثلة علىٰ هذا الكلام موجودة في كل مكان – إلا من رحم الله. **ونسأل الله العافية.**



الخاتمة نسأل الله حسنها

أتيتُك راجيًا يَا ذا الجلالِ ... ففرِّجْ ما تَرَىٰ من سُوءِ حَالي

عَصَيْتُك سَيِّدِي ويْلِي بجَهْلي ... وَعَيبُ الذنبِ لم يخطُرْ ببالي
إلىٰ من يَشْتكِي المملوكُ إلَّا ... إلىٰ مَوْلَاهُ يا مَوْلَىٰ المَوالي
لَعَمْرِي ليتَ أُمِّي لَم تلِدْني ... ولم أُغْضِبْك في ظُلَمِ اللَّيَالي
فَهَا أنا عبدُك العَاصي فقيرٌ ... إلىٰ رُحْماكَ فاقبلْ لي سُؤَالي
فإنْ عاقَبْتَ يا ربِّي تُعَاقِبْ ... مُحقًّا بالعذابِ وبالنَّكَال
وإن تَعْفو فعفْوك قد أَرَاني ... لِأفعالي وأوزاري الثقال



الفهرس

المبحث الثالث: ثمرات ربانية الغاية في النفس والحياة ٨٤

المبحث الرابع: تفاوت الناس في الغايات والوجهات ١٠٢

المبحث الرابع: ثمرات ربانية المصدر ٢٢٨

الفصل الثالث: لماذا نحتاج إلى الربانية ٢٣٧

المبحث الأول: تحقيق السعادة ٢٣٨

المبحث الثاني: الدخول في معية الله وحمايته ٢٦٤

المبحث الثالث: تأمين مستقبل الأولاد ٢٧٤

المبحث الرابع: الانسجام مع الفطرة ٢٧٨

المبحث الخامس: عودة العلم المفقود (الخشوع) ٢٩٤

المبحث السادس: التمكين لدين الله ٣٠٦

المبحث الرابع: القرآن روح القلوب وقوتها ٣٧٧

